د. علي فهمي خشيم

الحركة والسكون

وفصول أخرى



الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الحركة و السكون

د. علي فهمي خشيم

الحركة والسكون

وفصول أخرى

الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الطبعة الأولى: أي النار 1428 ميلادية

رقم الإيداع: 3087 / 97 ـ دار الكتب الوطنية ـ بنغازي

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

مصراته: ص.ب. 17459 ـ مبرق: 30098 هاتف: 614418 ـ بريد مصور 614816 ـ 051

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

كلمة.. عن هذه الكلمات

الإنسان في هذه الحياة كالقطار. . لا يملك أن يخرج عن قضبانه وإلا انقلب.

والحياة كشريط السكة الحديدية، خط مرسوم ومنحنيات معلومة نمضي فيها ولا نستطيع عنها الحيدة حتى آخر محطة. غير أن لكليهما القدرة على أمور كثيرة ضمن هذا المسار المعروف. كلاهما قادر على الإسراع أو الابطاء إن أراد، قادر على اختيار محطة ما ليقف عندها لغرض ما أو يجتازها دون توقف. وقادر أيضاً على العودة، أحياناً، إلى بعض المواقف التي مر بها من قبل.

وهذه المجموعة التي بين يديك الآن هي جملة محطات، أو لنقل مواقف، في رحلة قلم، لك أن تنظر إليها ولك أن تصرف النظر. فهي قد تهمك وتهم الكثيرين، وقد تشغل القليل من الناس، وقد لا تهمك ولا تشغل أحداً على الإطلاق. . سوى صاحبها.

ما الذي يجعل الكاتب يفكر في جمع ـ أو بالأحرى اختيار ـ

شيء ما مما نشر ليقدمه للناس من جديد في شكل كتاب؟ أهو ضرب مما يسمى في علم النفس بالنكوص أو الارتداد إلى بدايات الحياة الأولى؟ أم هو اعتزاز بما كتب؟ أم محاولة للارتباط بقرائه، القدامى منهم والمحدثين، إن كان له قراء؟ أم رغبة في أن يقال إنه كتب ونشر؟

قد يكون هذا أو ذاك من الأسباب، وهو بالنسبة لهذه المجموعة لأنها تحمل آراء وأفكاراً ودراسات نشرت في مختلف الصحف الليبية على مدى سنين طويلة ناقشت بعض القضايا التي أثيرت في أوانها، وكثير منها لا يزال يثار، قد تشكل ـ في مجملها ـ صورة ما، عن قضية ما.

وكما تتباين محطات القطار شكلاً وموقعاً وطابعاً، فإنك واجد في ما بين يديك تبايناً في الأسلوب والشكل والعرض، باختلاف الفترات التي كتبت فيها هذه المقالات، إلا أن هناك خيطاً يربطها، كما تربط القضبان القطار، يتمثل في أن كاتبها واحد، بنظرة واحدة ومنطلق واحد ـ نشرت كلها قبل الثورة سوى آخر مقالتين في الفصل الثالث وآخر مقالة في الفصل الرابع. وكان من الممكن أن تكون على غير هذا الترتيب الذي ترى، بحيث تصنف زمنياً أو على أساس الطول والقصر. غير أنه ارتؤى أن تبوب موضوعياً بحيث تقدم نفسها على أربعة فصول.. ولك من بعد هذا الخيار.

يقول «برناردشو» إن فكر الكاتب يتغير، بل يجب أن يتغير كل يوم، دليل حياة وتجدد. وقد يكون في هذا القول بعض الصحة، إلا

أنني لا أزال أؤمن بأن التغير شيء والتجدد شيء آخر مختلف. إذ لا بد للكاتب من اتجاه معين، من فكر محدد واضح، من منهج فكري يتبعه ويأخذ به، ثم هو يتجدد داخل دائرة هذا الفكر ويجدده، أو يحاول على الأقل تجديده. وهذا يعني الثبات ـ ولو في الأصول ـ خاصة بعد مرحلة النضج، وبهذا يتميز كاتب عن كاتب.

وحين أعيد النظر في هذه المقالات أجد أن القليل جداً مما ذهبت إليه تبدل، لكن الكثير لا يزال هو هو كما كان وأن رأيي فيه لم يتغير. وقد يكون ما جاء في بعض المقالات وجد سبيله إلى التنفيذ بعد الثورة، وقد يكون هناك ما لم يجد طريقه بعد. فهي ـ على كل حال ـ إذن مسألة تسجيل ودعوة، حين أمكن أي منهما.

وأنت تجد أمامك شيئاً من وحي الخاطر، أو من «التفلسف»، نبع من مواقف معينة في بلادنا هذه، أو الوطن العربي، أو بلاد أوروبا، أو العالم الإسلامي. لكنها كلها ـ بلا استثناء ـ كان لتقول شيئاً وتبين أمراً من الأمور، تضميناً أو تصريحاً وإشارة أو توضيحاً. ولك من بعد أن تأخذها كما هي أو تتركها كما هي.. والسلام.

علي فهمي خشيم

الفصل الأوّل :

من المجتمع وعنه

«من الناس من يقول كلمته ويمضي.
ومنهم من يقولها ويقف... منتظراً ما
سيحدث».



نقّوا الكأسَ من دَاخِلهَا

كانت هذه صيحة المسيح عليه السلام في تلك القطعان الضالة عن ذاتها، وعن مجتمعها، وعن ضميرها، من بني إسرائيل. أطلقها مدوية مجلجلة تشير إلى موطن الفساد، وتحدد مكان الداء العضال.. بعد أن تعفنت النفوس، وعطنت الألباب، وتوارت الضمائر خلف حجب من الرذيلة والتفسخ والانحطاط. كان يدرك - عليه السلام - بوضوح وجلاء أنه بهذا إنما يلمس كبد الحقيقة، ويشعر بأن الإصلاح الداخلي كفيل برؤية العيوب والنواقص مما يؤدي بالتالي للالتفات إلى مساوىء الخارج، وقائد إلى نقاء الاثنين.

ومن قبل المسيح كان دعاة الإنسانية السامية، وأبناء البشرية المصلحون الخالدون، يوجهون الأنظار إلى الداخل، ويبصرون البشر ببواطنهم، يدعونهم تارة في رفق وحنو، وأخرى في عنف وشدة، إلى التطهير الباطني واستجلاء الجواني من الذات، علهم يوصلونهم إلى شاطىء السلامة والأمان.

ومنذ سحيق الزمان. . منذ آلاف السنين. قرأ الناس على مدخل معبد «دلف» العبارة الخالدة: «أعرف نفسك» وانبهروا بها كما ينبهرون بكل حكمة وموعظة. . لكنهم لم يعملوا بها أبداً! ومضوا يتصارعون، وراحت المدنيات تقوم لتنهار، والحضارات تزدهر لتذوي، والشعوب تنهض لتخر ولو بعد حين.

وانثالت الديانات تترى، تدعو لخير الإنسان، وتبشر بمستقبل أفضل لبني البشر. وتوالى الأنبياء البررة يدعون وينادون إخوتهم الضالين. . لكن النداء ظل يتردد صداه في الأسماع دون أن تعيه القلوب. وعاد المسيح ـ عليه السلام ـ يبسط في فيض من الإيمان العميق قيمة الضمير الإنساني في الحياة: «ليس شيء من خارج الإنسان يدنسه. . بل ما يخرج من الإنسان هو الذي يدنس الإنسان».

كان يعرف للضمير قيمته، ويدرك أهميته، ويحس بأن البشر إذا فقدوه ضيعوا بذلك كل شيء خير وحق وجميل.

ثم جاء محمد ـ صلوات الله عليه ـ ومد يمناه لقومه وللناس كافة، يعظهم ويوقظ فيهم الضمير الذي فقدوه ويقول: «من أصلح جوانيه أصلح الله برانيه».

ويقول: «إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله. . ألا وهي القلب».

وكان يرى في صفاء لا يشوبه كدر أن صلاح الظاهر متوقف

على صلاح الباطن. . وكان هذا ما جاء يدعو إليه ويلقى في سبيله ما يلقى.

* * *

إيه!! إنها لقصّة طويلة تلك التي صارع فيها ملاك الخير شياطين الشر والفساد. .

وإنها لرحلة مديدة في تاريخ هذه الكرة الدوارة، تلك التي نسميها تاريخ «الإصلاح الاجتماعي» لبني البشر.

فمنذ أن درج الإنسان النياندرتالي فوق مروج البحر الأبيض المتوسط، حتى يوم انطلاق فالنتينا تيرشكوفا إلى عالم اللانهائية، والدعوة هي الدعوى والنداء هو النداء.

مرات قليلة تلك التي استجاب فيها الناس، وأظهروا رغبة في التطهر والتطهير، وهي مرات نعموا فيها بحياة إنسانية كريمة، شبع فيها الجائع ونال المحروم واستطاع الضعيف أن يعايش القوي. . وذاق بنو الإنسان حلاوة الديمقراطية الحقة، ولذة العدالة الاجتماعية، وسعدوا بأيام هنية من الراحة والاطمئنان.

لكن الأمر لم يسر دائماً كما يجب أن يسير، ولم تمض العجلة دون أن تعترضها الصخور والأوحال والحفر. تعودت الأذن أن يوجه إليها الحديث، لكن اللب لم يتعود على السماع. وكانت تحدث دائماً حوادث مؤلمة نتيجة لهذه الحال. . كان الطوفان غالباً يدمر أشياء جميلة ورائعة حينما لا يسمع هديره البعيد.

واستمر البشر يعيشون.. إنهم يعيشون فقط لكنهم لا يحيون.. فإن الحياة تعني أشياء كثيرة غير موجودة الآن على الإطلاق.

دور واحد تغير في المسرحية الأزلية..

ذلك أن الخطاب كان يوجه دائماً للإنسان.. للفرد. للشخص، غير مترابط مع غيره من الناس. أما اليوم، فإنه موجه إلى كتلة أكبر، نسميها المجتمع.. إلى حزمة من الأفراد يكونون مجتمعاً كبر أو صغر.. يدعوه المسيح الكأس، ويسمي الأفراد المرضى، المتعفنين، موتى الضمير، شوائب تتعلق به من الداخل وتقذره، وتطفىء بريقه وبهاءه. وهو لذا يدعونا إلى تنقية الكأس من داخلها، إذا كنا نريد لها الطهر والصفاء!

الطفرة والعقلاء

كوننا نعيش في مجتمع متأخر حقيقة لا جدال فيها ولا نقاش، وكوننا بدأنا ندرك هذه الحقيقة ونتبيَّنها مسلمة لا أخذ فيها ولا رد. ولكن الذي يحتاج إلى جدال ونقاش وأخذ ورد هو: كيف ننهض بهذا المجتمع المتخلف ونرقي بأنفسنا إلى مستوى المجتمعات الأخرى التي سبقتنا منذ بعيد الزمن؟

يقول دعاة الإصلاح المتزمتون وفي نبراتهم صدى الحكمة الساكنة أو السكون الحكيم: لا تستعجلوا الأمر، واتركوه إلى حين. إن المجتمع لا بد سيتطور من تلقاء نفسه إذا أدرك واقعه وهو لا بد سائر خطوة فخطوة، ويوماً بعد يوم، إلى غاية هي أقرب إلى الكمال وأدنى. وهو - عن طريق التطور الطبيعي والتدرج التاريخي - سيحقق نموه وتقدمه عن سبيل سليم لا هفوات فيه ولا أخطاء.

هم يقولون هذا معارضين بذلك الفكرة التي تنادي بإحداث تغييرات جوهرية في المجتمع سواء في سبله أو أهدافه، أحداثاً

قصدياً بغرض تحريره من قيود التأخّر والتخلف والانحطاط. هذه الفكرة التي تؤمن إيماناً عميقاً بأننا إذا ما أردنا لأنفسنا تقدماً ونمواً فلا مَناص لنا مطلقاً من أن نحدث نحن هذا التقدم وهذا النمو ولا نتركه لعامل الزمن. هؤلاء يتهمهم أصحاب رأي التطور التدريجي والتمهل والتلكؤ اتهامات تحتاج إلى نظر وإمعان بصر.

يقول التطوريون التدرجيون: إن أهل نظرية الطفرة إن اتَّبعناهم فسيتسببون في أخطاء جسيمة لا يمكن تلافيها ولا التقليل من شأنها، لأنها تأتي على غير انتظار نتيجة عدم تقدير الخطوة للرجل قبل موضعها. وهم أيضاً يتسببون في إحداث خلخلة مفاجئة في القيم والمعايير التقليدية الاجتماعية والخلقية، فينشأ عن هذا انحرافات في جميع المجالات. ولذا وجبت السكينة ووجب الهدوء، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وإذا ما نظر المرء إلى هذا الرأي انخدع بظاهره الداعي للتريث والتبصر وظن فيه الحكمة كل الحكمة، وحسب فيه الصلاح كل الصلاح... وهو في غمرة هذا ينسى أن هؤلاء إنما يساوقون آراء التقليديين والمتزمتين ويساندونهم في موقفهم الجامد وإن اتخذوا مظهر الداعي إلى الإصلاح. هم يفعلون هذا عن قصد أو غير قصد.. سيان، وهذا لا يمنعنا قط من أن نقف في وجوههم، لأن القانون لا يبرر للجاهل به أن يذنب دون عقاب.

مذا نريد أن نقول إذن؟

الذي نود أن نقرره ـ وهو أمر مقرر فعلاً عبر التاريخ وأثبتته السنون الطوال من التجربة والخبرة في مختلف الأمم والشعوب ـ هو أن الإصلاح لا يأتي أبداً من تلقاء نفسه، ولا يمكن لمجتمع ما أن يحقق تخلصاً من كيانه المريض ليلبس ثوباً جديداً من التحرر والانطلاق إلا إذا جاءت يد من فوقه تحدث فيه من التغييرات ما هو قمين بأن يخلصه من أدوائه وعلله.

إن المتتبع لأحوال الأمم وأخبار الشعوب، وثورات المجتمعات، سيرى هذا واضحاً لا يحتاج إلى دليل أو تدليل.

حدث هذا في المجتمعات الأوروبية إبان عصر النهضة، حدث في المجتمعات الشرقية التي استطاعت أن تتخلص من فكرة الهدوء والتعقل هذه، فأعلنت تغييرات جذرية، وغير جذرية، في أساليب حياة مجتمعاتها، وأهداف هذه المجتمعات، حين قامت جماعات من المخلصين مزقت صكوك التقاليد البالية، وأحرقت أسفار الجمود والتخلف، وفرضت قوانين ونظماً جديدة تتفق تماماً مع العقلية السليمة التي تسيرها، والتي حققت لمجتمعاتها خيراً كثيراً نحن نلمسه اليوم ونراه.

وأنا هنا لا أنادي بالاندفاع الجامح الذي لا يسيره عقل ولا تبصر، ولكنني أنادي بالاندفاع الحكيم الذي يملك القوة للسير، ويكون هو قوة دافعة لغيره، وهو في نفس الوقت يرى طريقه واضحاً وهدفه جلياً، مهما بعد الهدف وطال الطريق.

في مجتمع متخلف متأخر كمجتمعنا هذا الذي نعيش فيه ونحيا، لا مفر لنا ـ إن أردنا حقيقة مجتمعاً سليماً قويماً ـ من أن نستن قوانين وتشريعات جديدة، تكون في حد ذاتها قادرة على فرض التغير والتغيير على أفراد المجتمع، سواء رضوا أو لم يرضوا، هادفة إلى غاية الارتقاء والتقدم. وهي حتماً ستلاقى معارضة شديدة بقدر شدة تخلفنا، ولكنها ستنتصر في النهاية إن وجدت القدرة التنفيذية الحازمة التي تكفل لها القوة والنفوذ.

أما أن نعتبر كل تشريع طفرة، وكل قانون مصلح قفزة نخشى مغبتها ونخاف أخطارها ومساوئها، فإن هذا أشبه بمن يخشى لفحة الهواء لو خرج من داره الضيقة وإن اختنق بهوائها الفاسد فيها.. وهل هناك هواء مجتمع أفسد وأركد وأقذر وأبلد من هواء نتنفسه صباح مساء؟!.

الحركة والسكون

لعلنا لا نتجاوز الحقيقة ولا نبتعد عن الواقع كثيراً إذا ما قررنا أن هاتين الكلمتين قد شغلتا أذهان المفكرين في مختلف فروع العلم والفلسفة أكثر مما شغلتها كلمة أخرى. إذ إن بدء استعمالهما كان منذ أن برز في حياة الإنسان التفكير المنطقي المنظم القائم على أصول من الملاحظة وإعمال الذهن والحكم على الأشياء في ظاهرها ثم البحث عما وراء هذا المظهر من حقيقة وجوهر. أو قل هو كان قبل بزوغ فجر هذا التفكير الفلسفي الممنطق، أعني منذ أن لاحظ الإنسان ظاهرة الحياة والموت، أي الحركة والسكون، سواء بالنسبة لبني جنسه أو لجميع الكائنات من نبات وحيوان.

لكن البداية المبكرة للتفكير اليوناني هي التي فتحت الباب على مصراعيه للصراع العنيف الحاد الذي قام بين مدرستين من أكبر مدارس الفكر في تاريخه القديم. نادت إحداهما بالحركة المستمرة، أي المعلولات ـ حتى تصل إلى العلة الأولى أو المحرك الأول ـ

كما يعبر عنه ـ موجد هذا الكون ومبدعه وهي العلة الثابتة غير المحركة «بفتح الراء» ومنها استمد الكون ثباته النسبي ووجوده. فالحركة إذن هي سبب الوجود وأصله العظيم. .

من هذه الجذور الضاربة في أعماق التاريخ السحيق للفكر الإنساني تفرعت جميع المدارس الفلسفية ثم الاجتماعية، وانبثقت النظريات والمذاهب على مر الأيام والعصور إلى أيامنا هذه التي نعيشها ونحياها. . والتي تتطاحن فيها الفلسفات والمذاهب في معسكرين كبيرين: المعسكر المادي الحسي بما فيه من مادية جدلية ووضعية ورياضية وما إليها مما لا يؤمن بموجد ولا خالق ولا إطلاق وإنما هي النسبية «المطلقة» في الكون والوجود. . والمعسكر المثالي العقلي ومدارسه مما يعارض المعسكر المادي ويناصبه العداء.

وإذا كانت مسألة الحركة والسكون قد نالت النصيب الوافر من النظر والتمعن والتحقيق في ميدان الفلسفة فإن لها في علم الاجتماع الخطر الكبير. .

ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماع هاتين الكلمتين في ميدان الاجتماع هو تقسيم العلماء للمجتمعات الإنسانية على متباين ضروبها ومختلف أشكالها إلى نوعين رئيسيين هما: المجتمع الديناميكي المتحرك والمجتمع الاستاتيكي الساكن أو الجامد. .

وبطبيعة الحال تختلف هذه المجتمعات في درجة سكونها وحركتها وتتفاوت طبقات بعضها فوق بعض. فإنك لتجد منها

مجتمعاً ذا حركة لا تفتر ولا تهدأ بل هي سريعة صاخبة تدور عجلتها وتدور في عنف وشدة فتلف في دوامتها المرء، فلا يشعر فيها إلا بالحركة الدائبة والتغير المستمر والنشاط الجامح الذي يكاد يبلغ درجة الجنون.. وإنك لتلقى المجتمع الساكن الراكد كالماء الآسن ترسل رائحته الخدر في الجسم والخمول في النفس ويبعث على الاسترخاء والموت. وبين هذا وذاك أصناف من المجتمعات تقل أو تزيد حسب حظها من الحضارة والرقي.

ولا أظن أننا بحاجة إلى القول إنه كلما زاد حظ المجتمع من الحركة ازداد نصيبه من التقدم والعكس صحيح.

أنظر إلى بلاد أوروبا واحدة إثر الأخرى وانظر بعدها إلى الدول النامية الصاعدة ثم أرجع البصر إلى المجتمعات البدائية المنحطة تجد مصداق ما ذكرنا واضحاً جلياً..

ونحن حين نقول (الحركة) لا نعني بها طبعاً حركة السير والمرور في الشوارع وعبور السيارات وكثرة القطارات والحافلات، بل هي حركة في كل شيء ـ حركة في الاقتصاد، والثقافة، والأدب، والعلم، والفن، والرياضة، وكل فرع من فروع النشاط الإنساني. حركة داخلية تولد الحرارة والرغبة في العمل والإنتاج، وخارجية نلحظها في كل منحى من مناحي الحياة.

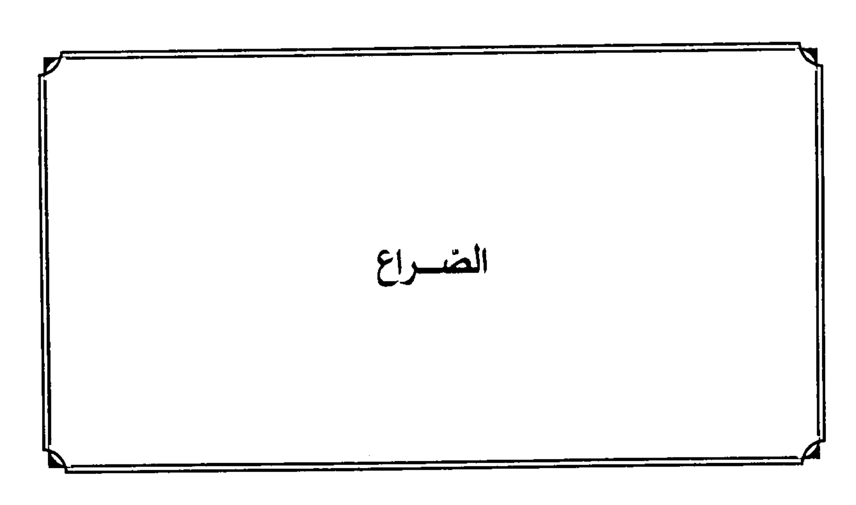
فإذا راجت التجارة وازدهرت.. وانتشرت الكتب والمؤلفات، ورأيت الأدباء يتناقشون ويتصادمون على الصفحات وفي

المنتديات. . بل والطرقات، واستمعت كل يوم إلى محاضرة، وسمعت عن نبأ اختراع، وشاهدت الفرق الرياضية تتبارى في حماس، واستمتعت كل ساعة بأغنية أو قطعة موسيقية أو لوحة رائعة، ولاحظت أن كل شيء في البلد يجري بأقصى سرعته. . فقل عن هذا المجتمع إنه مجتمع ديناميكي متحرك، حي، يعيش يومه ويبني غده ويملأ دنياه بكل مفيد.

وطبيعي أن السكون والركود هو عدو المجتمع وبلواه. وهو مرضه العضال الذي يصيبه حتماً بالشلل الجزئي أو الكلي فلا يصلح بغير استئصال شأفته وقطع دابره.

ولما كانت الفلسفة أم العلوم وكان أرسطو والدها الكبير فإننا لنرجع إليه وإلى رأيه السديد لو أردنا معالجة مثل هذا المجتمع العاثر الحظ. وأرسطو كما أشرنا يؤمن بالمحرك الأول أي بالعلة الأولى. . وهي وإن كانت في ذاتها ثابتة إلا أن فضلها وسموها يكمنان في أنها سبب الحركة والحياة. فلو جردت ـ في نظره ـ من هذا الفضل لما كان لها سمو ولا امتياز. وهو يؤمن أبداً بتحرك الشيء من ذاته وبذاته ويعتقد اعتقاداً جازماً بأن لكل شيء سبباً. . ومحركاً. . وهذا يعني أن لا حركة من سكون ولا حياة من موت. . ولا وجود من عدم، دون دافع وموجد وسبب في الحركة والحياة.

فوجب إذن أن نبحث عمن يحرك الساكن ويبعث النشاط ويجدد الحياة.



الصّــراع

أنت تنظر إلى هذا الكون نظرة يخيل إليك معها أنه كل متكامل ووحدة شاملة. وتنظر إليه مرة أخرى فتراه أجزاء متناثرة، مبعثرة، لا يجمعها إلا خيط رفيع من الوجود أو الحدوث. وتنظر إليه ثالثة فتلقاه تصنف اثنين اثنين فلا تجد شيئاً إلا وله زوج.. أو ضد. ترى الظلمة والنور، والسالب والموجب، والأبيض والأسود، والرطب واليابس، والذكر والأنثى، فتكاد تحسب هذا العالم عالمين، والكون كونين لشدة ازدواج ما فيه وزوجية كل شيء يحمله.

هكذا سنة الحياة، وهذا ناموس الطبيعة: كل شيء وضده.. كل شيء ورفيقه، وهو في الواقع ضده وإن كان لا يستطيع الحياة بدونه.

لماذا هذا التضاد المطلق في الوجود الحادث، وما السر في هذه الزوجية الدائمة؟

لا ريب أن الهدف والحكمة من هذا هو أن يحدث احتكاك أو

صراع بين كل منهما. والنتيجة؟ النتيجة هي هذه الحياة وهذا الضجيج وهذه الحركة التي جعلت من الكون كوناً حقيقياً يؤدي غرضه ويعمل ما وجد من أجله. فالصراع إذن أساس الحياة لأنه أساس الحركة. والصراع كلمة كبيرة ذات خطر احتلت الصدارة في فلسفات القدماء والمحدثين وشغلت أذهان جبابرة الفكر في قديم وحديث. فما معنى الصراع؟

لقد اختلف معنى الكلمة حسب مجرى تيارات الفكر والسياسة لكنها لم تخرج في كثير أو قليل عن معناها الواضح البسيط: المعارضة والوقوف في وجه الشيء ومصارعته بقصد التغلب عليه.

ولقد يعني الصراع الحوار أو الجدل، أي الأخذ والرد في الحديث ويسميه الأفرنج «الديالكتيك» ومن هذا الباب كلمة «الديالوج» أي الحديث بين شخصين.

وعرف الجدل عند سقراط عندما استعمل أسلوبه المعروف في التهكم والتوليد. فكان يستدرج خصمه في الحديث حتى يوقعه في تناقض وينتصر عليه. واستغل السفسطائيون الجدل استغلالاً سيئاً أضر به. ووصلت إلينا محاورات أفلاطون، ومن نسج على منواله، حتى قرأنا الجدل عند هيجل، ثم كان عند ماركس.. وإن اختلفت النظرة واختلف التقدير.

وكما استغلت الفلسفة الصراع في مذاهبها، لم يخل الدين منه، بل كان أهم ركيزة من ركائزه. فما الزرادشتية سوى صراع بين إله

النور وإله الظلام، وفي الإسلام والمسيحية نرى قوى الخير ممثلة في الملائكة والقديسين والأولياء تصارع قوى الشر ممثلة في إبليس وأعوانه. . من الجن والإنس!

وقس على هذا جميع مناحي الحياة. .

والصراع في مختلف المجالات عملية مفيدة جداً. . لأنه يسمح بجلاء الفكرة ووضوحها ويقدم لنا ـ من خلال عملية التصادم بين الأطراف ـ فرصة للمقارنة وتغليب وجهة نظر على أخرى وكشف المعاني وتحديدها بل وتطوير الفكرة الصالحة متى أثبتت صلاحها وفعاليتها.

لكن أكبر أنواع الصراع خطراً، هو ذاك الذي يكون داخل المجتمع لا بين مجموعات فكرية أو أدبية أو فنية فحسب وإنما بين طبقات هذا المجتمع، وهو ما يعبر عنه بالصراع الطبقي. ومتى يحدث هذا؟

يحدث عندما يتشكل المجتمع تشكلاً خاطئاً بأن تنمو في داخله طبقات أو مدرجات اجتماعية تكون الهوة بين إحداها والأخرى كبيرة بحيث لا تسمح بالتقارب والتجاوب الذي يخفف من وطأة هذه الطبقية المؤلمة.

والصراع الطبقي أمر لا مفر منه بحكم رغبة الطبقة الدنيا في الصعود ومحاولة العليا البقاء في مكانها والحيلولة دون اقتراب الأولى منها. . لكن هناك مجتمعات يسعدها الحظ فيكون الصراع

ضمنها سليماً ـ أعني غير دموي ـ وتحدث المعجزة العجيبة باندماج الطبقات كلها في بوتقة واحدة تصنع المجتمع المتكامل السليم.

وبقدر سعة الهوة بين الطبقات تكون قوة الصراع. وما حدث في بلدان كثيرة من عنف ودموية وإرهاب يعطينا صورة عن مدى خطر الصراع الطبقي إذا نما ولم يتلاف أمره في البداية.

ولو نظرنا إلى التاريخ نظرة شاملة لما وجدناه يخرج عن كونه صراعاً طبقياً سواء في داخل المجتمع الواحد مما يدفع إلى التغيرات الاجتماعية، أو خارج هذا المجتمع مما يؤدي إلى خروج الجماعات للفتح والاستعمار.. وبالتالي سيادة طبقة معينة على طبقة أخرى في مكان آخر.

لكن الواعين من البشر لا يسمحون بتكون هذه الطبقات لأنهم يدركون ما سيؤدي إليه من خطر الصراع الاجتماعي، ولذا فهم يحاولون ـ بقدر الإمكان ـ التقريب بين الطبقات بمختلف النظم والأساليب، سواء كان هذا من الناحية الفكرية أو الاقتصادية أو الفنية أو غيرها، لأن الصراع في إحداها لا يقل خطراً عن الآخر.

والتقريب ـ بطبيعة الحال ـ لا يكون بالضرورة تقريباً في العوز والفاقة. لكن من الممكن أن يحدث التقريب بخلق مستوى لائق من العيش للجميع، أعني برفع مستوى المعيشة لكل الأفراد بحيث يبتعد شبح الفقر والتذمر والاستياء... وبالتالي يعيش الجميع في سعادة وإخاء.. ويكون هذا المجتمع أسعد المجتمعات.

الاستعراض

الناس مقامات . .

هذا ما تعلمناه، ورأيناه وعشناه. وهي حقيقة دع عنك أسبابها، وهي واقع فيه من الخطأ الشيء الكثير.

لكن المقامات ليست قاصرة على الناس من بني البشر، فإنا لنأبى إلا أن نلصقها بأشياء كثيرة أخرى. فنجعل للحيوان مقاماته، وللنبات والجماد وكل ما في الطبيعة مقامات نصنفها ونرتبها، يعلو بعضها وينزل الآخر درجات.

ولعل أغرب ما في هذا التصنيف والترتيب والتقييم أن يمتد نطاقه إلى عالم الكلام، ويشمل بعنايته هذه الألفاظ التي نطلقها في أحاديثنا ونعبر بها عما يعتمل في الصدور. فنعطي لكلمة ما احتراماً وتبجيلاً لأنها تعبر عن شيء محترم ومبجل، ونزدري أخرى لتفاهتها وضآلتها أو ابتذالها، أو ما شابه ذلك من أسباب.

لكن هناك بعضاً من كلام قد لا يعبر عن معنى واحد يَحتفي به

ويقف على خدمته، بل يأبى إلا تقليد من يقومون بأعمال متعددة، وفي مجالات متعددة، في نفس الوقت.. ويقبضون مع هذا الثمن من الجميع! وهي مجالات قد تتباعد وتتصادم، لكن يجمعها رباط واحد من مصلحة معينة أو هدف مرسوم.

ولنضرب لهذا مثلاً هذه الكلمة التي عنونا بها «هذا» المقال.

وإني لعلى ثقة من أنك سمعتها مرات ومرات، ولامست أذنك الكريمة في أكثر من مناسبة. فلو كنت من هواة السينما مثلاً فإنك لا ريب شاهدت إعلاناً أو إعلانات كثيرة عن «ملك الأفلام الاستعراضية» وعرفت ـ بالتحليل والمقارنة ـ أنهم يعنون بالملك السيد المطرب فريد الأطرش، وبالاستعراض تلك الحركات المنغمة من مجموعة الفتيات العاريات الراقصات تصاحب المطرب المذكور في غنائه وهو يهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال.

وقد تكون شاهدت شريطاً من هذا النوع فتغنيني عن الشرح والتفصيل مع وجوب التقدم إليك بالتعزية المناسبة في مصابك الأليم!.

وهذا واحد من استعمالات كلمتنا المرنة.

فإذا ما قدر لك يوماً وحضرت احتفالاً بأحد الأعياد الرسمية التي يسير فيها جنود الجيش والشرطة والكشافة وتلاميذ المدارس أمام المحتفلين طوابير طوابير، ويتصبب فيها العرق من الجميع

بسبب من التعب أو الحر أو الحماس والصراخ الزائد عن الحد، فهذا استعمال ثان.

لكن هناك استعمالاً ثالثاً للكلمة الشيطانية وهي ما قد تشاهده أحياناً في السروال «المقشوط» والخصلة المدلاة على الجبين، واللبان الأمريكاني المطرقع في الناحية اليسرى من الفم. أو تراه ممثلاً في إحدى عابرات جادة الاستقلال. أو يسعدك الحظ فتجده عند أحد إخواننا المغرمين بالحديث في أعقد الأمور وإبداء الرأي الحصيف في كل مشكلة، وذكر أشهر أسماء الكتب والكتاب والمذاهب الفكرية والعلمية والسياسية والأدبية والاجتماعية، للتدليل على الفهم وسعة الاطلاع، وهذا ما أخشى أن تطبقه عليَّ نتيجة للفكرة التي ربما تدور في رأسك عني الآن!!

كل هذا نستطيع أن نسميه (استعراض الذات)، أو (استعراض الخصائص الجمالية)، أو قد نسميه (استعراض العضلات) في الحالة الأخيرة.

أما أعجب استعمال لهذه الكلمة المطاطة فهو ما كان يفعله «الخوارج».

وأنت تعرف الخوارج، وتعرف أنهم إحدى الفرق الإسلامية العديدة التي نشأت إبان الصراع السياسي على الحكم، واستطاعت أن تلم حولها عديداً من الأنصار والمؤيدين، وتصبح قوة سياسية وعسكرية لها خطرها العظيم.

وطبيعي أن الخوارج لم يكونوا يعرفون استعراض فريد الأطرش ولا ما تبعه من استعراضات.

وطبيعي أيضاً أن يكون استعمال الكلمة مختلفاً عنه الآن، بقدر ما بيننا وبين الخوارج من قرون سحيقة ممعنة في القدم..

وطبيعي ثالثاً أن تسألني: ماذا كانت تعني الكلمة إذن..؟

وقبل أن أجيبك اسمح لي أن أذكر لك في إيجاز أن الخوارج كانوا فرقة دينية سياسية تتبع في دينها مذهب التزمت، لكنها في سياستها تسير على خطة من الديمقراطية العالية. ففي قضية الخلافة مثلاً ـ وهي أهم ما دار حوله الصراع ـ كانوا يقولون إن من حق أي مسلم ـ ولو كان حبشياً أسود ـ أن يلي شؤون المسلمين. وكان هذا بالطبع يلقي معارضة صلبة من قبل الذين يريدون حصر الخلافة في قريش وحدها. وكان من الممكن أن تنجح دعوة الخوارج وتؤتى أكلها، وتطبق الديمقراطية الإسلامية الحقة، وتسير الأمور سيراً طيباً، لولا نقاط ضعف كانت فيهم فوتت عليهم الكثير من الفرص وضيعت العديد من الأنصار.

ولعل أشد النقاط ضعفاً وأبعثها على الاستنكار ما كانوا يسمونه «الاستعراض». ولو كان الاستعراض هذا شيئاً بسيطاً، من قبل ما ذكرناه، لهان الأمر. لكنه كان يعني شيئاً رهيباً فظيعاً، ويعطي صورة عما ندعوه اليوم: الاغتيال السياسي. لقد كان اغتيال من يخالفهم الرأي حلالاً، بل مندوباً يدعون إليه ويعتبرونه جهاداً في سبيل الله،

حتى ولو كانت الضحية مسلماً صالحاً شريفاً.. ومن هنا كان قتلهم عليّاً، ومحاولتهم اغتيال معاوية وعمرو بن العاص.

لكن العنف لا يأتي أبداً بثمرته، وهو إن فعل فهي فجة أو فاسدة.

ومحاربة الذين يخالفوننا النظر في حياتهم أو عيشهم لا ينتج إلا حقداً مريراً وبغضاً أعمى وكراهية حمقاء، ولا يوقظ سوى غرائز الشر في النفوس.

ولقد انهار الخوارج.. انهاروا تماماً، وتحطموا على صخرة نظرتهم السوداء الكالحة لمخالفيهم، واعتبارهم إياهم كفرة زنادقة ملحدين وانتهوا.. بعد أن كنسهم التاريخ.

عن الديمقراطية والاستعمار

سأل الحمار مرة صاحبه الجمل فقال: إني لأعجب لأمرك وأمري! تسير أنت ـ على بعد رأسك من الأرض ـ ثابت الخطو، مرفوع الهامة، متزن السير. وأمشي أنا وبصري لا يفارق موطىء قدمي.. ومع هذا أجدني أتعثر في الطريق، وأتنكب السبيل، وأنكفىء على وجهي بين كل خطوة وأخرى!

ابتسم الجمل وقال: هذا هو الفرق بيني وبينك أيها الصديق. أنا أنظر إلى بعيد.. وأقدر لرجلي قبل الخطو موضعها، وأعرف أين سيكون الموطىء، وأعرف أسباب العثار. أما أنت فتكتفي بما بين قدميك. فلا تكاد تخلص من حجر حتى تصطدم بسواه!!

ذكرت هذا الحوار وأنا أجيل في ذهني حديثاً عن الديمقراطية عامة، وعنها في البلاد المتخلفة بصفة خاصة. أو هي البلاد النامية.. أو المسبوقة كما يحلو للبعض أنْ يسميها. أما عن الديمقراطية العامة فهذا حديث يطول شرحه، إذ واكبت هذه الكلمة

ركب الإنسانية المتحضرة منذ أن صاح أبناء أثينا بحكم (الديموس) أو الشعب، واتخذت أسماء وصيغاً وأنماطاً مختلفة متعددة. ولا زالت تواكب هذا الركب حتى يومنا الذي نعيشه. لكن أوجز تعريف يمكن أن نقدمه، ما هتف به فرانكلين إذ قال: إنها حكم الشعب، بواسطة الشعب، لمصلحة الشعب.

نغمة خطيرة يرددها الكثيرون في غفلة منهم، وفحواها أن الأمم درجات في التقدم والرقي.. فهي بالتالي طبقات في الوعي والفهم وهذا يؤدي إلى أن الديمقراطية يجب أن تقتصر على الدول الأكثر تقدماً وتمنع عما سواها من شعوب ويقيمون على هذه النتائج ويقدّمون الأدلة والبراهين على فشل الديمقراطية في كثير من البلاد الآسيوية والإفريقية وهم يحاجّون: خذوا مثلاً دولة كذا، وماذا كان مصيرها حين طبقت فيها الديمقراطية.. وأمة كذا وما يعيث فيها من فساد نتيجة الأخذ بهذه الديمقراطية.. ويروحون يعددون حوادث (الشغب) بلا حساب.

الاستعمار وراء كل فساد:

إن السامع ليؤخذ بأحاديث هؤلاء الناقمين الساخطين، ويوشك أن يكفر بما يسمى (الديمقراطية) ويلعن أجداد الذي أوجدها ونادى بها. وتصل سورة الغضب ببعضهم أن ينادي علانية بالحكم المطلق، وبالمستبد العادل، وبشتى صنوف الحكم في مصير الشعب.. الجاهل المتخلف..

لكن لو اتخذ هؤلاء من حكمة الجمل عبرة وموعظة. . لما تمادوا كل هذا التمادي. . ولو نظروا إلى ما وضع الاستعمار في طريق الشعوب النامية من أحجار ومطبات، وفخاخ، لما كانت هذه دعوتهم.

فالاستعمار ـ هذا الشيطان المريد ـ ما كان ليترك (ضحاياه) تنجو منه وتفلت من فخ، إلا وينصب لها فخاً جديداً، ولا يخرج من بلد إلا ويترك من خلفه ما يلهى به هذا البلد. . يبحث عن مواطن الخلاف فيعمقها، ويضع فتيل (الديناميت) ليشعله في الزمن المراد. . بالدقيقة والثانية. ويشغل كل بلد بمشاكل لا أول لها ولا آخر، وينصب في طريقه العراقيل ما استطاع.

فعل هذا في بلادنا العربية، وفي الكونغو، وفي قبرص، وجنوب شرقي آسيا وأمريكا اللاتينية. . وكل شبر وصلته قدمه النجسة.

فإذا ما تغلب أي بلد على مشاكل الحدود، والتفرقة العنصرية، والتخلف الاقتصادي مثلاً. . وأراد السير في طريق التحضر والتمدين، وتجربة الحياة الديمقراطية، وحكم الشعب لنفسه، تكشفت فخاخ جديدة كانت مخبأة عن الأعين.

تعددت الأسباب:

يزور الانتخابات البرلمانية مثلاً إن استطاع التدخل والتزوير، ويدخل عامل الرشوة وشراء الضمائر وبيع الأصوات بالأصفر

الرنان. . يفعل كل هذا من خلف ستار، ليفقد الناس ثقتهم في النظام الديمقراطي وثقتهم في ممثليهم، وفي أنفسهم أيضاً.

ويعمد إلى عقد الصفقات، وتزييف إرادة الشعب. . ثم هو يجعل من ممثلي الشعب دمى تتحرك ـ إن استطاع عن طريق الوعد والوعيد ـ ويقطع الصلة بين الأمة وحاكميها.

فإن كان لا يزال مدافع عن ضمير، وكرامة وشرف، ركز الاستعمار كل قواه لمحاربته وعزله وتجميده. حتى لا يكون له أثر ولا تأثير.

كل هذه السبل ـ وغيرها كثير ـ يتخذها الاستعمار السافر والمقنع وسيلة لتشكيك الشعب في مقومات الديمقراطية وأسسها وعدم ملاءمتها له.

أحياناً..

الاستعمار إذن لا يقدم للبلد المنكوب به ديمقراطيته صحيحة، وإنما يعطيه قشور الديمقراطية، ومظاهرها، أما اللب. . أما حكم الشعب من أجل الشعب. . فهذا دونه خرط القتاد. ذلك لأنه يعلم أن الديمقراطية السليمة طريق رائع وسليم إلى خير الشعب. ولذا كان يعمل قدر المستطاع على حرمان الأمة منها.

أحياناً يظهر البلد بالمظهر الديمقراطي لكنها ديمقراطيته الخاصة. . ديمقراطية النهب والسلب. . ديمقراطية المظاهر البراقة دون المساس بالجوهر ذاته. . وهذا هو شر الديمقراطيات. . وشر

أنواع الحكم. فالاستبداد الظاهر يمكن مكافحته والقضاء عليه.. أما المتستر، المغلف، فهذا هو السم بعينه في الدسم.

وأحياناً..

الاستعمار إذن يعطي الديمقراطية السقيمة العرجاء المشوهة.

لكن هناك عوامل تثلج فؤاد الاستعمار، وتبهج نفسه. منها جهل الشعب وأميته. جهله بما يدبر له، وعدم معرفته حقوقه المغتصبة.. ومنها قيام صراع حاد بين ضعاف النفوس من أهل البلد، مما يضيع عليهم وحدة الصف ضد الاستعمار وألاعيبه.. ومنها تهاون العارفين المدركين في المطالبة والبذل والتضحية.. وقيادة الصفوف وتوعية الجماهير. كل هذه العوامل، وسواها، تكون عاملاً مساعداً له خطره الكبير وتأثيره على سير النظام الديمقراطي وفاعليته. بل وفي أن يكفر شطر كبير من الناس بهذا النظام وينفروا منه.

الديمقراطية ضروب:

ولعل الشيء المهم الذي وجب أن يدرك، هو أن الديمقراطية أنواع وضروب. لكن أساسها واحد هو كما بيناه: حكم الشعب للشعب لمصلحة الشعب.

من الدول من يتخذ نظام الأحزاب الكثيرة، لكل وجهته ومنهاجه، تصطرع فيما بينها، والنجاح للأفضل. ومنها ما يكون فيه حزبان يتنافسان لإرضاء الشعب وخدمته، ومنها ما يتخذ من الحزب

الواحد وسيلة للديمقراطية، يصهر فيها جميع قوى الشعب العاملة، لخدمته في نطاق النقد الذاتي والحرية الجماعية. ولكن منها من لا يسمح بقيام الأحزاب مطلقاً ويدع للشعب ذاته حرية الاختيار الفردي لممثليه عن أساس شخصي محض.

لكن كل هذه التجارب لا تخلو من أخطاء.. قد تنحرف الديمقراطية وتخطىء.. نتيجة الظروف والعوامل والبيئة، وحالة الوعي السياسي والاجتماعي في البلد.

ونوع الديمقراطية الذي يطبق في السويد أو بريطانيا مثلاً، قد لا يتفق مع ظروف بلد كليبيا.. وهكذا.

والعلاج ضروب..

فإذا ما انحرف خط سير الديمقراطية يوماً، فكر القائمون الساهرون في العلاج. وتقدم النصائح وتكتب الوصفات. لكن الوصفة الناجحة المذكورة في كل الحالات هي أن علاج الديمقراطية هو مزيد من الديمقراطية! هذا هو الدواء الأول في قائمة العلاج.. وتأتي من بعد هذا وصفات.

في البلاد النامية ـ أو المتخلفة فكما تشاء سمها ـ يكون الدور الأول من نصيب الطليعة الواعية المتعلمة. واجب القيادات المثقفة..

بحكم الظروف، وحكم الزمان، وحكم البيئة.

واجبها توعية الشعب توعية متواصلة متوالية، بحقوقه، وواجباته.

تبصيره بمعنى الديمقراطية. وجوهرها ومعنى النظام النيابي وقيمة صوته في الانتخاب.

واجبها كشف تلاعب انتهازية المتسلقين والسماسرة.. والمخادعين والفاسدين المتظاهرين بالصلاح.

واجب الكُتّاب حمل أمانة رعاية مصلحة الشعب وتبصيره وإرشاده إلى هذه المصلحة. واجب كل متعلم أن يعرف واجبه في بناء الديمقراطية الحديثة في أوروبا وغيرها وانظروا من بعد هذا في تاريخ أوروبا. هذه التي نعجب بها وتتمنى أن نحذو حذوها.

وقولوا بعدها: على أكتاف من قامت، سوى طليعة الأمة وشبابها المثقف، وكتابها، ومفكريها..

ثم يأتي دور الشعب كله من بعد..

لِمَ لا يضحك الفلاسفة؟

قد يبدو السؤال نفسه حافزاً على الضحك، لسبب واحد بسيط، هو أنه يصعب تخيل شيخ هرم، تغطي لحيته صدره وثلاثة أرباع وجهه، قد فتح فمه الأهتم مسترسلاً في قهقهة عالية يتردد صداها في جنبات المكان.

فصورة الفيلسوف في أذهاننا تمسح تماماً دواعي المرح، وترسخ معاني الوقار والرهبة والخشوع. بل والغم أحياناً. صورة الفيلسوف ذات التجاعيد الزمنية الحزينة، وتغضنات الحكمة الوقورة، وأشباح آلاف الأفكار على الجبين المنعقد والعينين البائستين، والنظرة الأسيانة الذاهلة في عالم الرؤى والأفكار، صورة لا تدعو إلى الابتسام بحال من الأحوال.. على الأقل أمام الفيلسوف ذاته!

لم لا يضحك الفلاسفة؟.

لقد حار الفلاسفة أنفسهم في الإجابة عن هذا السؤال رغم أنهم يعرفون أهمية الضحك وضرورته، ورغم أنهم درسوه وحاولوا تفسيره أكثر من مرة.

الإنسان حيوان ناطق. . قضية منطقية صحيحة.

الإنسان حيوان ضاحك. . قضية منطقية أكثر صحة.

الفيلسوف إنسان، فهو حيوان ضاحك. . أليس كذلك؟.

الواقع أن السؤال كان ينبغي أن يكون كما وضعه «والتر كوفمان» في كتابه «نقد للدين والفلسفة» هكذا: لماذا لا يستطيع معظم الفلاسفة أن يضحك؟

ذلك لأنه إلى جانب الفلاسفة العابسين وجد فلاسفة بدا أنهم ضحكوا وأرسلوا الملحة واستطابوا النكتة وابتسموا للمفارقة الطريفة. من الفلاسفة العابسين المكشرين كان «أرسطو» و«الغزالي» و«ديكارت» و«سبينوزا» و«هوبز» و«شوبنهاور» و«كانت». ومن الفريق الذي حاول أن يضحك للحياة، ومنها، نجد «سقراط» و«ارستبوس» وربما أضفنا «غوتة» و«شكسبير» و«دستويفسكي».

لكن ضحكات الفلاسفة ـ للأسف ـ لم تكن صافية طليقة ولم تكن القهقهات تهز أعماقهم، ولذا كانت ضحكاتهم في أغلب الأحيان مغلَّفة بأحاجي المنطق، وتعقيدات الحكمة، وغايات التعليم، وأهداف الهداية والإرشاد.

والضحك لا يحتمل شيئاً من هذا أبداً. الضحك انطلاق الروح والخلاص من سمة التكلف وفك قيد النفس لتنال حُرِّيتها بكامل راحتها.

والضحك فعل طبيعي، يهز القلب والروح الجسد، وينفضها

نفضاً ليزيل عنها صدأ الغم والنكد والهم.. ولهذا فهو ليس ترديداً لصدى الحكمة ورجعاً لصوت المعرفة، وإلا كان نكبة وفشلاً ذريعاً.

وعندما ضحك المفكرون ـ وهم يفكرون ـ كانوا أدعى إلى البكاء والإشفاق.

شكسبير ضحك في «الملك لير» وفي «ماكبث» لكن مع الجن والشياطين والأرواح وعالم الضباب الغريب. وضحك «غوتة» في «فاوست» بفم «مفيستو فوليس» لكنه كان قهقهة ترددها أودية الجحيم الفاغرة الأفواه، تندلع منها ألسنة اللهب الأبدي ويتعذب فيها الإنسان الضاحك بخطاياه الأزلية.

ومن هنا نجد أن الضحك لا يحتمل التفكير ولا يطيق الفلسفة.. وهل كان لنيتشة أن يقهقه في «هكذا تكلم زرادشت» أو الفارابي في «فصوص الحكم»؟!

الفلسفة تضاد الضحك ـ هكذا يرى «والتر كوفمان» ـ لماذا؟

هل خاف الفلاسفة مصير سقراط حين تضاحك فسقي شراب الشوكران جزاء له؟

أم ترى أرسطو أرهبهم بمنطقه الصارم القائم على قضايا محددة بمقدمات ونتائج؟

أم كان لتحريم الكنيسة الضحك أثر في مفكري الغرب، فكمموا أفواههم وأخفوا ابتساماتهم تحت ستار من الصرامة والتجهم كما فعل «نيتشة» و«هيجل»؟

أعتقد أن الأمر بعيد عن هذا كله، قريب من جوهر الفلسفة ذاتها.. أعني الحكمة.. وليس من الحكمة في شيء تناول قضايا الإنسان ووجوده والبحث عن الماهيات دون الغوص في أعماق هذه القضايا، والتعمق في بحثها للوصول إلى حقائقها. وأحسب أن هذا لا يدعو حتى إلى مجرد الابتسام.

هل يدعو النظر في الموت والفناء أو في النشور والحساب والصراط والميزان وجهنم وأفاعيها ولهيبها إلى الضحك والقهقهات؟

وهل يدفع إلى المرح مناقشة أعوص مسائل المنطق والفكر المجرد الممعن في التجريد، والحديث عن الميتافيزيقا والمثل المفارقة والجوهر الفرد؟

بل إن الإنسان كتلة معقدة رغم ما يبدو من بساطتها. وهو مجموعة متناقضات لا أول لها ولا آخر.. وقد خصص الله فريقاً من بني البشر مهمتهم سبر الأغوار، وبحث الأعماق، وكشف الغامض المكنون.. هؤلاء الذين نسميهم الفلاسفة.

وعندما يلبس المرء بذلة غوص الحكمة، ويضع على وجهه كمامة المنطق، ويرتدف بأنبوبة أوكسجين العلم، وينتعل أحذية المعرفة، ويهبط عبر الأمواج المتلاطمة في الكون ونفس الإنسان، فإنه لن يكون في قدرته القهقهة على الإطلاق.

فإذا طاب للفيلسوف بعدها أن يضحك ـ ربما غيظاً وكمداً مما يرى ويعرف من حقائق الوجود ـ فإنه سرعان ما يشرق.. ويموت.

أما إذا أراد أن يحتفظ بوقاره الفلسفي ومظهره المهيب فإن عليه

أن يقلب كل شيء إلى رهبة وخشوع. . حتى إذا رام أن يدرس الضحك ذاته فعل ذلك بكل وقار وبكل هدوء. . تماماً كما فعل «برجسون» و«عباس العقاد» و«زكريا إبراهيم».

وقد نضحك نحن مما يكتب الفلاسفة، وقد يضحك الفلاسفة كل من الآخر، إن لم يكن من أنفسهم. فإذا ما قضى فيلسوف عابس انطلقت الألسنة «تشنع» عليه، كما يروى أن ابن سينا جاءه الملكان - منكر ونكير - وهو في قبره فسألاه: ما ربك؟

قال - ربي أسطقس الأسطقسات «يعني جوهر الجواهر وهو الله بلغة الفلسفة».

فلم يفهم الملكان شيئاً وأعادا السؤال فرد بنفس الجواب. فصعدا إلى الرب يشكوان من عدم فهم مقالة ابن سينا. . فقال لهما:

اتركاه وشأنه، فإنه ظل خمسين عاماً يقول هذا الكلام ولا أدري ما يعني به!!!

لم لا يضحك الليبيّون؟!

حدثني أستاذي الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة قال:

جمعتني الظروف ذات مؤتمر من تلك التي يعقدها المهتمون بشؤون الشرق والعرب والإسلام بين الحين والآخر في عواصم أوروبا، بالبروفسور إيفانز برتشارد العالم الإنساني المعروف، في إحدى مدن سويسرا. فكان أول سؤال وجهه لي عندما عرف أنني أحاضر في الجامعة الليبية هو:

ألم يتعلم الشعب الليبي الضحك بعد؟.

وحاولت أن أجيب، لكنه أردف مسرعاً: أوه: لشد ما آلم له! لقد كانت الكآبة تكسو وجهه دائماً.. الناس هناك متجهمون باستمرار.. لكن الآن، بعد أن تفجر لديهم الذهب الأسود، لا شك أنهم عرفوا معنى الضحك والابتسام.. أنا أعرف الشعب الليبي جيداً.. درسته بتمعن واهتمام. إنه شعب طيب لكنه غير مرح على الإطلاق. كيف حاله الآن؟..

* * *

ولقد أثارت هذه الحادثة عدة خواطر في ذهني، وجعلتني أنظر في مدى صحة حكم المستر إيفانز هذا وسألت: هل نحن متجهمون حقاً؟ لماذا ـ إذن ـ لا نعرف معنى للنكتة والفكاهة؟ لماذا ينقصنا الكثير من فنون الضحك؟ كالكاريكاتير، وكتابات الملهاة، وعمليات التهريج المرحة؟ هل نحن بطبيعتنا فعلاً شعب عابس؟ وما مدى سيرطة الظروف التاريخية والاقتصادية والاجتماعية، بل والجغرافية في هذا الطبع والتطبيع؟

* * *

وجهتا نظر تتنازع عالم الضحك والضاحكين، فمن قائل إنه طبيعة موروثة وصفة متناقلة عن طريق الجينات، وآخر يعزوه إلى الظروف المحيطة أي البيئة، ويورد كل أدلته ويبدي حججه وبراهينه.

لكنني شخصياً أغلب البيئة وأعطيها الأولوية في هذا الموضوع.. لأننا، حتى مع تسليمنا بتأثير الوراثة، واجدون بلا ريب أثر البيئة واضحاً ولو في عملية خلق الصفات بادىء ذي بدء. فبيئتنا ـ من قديم ـ تميزت بخواص وظروف لم تجتمع في بلد واحد إلا نادراً.

فهي ـ من الناحية التاريخية ـ كانت معبراً للجيوش والجحافل ابتداء من عهد الفينيقيين والرومان والوندال حتى الفتح الإسلامي وما تبعه من ترك وإيطاليين وألمان وإنجليز وأمريكان. ولا نكاد نرى في بلادنا إلا صراعاً بين معسكرين، أو بيننا وبين الغازين الظالمين، وهذا لم يعمل فقط على تأخر البلاد حضارياً بل جعل المواطنين

يعيشون دائماً في حالة تحفز واستعداد لصد العدوان، وشعور بالخطر المستمر، امتنع معه ـ بطبيعة الحال ـ إمكانية خلق دنيا المرح والطرب والضحك.

أما من الوجهة الاقتصادية فإن ليبيا ما استقرت اقتصادياً إلا في فترات قليلة نادرة هيئت لها فيها ظروف طارئة لم تدم بحال، وكانت المجاعة طابعاً مميزاً للبلد، تأتي دورياً في أغلب الأحايين، ولست أدري كيف يطرب القلب وتنفرج الشفاه والبطن خاو يصرخ يطلب الخبز ولو من شعير.

بل إن العامل الجغرافي والمناخي لعب دوره أيضاً في «تجهيم» الوجوه، فالمناخ الصحراوي الجاف ورياح القبلي السموم، وأتربة الصيف وغبار الخريف وأعاصير الشتاء العكسية العنيفة، مع ندرة المطر وعرى الأرض وانتشار كثبان الرمال، والجفاف الذي لحق بالبلد كل بضع سنين، كانت تمثل لوحة كئيبة كالحة تبعث في النفس الأسى العميق.

ثم هناك توزيع السكان القليلي العدد المبعثرين هنا وهناك في نجوع أو قرى صغيرة، لم يكن هو الآخر ليساعد على التجمع الحضاري الكبير، فانعدم بالتالي عنصر الاجتماع الضخم والاحتكاك المباشر، وانعدم أيضاً عنصر الاطمئنان النفسي نتيجة للحزازات والعصبيات والقبلية البغيضة، مما كون سوراً فاصلاً بين الأفراد والجماعات لم يجرؤوا على تحطيمه إلا منذ سنين قليلة نسبياً.

كل هذه العوامل وسواها جعلت من الإنسان الليبي إنساناً منعزلاً متقوقعاً داخل ذاته، بالإضافة إلى ما تولد عنها من تقاليد تجعل من الابتسام عيباً كبيراً، وتسم الضاحكين بالفساد والانحراف، وتحيط الحشمة والوقار ـ حتى بالنسبة للصغار ـ بإطار من الإعجاب والإطراء مما جعل من التربية القديمة عملية قتل للروح والتبسط، ووسيلة تطبيع قاسية رهيبة.

لكننا رغم هذا لم نفقد بعضاً من خصائص الضحك، ولم ننس معنى الابتسام رغم عهود ظلم الولاة والحكام وسيطرة الأجنبي الغشوم، وكأنما كان الأمر مصداقاً للقول المأثور: ما فات حده انقلب إلى ضده.

وإننا لواجدون في القصص الشعبي المتواتر حكايات ضاحكة كثيرة كأنما كان الشعب ينفس بها عن سخطه المكبوت، وألمه الممض، ونلقى في «خرّاف» العجائز وملح الشيوخ صوراً تمتزج فيها البسمة بالحكمة.

ولما كان الأدب مرآة المجتمع، فإن ثروة عظيمة من عالم الفكاهة مكنوزة في ما يسمى بأدب «الإخوانيات» وهي الرسائل المتبادلة ـ شعراً ونثراً ـ بين الإخوان الظرفاء والندمان الأصدقاء.

ولقد عرف شعبنا معنى للضحك الساذج عن طريق (خيال الظل) أو «القراقوز» ولا يزال الأطفال في بنغازي يسحرون بألاعيب القراقوز اللطيفة.. بل والكبار أيضاً.. وعندما يهل شهر رمضان تبدأ

الاستعدادات تجري له من طرف العارضين والمتفرجين. لكن الخيالة ـ للأسف ـ توشك أن تقضي على هذا الفن الطريف الباسم.

* * *

كل هذا عرفه الشعب في ليبيا وعرف معه الضحك، لكنه ـ في الحق ـ لم يكن ضحكاً من الأعماق، صادراً من القلب، ولم يكن يستمر إلا قليلاً لتعود الجهامة والعبوس من جديد.

وهكذا استمرت الأجيال. . أب نشيء على العبوس، فربى ابنه عبوساً قمطريراً، وأم لم تر الشفاه باسمه فكانت ابنتها أشد منها تجهماً. واتحدت جميع العوامل والظروف لتخلق منا شعباً بائساً حزيناً.

لكن الأيام تمر ـ بخيرها وشرها ـ وتفجرت الخيرات من أرضنا، وهي إن لم تعم بعد، إلا أن رذاذاً أصاب معظم الناس. ومع تيسر الحالة الاقتصادية وتوفر الأمن والطمأنينة بالنسبة للحاضر والمستقبل، واتصالنا بالعالم الخارجي عن طريق الصحف والمجلات والكتب والخيالة والإذاعة والتلفزة، انفتح الشعب وأخرج رأسه من قوقعته الصلبة، وعرف ألواناً من المرح عند مختلف الشعوب.

وهكذا بدأ الجيل الجديد يبحث عن النكتة الرائقة، والقفشة الحلوة بل ويستعمل «القافية» المصرية في جلساته الممراحة. . وصار المرء يستطيع الآن أن يسمع النكتة حتى وهو في الشارع. وساهمت

الإذاعة بتمثيلياتها الضاحكة ـ ولو على مستوى أقل مما يجب ـ في إرسال الضحكات الصاخبة حتى داخل أغوار أشد البيوت محافظة وجموداً، وعرف مسرحنا الملهاة، وظهر ممثلون اشتهروا بلونهم الضاحك البسام. ولا يزال المستقبل يحمل في طياته الكثير في عالم الفكاهة والمرح.

* * *

نسيت أن أذكر لكم أن إيفانز برتشارد هذا كان متصرفاً لمدينة بنغازى إبان عهد الإدارة البريطانية، ويذكر أنه كان متضايقاً من كل شيء.. حتى من ذباب بنغازي.. فقد كتب يقول عنه:

«إن ذباب بنغازي لهو أشد ذباب العالم توحشاً، وأكثره شراسة وقحة. ولا يمكنك طرده بحال، لأنه لا يفتأ يعود أعنف لذعاً، وأشد لسعاً، وأجرأ في الهجوم والقتال».

إنني لآمل أن يزورنا مستر إيفانز يوماً، لنستقبله بالبسمة الصافية، والوجه المنطلق.. وبلا ذباب!

معنى الأصَالة في الثقافة الليبيّة

كثر الحديث وانثالت التساؤلات هذه الأيام عن أصالة الثقافة الليبية ـ وشمر بعض الباحثين عن ساعد الجد ينقبون عن الآثار الفكرية في تاريخ ليبيا القديم والحديث ليبرهنوا على وجود هذه الأصالة وصحتها.

ونحن قبل الاسترسال في جدال لا طائل من ورائه نحب أولاً أن نحدد معنى هاتين الكلمتين: «الأصالة» و«الثقافة الليبية» حتى نسير في طريقنا على بينة وهدى.

فإذا كان المقصود بالأصالة ضرب جذور الفكر إلى عمق كبير في التاريخ والتحقق من «أصل» بعيد الغور، قديم الزمان، والتدليل على أن لنا ثقافة وحضارة واكبت التاريخ منذ أن عرفت الثقافة والحضارة وسايرته على مر الأيام وكر السنين. أو كان المراد أنها ثقافة «أصلية» بمعنى محلية غير مستوردة.. فإننا سننظر إلى الأمر نظرتين مختلفتين.

أما الأولى فنعم. ساهمت بلادنا منذ قديم في صنع الحضارة والتاريخ، وكانت سباقة بحكم توسط مركزها للعالم القديم إلى المشاركة الفعالة في الجهود البشرية الأولى لمحاولة التقدم والتطور.. ابتداءً من عهد الغابات والعصر الحجري، مروراً بأيام الأغريق والفينيقيين والرومان، فالعصر العربي الإسلامي.

وهذه هي آثارهم تدل عليهم وتدل على رسوخ قدم الليبيين القدماء في عالم الحضارة المادية والثقافة الدينية والفكرية. والحفريات تثبت لنا كل يوم هذه الأصالة التي نبحث عنها ونطلب. نقوش وتماثيل ومومياءات وأوان بل وعبادات وطقوس وشعائر واعتقادات ميتافيزيقية مختلفة تأثرت بغيرها وأثرت في سواها.

كما أنه ليس خافياً على أحد تلك الثقافات والفلسفات الرائعة التي ظهرت في قورينا (شحات حالياً) وكان ـ ولا يزال ـ لها وزنها الكبير. ويكفي أن نذكر أسماء فيلسوف مثل أرستبوس صاحب مذهب اللذة، والرياضي تيودورس البارع، وأول فيلسوفة في العالم ـ أريطي ـ ابنة أرستبوس. ويكفي أن نقول إن أرسطو نفسه تأثر بقورينا وأن أفلاطون أخذ عن أساتذتها. بل إن منشىء الأكاديمية بماله الخاص أحد أبناء ليبيا ومنقذ أفلاطون من عبوديته وأساره.

وكذلك يمكننا ـ بقليل من التحري ـ تأكيد مميزات رائعة للثقافة الليبية في آثار لبدة وصبراتة وجرمه ودراسة ما كتب الأقدمون عن بلادنا من أمثال هيرودوت وسواه.

وعندما جاء الفتح العربي كانت ليبيا معبراً للثقافات المختلفة من الشرق والغرب فتأثرت بالإسلام أكبر التأثر وأعمقه، ونبغ على مر السنين فيها شعراء وعلماء أجلة هم في المصادر والمراجع وكتب التراجم مذكورون.

أما النظرة الثانية فهي للتأكد من مدى أصلية (أو محلية) ثقافتنا الليبية. ونسارع إلى القول بأنه لا محل لشيء اسمه (المحلية الخالصة) أو ما يؤدي إلى هذا المعنى في الثقافة. لأن هذه الثقافة ليست شيئاً سوى الأخذ والعطاء والمد والجزر والمبادلة، والفكر لا يمكن «قوقعته» وإلا اختنق ومات. لكن يمكن القول بأنها ثقافة إنسانية عامة معبرة في طابع إنساني عن بعض خصائص البيئة المحلية.

فالأصالة إذن موجودة ويمكن توضيحها أكثر بشيء من العناء والتنقيب، وهي وإن كان قد تعرضت للدفن تحت رمال صحرائنا إلا أنها حقيقة لا تنكر، وقد حدث هذا لتاريخ الفراعنة مثلاً. . إذ استمر هذا التاريخ مجهولاً عشرات من القرون تحوطه الخرافات والغموض حتى قدر الله له أن يظهر على يد (شامبليون) حين فسر رموز حجر رشيد. كذلك حدث نفس الشيء لثقافات عديدة أخرى.

فنحن إذن في حل من هذه الناحية أن نطمئن إلى ظهيرنا وأرضيتنا أو ما يغرم البعض بأن يسميه «الباك غراوند» الثقافي لتاريخ شعبنا. . بشرط ألا نعزل هذه الثقافة عن جيراننا المحيطين بنا في مختلف عصور التاريخ لأننا ـ ويجب أن نفهم هذا ـ لا نجد ما

نبحث عنه إلا عندهم بحكم اتصال آبائنا بهم والاحتكاك بثقافاتهم وحضاراتهم، فينبغي أن نطلب بغيتنا في مصر وتونس والجزائر ونيجيريا بل وغانة والسودان وما يحيط بها من بلاد.

لهذا بحث طويل آخر ليس هذا محله وموضعه.

ننتقل الآن إلى تبيان معنى «الثقافة الليبية». وأنا إذ أطلق هذا التعبير لا أقصد به «حصر» الثقافة وتحديدها، فإن هذا كما بينت غير ممكن ولا مستساغ. ذلك لأن للثقافة معنى إنسانياً شاملاً ثم هي تضيق شيئاً فشيئاً فتصبح شرقية مثلاً فإسلامية، فعربية فليبية.. بمعنى مساهمة أهل ليبيا في الميدان الثقافي البشري ودفعهم بعجلة الفكر الإنساني.

ومن توضيحنا لمعنى الأصالة يهمنا معنى الثقافة والثقافة الليبية على وجه التخصيص وأدراكنا ارتباطهما بعد تحققهما في الوجود.. فهل يشعر الليبي بهذا؟!

هذا السؤال الذي ينبغي أن نجيب عنه بصراحة ووضوح نصل من بعده إلى حل..

وبصراحة، فإن المثقف الليبي لا يرتبط بأرضه، ولا يحس بانتمائه ـ فكرياً ـ إلى تربته. هو يهوم بعيداً ـ خارج الحدود ـ بحثاً عن مثل أخرى يحاول في سذاجة تطبيقها على مجتمعه ـ ليوهم نفسه بالارتباط بينه وبين هذا المجتمع. من هنا نشأت أزمة المثقف الليبي، من هنا نرى هذه الاضطرابات التي تكاد تبلغ حد العنف بين

التيارات الفكرية والعقائدية المتبادلة.. ذلك ـ وليكن هذا واضحاً ـ لأن منابع الاستقاء مختلفة ومتباينة. كل مثقف يتجه إلى مصدر خارجي لينهل ثقافته ويتشربها، ثم يعكس ما تشرب محاولاً أعطاءها مضموناً محلياً زائفاً.. وكان أن فقد الارتباط بين المثقفين بعضهم ببعض من ناحية وبينهم وبين أرضهم من ناحية أخرى.

وأنا لا أعارض التشرب بالثقافات الأجنبية ومحاولة فهمها وتحليلها، لكن على شرط أن تكون هناك حصانة أولية محلية.. أن يكون هناك تطعيم ضد الأوبئة الثقافية المنحرفة والتي تبعد عن واقع الإنسان الليبي العادي. لا بأس من معايشة والاحتكاك بجميع ـ أي نعم جميع ـ الثقافات الأجنبية. لكن لا أن تكون كالأسفنجة الغبية تشرب كل ما خيل لها أنه ماء زلال ولو كان خارجاً لتوه من أنبوب المجاري.. ثم هي تختزنه فرحة به جذلى. حتى يعصرها عاصر فترسل (رصيدها) في الحال.. وتبقى هي جافة عجفاء بلا ماء ولا حياة.

أي والله.. نحن في حاجة إلى تطعيم بمشرط الثقافة الليبية ضد التيارات التي مزقت كياننا الثقافي وتركتنا ننظر دائماً إلى بعيد، متلهفين على ما يأتينا بلا تمحيص. لكن.. كيف؟

هذه هي المشكلة. كيف أقدم الثقافة الليبية العربية الإسلامية وأقنع بها ذاك الذي يحفظ كلمات سارتر أو يردد شعارات ماركس أو يعاني شللاً فكرياً نتيجة لحقنات فلسفات اليهود؟

كيف أقنعه بوجود «أصالة» في ثقافته وبأنه ليس في حاجة إلى أفيون ثقافي يعطل قدراته العقلية ويشلها ويمنعها من إفادة بلده ومجتمعه؟

هي هذه المعضلة بحق. .

لكنها ليست معضلة مستعصية على الحل ما دمنا نملك طرف الخيط.

فنحن في حاجة إلى البحث عن تاريخنا وثروتنا الفكرية والعقلية، في حاجة إلى التنقيب عن الآثار وفيها وبها لاستخلاص المعاني الحضارية والثقافية والفنية القديمة والحديثة، في حاجة إلى البحث عن أرضية صلبة ثابتة لماضينا وحاضرنا نبني عليها مستقبلنا.

ونحن نملك الأسس. لدينا تراث فكري ليبي - إغريقي، فينيقي روماني، وليبي - عربي إسلامي، ولدينا تراث فني وتاريخي عظيم. لدينا المادة الخام الصالحة للدراسة والعرض. . لكن ما ينقصنا حقاً هم الباحثون، هم شهداء العلم والمعرفة والنور، هم الطليعة الزاحفة والبدايات الأولى لجلاء الغموض وتوضيحه.

هذا ما ينقصنا. .

وأنا أحمل الدولة العمل في هذا السبيل. الدولة متمثلة في وزارتي الإرشاد والمعارف والجامعة الليبية.

أما الإرشاد فقد بدأت لكننا نريد منها الأكثر، نريد منها أن تضع مخططاً شاملاً لتوضيح معنى الثقافة الليبية. . مجلات متخصصة

توكل تحريرها إلى من يستطيع أداء المهمة بحرارة وإيمان. . بعثات في كل مجال. . تخصصات متنوعة. . اهتمام كامل بالتراث الليبي المتنوع الغني.

وعلى وزارة المعارف أن تمد الإرشاد بالجنود وبقادة الجنود. ترسل هي الأخرى ألف بعثة وبعثة كل عام، ولينجح مائة خير لنا وأبقى، ولتعن باستجلاب العلماء والخبراء الحقيقيين ليرشدونا إلى طريقة البحث والتنقيب.

أما الجامعة الليبية فما أظن أحداً ينكر أهمية دورها. . أعني دور أبنائها المدرسين والطلبة فهم وحدهم، وليعذرني من يتأذى بهذه الكلمة، الذين يدركون مدى حاجتنا إلى تأكيد أصالة الثقافة الليبية والعمل على جلائها. فليتجهوا جميعاً إلى هذا الهدف النبيل فرقاً فرقاً، وزمراً زمراً، كل في ميدانه وتخصصه. ولتؤلف الجمعيات العلمية الأكاديمية وليغزُ الحماس كل قلب مخلص عامر بالإيمان.

بهذا نستطيع أن نقدم خيراً لأمتنا ونسهم فعلاً في تحقيق ذاتيتنا ووجودنا بدل هذا الذوبان المهين في ثقافات الآخرين متسلحين في هذا بالفكرة العربية المتفتحة على الثقافات الأجنبية بوعي وفهم عميق نابعة من قلب هذا المجتمع وبه وله.

قيل وقال.. عن القط والغزال

يقول المثل الشعبي عندما نرى من يقبل على شيء نجد فيه ما يشجع على الإقبال: «لولا اختلاف الأنظار ما مرقت السلع». .

ويقولون: «إن القط في عين أمه غزال»!

فإلى أي حد تتدخل الأنظار والأذواق في تجميل الشيء وترويقه وهل صحيح أن هذا النظر وهذا الذوق يستطيعان أن يقلبا القط إلى غزال والغراب إلى صقر؟!

بعبارة أخرى: هل الإحساس بالجمال وتذوقه ذاتي أو موضوعي؟ أعني هل نحن الذين نعطي للشيء قيمته الجمالية ودرجته، أم أن هذا الشيء هو الذي يحمل في نفسه من عوامل ومقومات وتركيب ما يجعلنا نحكم عليه بالجمال أو القبح؟!

أخشى أن أدعوك للسير معي لتتبُّع هذا السؤال فإن الإجابة عنه تتطلب الحديث الطويل. لكن ما لنا لا نجرب ونحاول؟. .

نستطيع أن نقول عن ثقة إن علم الجمال هو أقل فروع الفلسفة والتفكير الفلسفي حظاً من الاهتمام والدراسة.. على الرغم من أهميته البالغة في حياتنا اليومية وتأثيره على أحكامنا وتصرفاتنا، والتصاقه بواقعنا الحياتي.

لكننا نجد أن الفلاسفة الأقدمين ـ وفي مقدمتهم أفلاطون وأرسطو ـ قد قالوا رأيهم في هذا الموضوع ووضعوا بدايات جيدة لدراسة الجمال. وإذا كان أفلاطون ـ تبعاً لفلسفته المثالية ـ قد نادى بأن الذي نحسه في دنيانا هذه ليس سوى صورة باهتة لمثال الجمال بالذات، وأن الفن بالتالي ليس إلا تقليداً لتقليد، أو محاكاة لأشياء هي أيضاً محاكاة لمثل أخرى، فإن أرسطو ـ بواقعيته المميزة وطبيعته ـ رأى في الفن والإحساس بالجمال والتعبير عنه انفعالات طبيعية مرغوبة. وكان أرسطو يرى أن الفنان ليس هو الرسام أو المثال أو سواهما، ولكنه كل ذي صنعة ماهر في صناعته. فالنجار فنان والبناء فنان، والناسج فنان.. إلخ. لكن ما يعنينا اليوم هو نظرة كل منهما إلى الجمال: هل هو موضوعي لا يتأثر بالذات، أم هو ذاتي شخصي؟

أفلاطون ـ باعتبار أن كل شيء لديه تقليد لمثل ـ يرى أن الجمال موضوعي، وأن الشيء يحمل صفة للحسن أو القبح في ذاته ـ وإن كان على درجة باهتة ـ كالصورة المهزوزة المعالم..

وأرسطو يعطي للذات نصيباً ملحوظاً في التقييم الجمالي.. باعتبار أن الإنسان هو الذي يحكم على الشيء جمالياً.. ومن هنا

اختلفت النظرة إلى الموضوع الواحد، باختلاف البيئة والثقافة والإحساس الفني.

بعد انتهاء العصر الذهبي للفلسفة اليونانية نجد أن البحث في علم الجمال أو «الاستاطيقا» صار مقصوراً على بضع لمحات لا تسمن ولا تغني من جوع. . إذ غرقت الفلسفة الإسلامية في بحر الدراسات العقلية القريبة من الدين، ومحاولة الجمع بين الفلسفة والدين والصراع من أجل حرية الفكر إلى جانب الاهتمام بالناحية المنطقية عند أرسطو والميتافيزيقا بصفة عامة لدى فلاسفة اليونان.

كذلك نجد أن الفلسفة المدرسية ـ أو الأسكولائية ـ بأوروبا في القرون الوسطى اهتمت هي الأخرى بهرطقات ومناقشات «بيزنطية» وجدل عقيم، دون النظر إلى موضوعات جديدة، واكتفى المفكرون المدرسيون باحترام آراء أفلاطون ثم أرسطو وفعلوا مثلما فعل فلاسفة الإسلام بمحاولة التوفيق بين الفلسفة والدين وتقريب الشقة. . مجرد ترقيع لا غير.

لكن علم الجمال لقي اهتماماً كبيراً منذ انطلاقة الفكر الأوروبي وتحرره من ربقة السيطرة المدرسية ووجد الفلاسفة فيه مجالاً خصباً للدراسة وافتراض النظريات، وإلقاء الضوء على جوانبه المختلفة.

وظهرت دراسات عديدة في الفن والقيمة الجمالية. . وأصبح من الضروري لكل فيلسوف أن يقول رأيه في هذا العلم. . وكان هذا متابعة لتيار النهضة الفنية التي اجتاحت أوروبا، وإيطاليا على وجه التخصيص. وكان لأمثال ليوناردو دافنشي، ورفائيلو، وروردان ومن

تبعهم من الرسامين والنحاتين والمصورين. . الفضل الكبير.

وشهدت أوروبا آراء كثيرة في علم الجمال، وصار لهذا العلم كيانه المستقل الخاص به بعد أن كان ملتصقاً بأحد فروع الميتافيزيقا.

ولم يأت عصر عمانويل كانت حتى كان لا بد له من إبداء رأيه في الجمال، كما نقد العقل والحكم وغيرهما.

لعلني قد (سرحت) بك قليلاً، فالمعذرة لهذا الاستطراد. . ولنسأل الآن: ماذا نعني بقولنا؛ هذا جميل؟ إنك قد ترى غادة هيفاء في الشارع فتهتف: الله ما أجملها! وبجانبها أخرى تشيح بوجهك. . لأنها قبيحة. .

فكيف حكمت عليهما بهذا؟

لكل منهما وجه به عينان، وأنف وفم. . إلخ.

وكلاهما تسعى على قدمين. . فلم أعجبتك إحداهما، دون الأخرى؟

هل هناك (تركيبة) معينة في أطراف كل منهما. . أم هي الروح المنبثقة داخلها؟

هنا نحتار في تحديد معنى الجمال. .

لعلنا نقول إنه التناسق أو الانسجام أو (الهارموني) أو شيء من هذا القبيل، أو لعله شيء لا ندريه البتة.

أراد أحد الفلاسفة الماديين واسمه (فخنر) أن يبرهن على أن

هناك مقاييس محددة لتعريف الجميل فأتى بمستطيلات كثيرة مرسومة على الورق، تختلف في طولها وعرضها، منها الكبير والصغير، وأتى بمجموعة من المشاهدين وطلب إليهم أن يختاروا مستطيلاً بعينه. والعجيب أن الأغلبية المطلقة اتفقت على مستطيل معين قالت إنه «أجمل» المستطيلات. ومن هنا استنتج فخنر أن للجمال مقاييس وأنه موضوعي لا ذاتي.

ولقد اتبعت مسابقات الجمال مقياس فخنر هذا تقريباً. فصار يشترط في المتسابقات قطر خصر وأرداف وصدر معين، وطولاً معيناً ووزناً معيناً. لكنهم رغم هذا كله يختلفون في أي البنات أجمل، تماماً مثلما يحدث لي ذلك لو وضعت أمام مجموعة من هؤلاء الفاتنات. إذ ستدور الرأس مني حتماً ولا أعرف أيهن أجمل!

سؤال آخر: هل يميز الحيوان بين الجميل والقبيح؟

والإجابة: نعم. . الحيوان كالإنسان تماماً ـ يستطيع الشعور بالحسن والقبح. فقد وضع عالم فرساً قبيحة المنظر شعثاء الشعر كبيرة الأرجل بجانب حصان فأدار وجهه عنها دون كلمة مغازلة واحدة، أو لنقل دون همهمة واحدة.

ثم جاء بفرس حسناء مصقولة الشعر، لامعة الكفل، حسنة المنظر، فسرعان ما استجاب الحصان لها وبدأ في مداعبتها والتقرب إليها. . وأنت تستطيع أن تجري التجربة في بيتكم، بملاحظة دجاجكم ـ إن كان لديكم دجاج ـ فسترى أن إقبال الدجاجات على

ديك كبير فخم المنظر، ملون الريش، أحمر العرف أكثر منه على «دويك» منتف حقير. ولله في خلقه شؤون!!

سؤال جديد: هل للجمال درجات؟

نعم أيضاً.. لكن التقسيم عامة يمكن أن يكون هكذا:

جميل ـ ليس بالجميل ولا بالقبيح ـ قبيح.

ثم قسم الدرجات حسب ما تراه.

فهذه اللوحة جميلة لأنها منسجمة متكاملة في ضوئها ومساحتها وزاوية رسمها، وهذه (نص نص) لأنها لا توحي بالبهجة ولا بالسأم، وتلك قبيحة لأنها. ماذا؟ فلنقل: سخيفة غير منسجمة، باردة، مش حلوة.

وهنا يحق لك أن تسأل: ما معنى «القبح» إذن؟

هل هو الخلو من الجمال؟

إذن لقلنا «غير جميل» بدل «قبيح».. أو هل هو صفات قبيحة؟

الحق أنني لا أستطيع إجابتك ومن الأفضل أن أقول إن القبح هو ما كان ضد الجمال..

أنا أعرف أن هذه إجابة ناقصة فكأنني أفسر الماء ـ بعد الجهد ـ بالماء.. إذن فلنقل: إنه افتقاد الانسجام والتناسق.. أعني سوء التركيب وخطأه، وعدم انتظامه.

والآن..

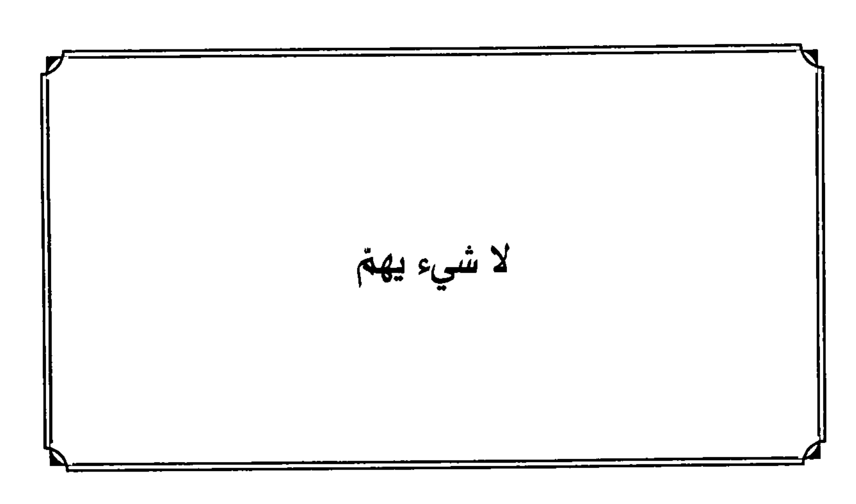
كل ما أستطيع قوله هو أن العاملين هما أساس الشعور بالجمال: عامل الذات وعامل الموضوع. فلا ريب في أن لكليهما نصيباً في عملية التقييم الجمالي، ينقص أو يزيد.

بعبارة أخرى أقول إن المثل «القط في عين أمه غزال» مثل خاطىء. فالواقع أن القط في عين أمه دائماً قط.. لكنه قط جميل!

هل قلت لك ما تريد أن تعرف؟

كلا بالطبع.

لكن لا بأس.. فلقد أثرنا أسئلة تحتاج إلى الإثارة وأنت تستطيع تتبع الموضوع إذا شئت.



لا شيء يهمّ

تعالوا معي يا أصدقائي نتفلسف قليلاً.

دعونا ننظر في أمرنا.. في حياتنا ووجودنا، وقيمة هذه الحياة وهذا الوجود. ولا تخشوا كلمة «الفلسفة» هذه، فما هي سوى نظرات في الحياة وآراء، اختلفت اتجاهاً واختلفت عمقاً واختلفت شمولاً، فكانت هذه المذاهب وهذه السبل.

لنسأل أنفسنا: من نحن؟ وما بدايتنا وما هي نهايتنا؟ ما الغاية من وجودنا في هذا الكون وبهذه الصورة والتركيب والعلاقات التي تنشأ بيننا بعضنا وبعض وبيننا والوجود؟

إن المرء منا لينشد المال، ويسعى إليه، فيبلغه حتى يفيض عنده من كل جانب، وهو يبغى القوة فيتتبع أسبابها فينالها حتى لتوشك أن تتفجر من كل عضلة في جسمه، وهو يرغب في العلم فيطلبه أينما كان ليدركه ويبلغ أعلى شأو فيه.. ثم تكون نهاية الجميع، الغني والفقير، القوي والضعيف، العالم والجاهل، الملك والكناس،

واحدة معلومة معروفة.. موت واندثار وحفرة في الأرض تضمه مع كفن يتحلل فيها إلى تراب.. إلى ذرات تختلط مع غيرهما من الذرات قد تحيق بها عوامل الطبيعة فتجرفها إلى أعماق المحيط أو ترسلها طائرة في الجو أو تقبرها في جوف الأرض مائة ميل وميل.

من هنا ينظر الإنسان إلى ذاته فيحتقرها.. يبغضها.. يمقتها، يشعر بحقارة الحياة وضآلته أمام هذا الكون الجبار العظيم.. فما قيمة فرد من بني البشر بجانب هذه الملايين من الكواكب وهذه البلايين من المجموعات الشمسية.. أمام هذا الفراغ المليء، أو هذا الخلاء الملاء، الممتد إلى ما لا نهاية؟!

ومن هنا أيضاً انبثقت النظرة اللامبالية، ونشأت فلسفات التشاؤم والسخرية من كل شيء. ماذا يهم إذا كان كل شيء عدماً، وكل جليل تافهاً، وكل رائع حقيراً؟.. لا شيء يهم. وكانت الفوضوية دعوة من بعد العدمية، ثم جاءت الوجودية المنحرفة، ومن قبل كان هناك السوفسطائيون والشكاك واللاأدرية. وقامت دعوات إلى الانغماس في اللذة العارمة العنيفة.. إلى الصخب والتهريج.. إلى النسيان وفقدان الذات، وقتل الإحساس والشعور في كل إنسان.

لكننا لا نلبث أن نجد أن كل شيء حسن. كل شيء يسير كالمعتاد. الحياة تمضي في هدوء رغم كل الصخب الذي يثار، وكل الضجيج.

أجدني رغم إحساسي بأن حياتي عبارة عن «كلام فارغ» أحب

هذه الحياة. فأنا أبحث عن المال وأطلبه وأرغب في العلم وأستزيد منه، وأنشد القوة والسيطرة والتملك، بل إنني مستعد لركوب كل صعب في سبيل ما أريد.

فما الذي يدفعني لكل هذا؟..

لا بد إذن من وجود حافز.. دافع.. محرك في داخلي يجعلني أفعل ما أفعل، وأكون ما أكون. يجعلني إنساناً من بني البشر له خصائصهم ومميزاتهم وسماتهم.

وقال العلماء إنها الغرائز ـ فأنت لا تستطيع التخلص من غرائزك.. هذه الدوافع الفطرية التي تصرف حياتك وتحسب أنك تصرفها أنت، فأنت تأكل بغريزة، وتحب بغريزة، وتغضب بغريزة، وتملك بغريزة. ولا تسلك سلوكاً إلا وكانت الغرائز من ورائه، دون أن تستطيع الخلاص منها أو الهرب من سبيلها، لأنها هي حافظة الحياة.. حافظة وجودنا كبشر. بل أكاد أقول إنها حافظة كياننا في مجتمع متماسك رغم ما فيه من تصادم رغبات ومقاصد.

والسؤال.. الفضول.. التطلع إلى المجهول ومحاولة كشفه غريزة أيضاً.. شيء فطري يسري في الدم والعروق ويسكن الخلايا الدقيقة من مخ الإنسان.

فإذا كانت الغرائز الأخرى حافظة للوجود، فإن غريزة السؤال (لنسمها هكذا) تعتبر العامل الأول بل الوحيد في تطوير هذا الوجود، والرقي به من حسن إلى أحسن.

ولم يبق العقل البشري مجالاً إلا وكان له فيه سؤال، ومحاولة للإجابة عن هذا السؤال.

تساءل عن الطبيعة، والكون، وما وراء الطبيعة، وسأل عن موجد هذا الكون وهذه الطبيعة، تماماً كما كان يسأل عن سر لسع الفلفل الأخضر الطري كلما قضمه مع لقمة بازين!

حتى التفاهة نفسها، حتى اللامبالاة، أصبحت موضوعاً جديراً بالبحث والتنقيب، وقمينا بالتحري والاستطلاع.

لكن السؤال الكبير الخالد.. من نحن، ما البداية وما المصير.. ما الغاية من وجودنا؟ لا يزال ـ وسيبقى أبداً ـ دون جواب.

ورغم كل شيء، فإن البشرية تمضي في الطريق، وتحقق الغاية المجهولة، وتجني ثمار كدها، غير ملتفتة إلى التفاهات الفكرية الشاذة. وهذا رائع وحسن، فما دامت الإنسانية تسير ولا تتوقف، وتتطور ولا تتجمد وتنمو ولا تتحجر.. فلا شيء يهم!

الفصل الثاني :

من أوروبا وعنها

«أن تسمع عن شيء، قد تفهمه.
أن تراه، قد تدركه.
أن تعيشه، ذاك أمر مختلف».

باريس الأمريكيّة

منحطة حتى نخاع فتيات مونمارتر وراقصات المولان روج.. متكبرة حتى قمة أنف ديغول الشامخ.

هذه هي باريس.. بكل ما فيها من صخب وهدوء، ورقة وعجرفة، وحضارة سامقة وتدهور مخوف، بكل ما فيها من تناقضات.

كالغانية العجوز، تخفي بصمات الزمن الرهيبة خلف أكداس المساحيق وفي دوامة العطور الساحرة، وتحت زخرف الثياب، وتبسم بأسنان صناعية لتمتص رحيق الغر المسكين، والغر هنا مئات الآلاف من الأمريكان الذين خلبت لبهم الغانية المجربة، فجاءوا إليها فوجاً أثر فوج.. تماماً كأسراب الذباب تخدعه أنسجة العنكبوت الحريرية اللامعة الجميلة، فلا يدري إلا وهو سجين مقيد بها ينتظره مصيره المحتوم.

تأخذك خطاك إلى الشانزليزيه وتمضي بك إلى حي البيغال، وتمر بميدان الأوربرا، وتجتاز الكونكورد، وتصل اللوفر، والحي اللاتيني، وسان جرمان.. فلا تجد إلا آلاف السياح الأمريكان، ينفض كل جيبه ويحتفظ بثمن تذكرة العودة، بعد أن يكون قد امتص تماماً.. ونضب معين دولاراته.

والأمريكان هناك يشكون بمرارة ويقولون لك: لقد خدعنا أيها الأخ.. ولن نعود.. إن معاملة الباريسيين لنا سيئة للغاية، وهم يكرهوننا، ثم هذا الغلاء الطاحن الفظيع، باريس لم تعد باريس.. لن نعود أبداً.

ورغم هذا يعودون، فلباريس سحر خاص بها، تنفثه محلات ديور، وروائح الشانيل، وأحلام «الكوكويت» الوردية.

وديغول يخلق المصاعب في وجه جونسون.. «يشنع» عليه في الفيتنام، ويسعى لرفعه مقام الفرنك الفرنسي على حساب الدولار الأمريكي بالتعاون مع ألد أعداء أمريكا، الصين الشعبية، وعلاقات فرنسا مع الصين، وتصرفاتها في السوق الأوروبية المشتركة، وعطفها على حكومة الدومنيكان اليسارية، يثير أمريكا ويزعجها، ورغم هذا فإن سيل السياح الأمريكيين لم ينقطع، ولم تعلن أمريكا الحرب سافرة على «حليفتها» العزيزة. ذلك لأن أمريكا تعلم أن هذه «الجفوة» المفتعلة من قبل ديغول ليست إلا مرحلة مؤقتة، أملتها الظروف السياسية والنفسية التي مر بها الفرنسيون بعد الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد حرب الجزائر، ووقوف الولايات المتحدة ـ كما

يرى الفرنسيون ـ موقفاً سلبياً، أن لم يكن مضاداً، أثناء مصائبهم المتوالية في الهند الصينية وغيرها.

لذا ترى «تسامحاً» كبيراً من قبل السياسة الأمريكية تجاه فرنسا، لعله تسامح يتسم بالشفقة، والدعاء للحليف العزيز بالشفاء العاجل من مرض المجد الفرنسي والكبرياء الديغولية اللذين كانا بمثابة «رد فعل» للهزائم المتتالية يحافظ به الفرنسيون على كرامتهم بادعاء زعامة أوروبا وقيادتها، وكره ـ ولو لفترة مؤقتة ـ كل ما هو أجنبي، وأمريكي بوجه خاص.

فهل صحيح أن الفرنسيين يكرهون الأمريكان؟

تتحدث مع أي مواطن منهم ـ ابتداء من سائق التاكسي حتى أستاذ السربون ـ وتسأله رأيه، فيشتم لك كل ما هو أمريكي، ويندد بالسياسية الأمريكية في الفيتنام، والتفرقة العنصرية، وكل شيء يسيء لأمريكا.

ثم تمضي في سبيلك لترى أن كل ما قيل لك عديم الأهمية، وأن ما حسبته بغضاً لليانكي ما هو إلا ستار يخفي به الفرنسي تأثره العميق بالأمريكيين وأتباعهه لهم في كل شيء.

يخيل لي أحياناً أن الفرنسي إنسان يرثى له، إنسان جدير بالشفقة. هذه الشراسة التي تبدو منه وهذه الغطرسة ما هي إلا أخلاق «عزيز قوم ذل» وليست دليلاً على سوء أدب الفرنسيين، هي مظاهر «عكسية» إن صح التعبير..

وأحد هذه المظاهر.. هذا التأمرك الغريب في الحياة الفرنسية، ومع هذا فهم يشتمون الأمريكان.

الشباب هنا خاصة تأمرك بشكل يدعو إلى الدهشة الأفلام الرائجة أمريكية، الملابس أمريكية، اللبان الأمريكي «يطرقع» في الأفواه بينما الجسم مشدود بين «بنطلون كاوبوي وجيبوتي جيمس بوند».. أثاث المنازل، الروايات المطروحة للشباب، المقاهي، المطاعم.. كلها على الطراز الأمريكي.. مطاعم «اخدم نفسك» و«الويمبي» أو ما نعرفه نحن «بالهمبرجر» تجدها في كل شارع تمر به.

حتى في الغناء.. أشهر مطرب هذه الأيام شاب فرنسي اسمه «جوني هوليداي».. ورغم أنه يغني بالفرنسية طبعاً فأنت تلاحظ أن اسمه «الفني» اسم أمريكي.

إن فرنسا تمر بمرحلة تعتبر خطيرة.. لعلنا نسميها مرحلة «مراهقة الشيخوخة». ومهما يكن الأمر.. فإن الطابع الأمريكي بدأ يظهر بوضوح يوماً بعد يوم.. والتأثير الأمريكي يبدو عميقاً..

ومن يدري.. فربما كان هذا الخصام المفتعل بين الفرنك والدولار محاولة «ديغولية» لتغطية هذا التأثير.

حضارة جماجم

مساء السبت من كل أسبوع يهرع الجميع إليه. الغانيات وسائقو عربات الأجرة وأصحاب البيغال وراهبات نوتردام، وطلبة السربون، وبائعو الصحف وكتابها. وآلاف السائحين والسائحات، ويدفع الجميع فرنكاتهم ويدخلون.

سرداب طويل طويل، مظلم إلا من بصيص من نور. رائحة المقبرة تعبق المكان. . وأنت تمشي ببطء شديد، وعلى جانبيك مئات آلاف الجماجم. جماجم قضى أصحابها منذ قرن، وجماجم لم تطحن ذكرى أصحابها السنون بعد، صفت هنا وهناك. وأنت تنظر إليها وهي تنظر إليك، عيونها الفارغة تسخر منك، وأفواهها الجوفاء إلا من أسنان مهشمة مكسورة تريك الطريق المحتوم.

ويمشي الجميع. . وتندو من البعض تأوهات، وتسمع نحيباً يتعالى وصراخ امرأة تطلب أن تخرج. . والممر ضيق كالقبر،

ورائحة عطنة تسد الأنوف. . ومئات آلاف الجماجم تنظر إلينا بشفقة ورثاء.

ويخرج الناس وفي كل قلب غصة، وفي كل نفس حسرة. . وبعد قليل ينسون كل شيء. ليدفنوا أحزانهم في غمار الحياة من جديد.

الساعة الآن تقارب العاشرة من إحدى ليالي باريس الصيفية الرائعة، وقدماي تقودانني إلى معرض الفنانين بجانب كنيسة (القلب المقدس)، إنه ليس معرضاً واحداً، بل معارض عديدة. . من مختلف الاتجاهات والمذاهب والمدارس. من تكعيبية إلى انطباعية إلى تقليدية فتجريدية وسريالية ومستقبلية. . وغير ذلك كثير.

وطفقت أتفرج، أملأ العين من دنيا الألوان والأصباغ هذه، وأتأمل إنتاج هؤلاء الفنانين الذين يفنون حياتهم بين القماش والفرشاة والأزميل والصخر. . ويعيشون على فتات الفتات، ليعصروا حبات قلوبهم. . يستقطرونها ليلونوا بها حياة بلا لون.

ما هذا؟

ماذا أسميه؟!

مئات من التماثيل الحديدية والصور. . كلها تسير على نمط واحد. . مهما تعددت المدارس.

تماثيل وصور غريبة. . بل مفرطة في الغرابة. . لحيوانات شاذة، أسطورية، مخيفة. . عناكب وذباب بمخالب حادة وعيون

رهيبة. . وبعوض وحشرات مفصلية مفزعة. . تماماً كما نراها في أشرطة الرعب الأمريكية، تثير في النفس الخوف منذ الوهلة الأولى بتركيباتها الخرافية الشاذة، وترغم المرء على أن يتأملها وهو يتساءل: ماذا يريدون أن يقولوا؟!

لا شيء. . إنه ـ فقط ـ الخوف.

الخوف من أشياء كثيرة، لكن أهمها الخوف من الحرب. . الحرب الذرية!

لقد قاست أوروبا من الحرب العالمية الثانية كثيراً. . ذاقت التشريد والموت والجوع، والحرمان. وحل بها الدمار في كل جانب من جوانبها. والصور التي تنشرها الصحف البريطانية ـ هذه الأيام ـ بمناسبة ذكرى بداية ضرب لندن بالقنابل الإلمانية تثير في النفوس ذكريات أليمة مفزعة.

من هنا انعكس الخوف على تصرفات الناس في أوروبا. . وإن كان يبدو في مظاهر كثيرة. . الشباب خائف من المستقبل، لذا فهو يغرق في اللذة والفوضى و(الصياعة).

والفنانون يطبعون إنتاجهم بالرعب والشذوذ والإغراب. أما رجال الدين فإنهم يؤكدون للإنسان مصيره الحتمي عن طريق حسي. . بعد أن فشل الأسلوب النظري. . بأن يضعوه أمام جماجم أسلافهم وجهاً لوجه.

لكن للجماجم - فيما يبدو - وظائف عديدة، فقد اتخذ منها أصحاب المقاهي في مونمارتر منافض للسجائر!

مظهر آخر من مظاهر الخوف.. يذكر الإنسان الذي يحتسي كأسه هناك، ويغازل حبيبته، وينفض سيجارته وسط الجمجمة الموضوعة أمامه.. بمصيره القريب إذا ما استمرت حضارة الجماجم هذه في سباق تسلحها المجنون!

مع الكلوشار

كانت الحادثة جديرة بالاهتمام بلا ريب، بل بالدهشة والتحقيق.

لكنها في فرنسا لم تثر إلا قليلاً من اللغط في بعض الصحف.. ثم نسيت تماماً. ذلك لأن هناك عشرات إن لم يكن المئات من هذه الحادثة.

رجل له خطره العلمي الكبير. مجموع شهاداته يثير العجب، كان معروفاً بتمكنه من علمه، ومشهوراً جداً، ويعتبر أحد المراجع الهامة العظيمة. اختفى فجأة عن الأنظار وبعد مدة اكتشفوا أنه طلق شهرته وعلمه وشهاداته ودنياه كلها ليصبح فرداً من جماعة «الكلوشار».. زاده رغيف خبز بيمناه وزجاجة نبيذ رخيص في جيب سترته، ومأواه السور العظيم الممتد على ضفاف السين أو أعتاب حانات البيغال.

هذه هي جماعة الكلوشار.

أناس فقدوا الرغبة في الاستمرار في هذه اللعبة السخيفة وأرادوا أن يعيشوا عمرهم الباقي بلا قيود من مجتمع أو نظام.. فتركوا كل شيء ليدفنوا آلامهم في قطرات الكحول الجهنمية وينظروا إلى الكون نظرة استخفاف ساخرة ويمضوا في الطريق لا يلوون على شيء.. فقد أدركوا أن النهاية واحدة وأنه لا شيء يهم.

شحاذون؟.

نعم.. وأنت حين تعطي أحدهم فرنكاً لا تنتظر أن يشكرك لأنه سيجري به إلى أقرب حانة ليصب في جوفه مزيداً من اللهيب محاولاً إطفاء لهيب أشد. فلا تغضب لأنه لم يقل: مرسي. فربما كان هذا الذي صرفته بفرنك عبقرياً في علم أو فن. ربما كان طبيباً أو شاعراً أو رساماً أو مهندساً تتمنى الكثير من الأمم لو كان لديها مثله. لكنها الحياة.. الحياة الأوروبية بكل ما فيها من صراع وتمزق جعلت من هؤلاء العباقرة شحاذين.. بملء إرادتهم ومحض اختيارهم.. في نظراتهم الشاردة يكمن الأسى، وفي عيونهم المطفأة يختبىء الشجن.

هل يمثلون مذهباً في الحياة؟

أبداً.. فهؤلاء أناس عدموا اهتمامهم بالحياة ومذاهبها، ولم يعودوا يريدون أي شيء سوى أن يتركوا في حالهم هكذا بلا إزعاج.. بلا مسؤوليات.. بلا صراع. وترى الواحد منهم وقد

أمسك بكيس قذر فيه بعض حاجياته فتذكر على الفور «اديوجين» الكلبي وطائفته المنتشرة منذ ألفين وخمسمائة عام وتعجب: ماذا حقق الإنسان في هذه القرون المتطاولة؟!...

لا زال تعيساً، شقياً يأكل نفسه ويأكل غيره يبحث عن ذاته وعن الحقيقة، بمصباح اديوجين أو بأنوار النيون.. وعلى جبال الأوليمب أو ضفاف السين. لكنه لا يجد شيئاً سوى الفراغ.

وتعجب: هل هذه هي الحضارة الأوروبية؟؟.

هل تعني الحضارة انهيار الأخلاق وتفكك الروابط العائلية والاجتماعية وضياع كل من يعجز عن العمل وظلمة المستقبل أمام كل من يقترب من أعتاب الشيخوخة؟

وهل وجد الإنسان الأوروبي سعادته؟.

إنه غني، حر الفكر، حطم كل الحواجز الجنسية، واخترع، وألحد، وفعل كل ما يريد.. لكنه لم يجد سعادته.. تلك الجوهرة الغالية.. لأنه ببساطة فقد روحه. سلمها للشيطان. تماماً كما فعل فاوست ذات يوم وهو يبحث عن المجد والقوة والمال!..

حدثني صديق كان يزور السويد قال:

أنت لا تتصور السويد.. أرقى بلد في العالم.. وأغنى دول الشمال.. بلد ليس فيها أمي واحد. لكن في مقابل هذا تجد ثلث أطفالها لقطاء وعشرين في المائة من سكانها نزلاء أو خريجي مصحات الأمراض العقلية.. وذات يوم كنا نركب القطار وصعد إلى

جانبنا رجل سويدي عرف أننا لسنا من بلده. ورغم أنه كان حسن المظهر ينم عن ثراء فقد بدأ يحدثنا عن تعاسته وتعاسة مواطنيه.. وفجأة انهمر الدمع من عينيه وأجهش بالبكاء!..

نعم. إن أوروبا رغم كل ثرائها ومظاهر بذخها ومعالم حضارتها ليست سعيدة. ذلك لأن السعادة شيء روحي لا يتعايش مع المادة الطاغية المتنمردة.. ولقد طلقت أوروبا روحها من زمان.

وحين تزور باريس وتطل على السين وهو يتدفق ويهدر انظر إلى أحد جانبيك فستجد أحد «الكلوشار».. شحاذاً قذراً ربما كان عبقرياً نابغاً يمد يده نحوك مستجدياً.. أرجوك أن لا تبخل عليه بفرنك أو اثنين.. مع بسمة حنان وعطف. فمن يدري؟ ربما أرجعت له روحه الضائعة ببسمتك العاطفة الحانية... البسمة التي افتقدتها أوروبا كلها، وتبحث عنها، ولا تزال.

مصرف الروح القدس

أشرفت برامج التلفزة البريطانة على الختام، وانتهت دوشة أشرطة الجريمة والجنس وإعلانات الشكولاته والبيرة، وسكتت حمى أغاني الأرداف والصدور وصياح المراهقين. . وخفت الضوء في الشاشة الصغيرة لحظات ليبرز من بعد صليب فضي يلمع ويشع ليملأها كلها، وموسيقى كنائسية تصاحبه وهو يبتعد قليلاً قليلاً، ليظهر بدلاً منه قس بهي الصورة، حسن السمت، على عينيه نظارات مهيبة، وفي يده ورقة نقد من فئة الخمسة جنيهات يداعبها ويريها لمشاهديه.

بدأ القس موعظة السبت بصوت هادىء رخيم، ونبرات تجيش بالعاطفة والتقوى والفضيلة. كان موضوع حديثه هذه الجنيهات الخمسة، رمزاً للمادة، ومثالاً للمال. . لم يهاجمها أو يشتمها أو يقلل من قيمتها. قال إنها صارت ـ واقعاً ـ ذات شأن في حياتنا تجلب لنا السعادة أحياناً، وحيناً تأتي لنا بالغم والنكد والألم. فطابع

البريد الذي يحمل تهنئة، أو خبراً أليماً، والممرضة التي تسهر بجانب المرضى ليل نهار، والعربة التي تقل ركابها إلى الكنيسة أو الحان، والمسدس الذي يرتكب به المجرم جريمته، وباقة الورد التي يقدمها العاشق إلى فتاته، ونسخة الإنجيل التي يشتريها المسيحي الورع. . كلها بهذه الجنيهات.

لكن ـ قال القسيس ـ ينبغي علينا أن نكون عقلاء وأن نستخدم العقل الذي وهبنا الله أفضل استخدام. يجب أن ندرك أن المال سلاح ذو حدين، وأننا ـ إن لم نسيطر على إغرائه ـ سنقع في حبائله ونفقد مقوماتنا كبشر تشكل الروح جزءاً مهمّاً ـ بل أهم جزء ـ في وجودنا كله. فحذار حذار ـ قال القسيس ـ أن يخدعكم المال وتحسبوه كل ما في الوجود. التفتوا قليلاً إلى جانب الروح فيكم. . غذوه بالحب والإخلاص والصدق والتعاون والخير. . حتى يرضى عنكم يسوع.

وغابت صورة القس ليعود الصليب بإشعاعه ولمعانه ولتعزف الجوقة: ليحفظ الله الملكة.

أطفأت الجهاز، ونور الحجرة، ودخلت الفراش وصورة القس الطيب، وكلماته الرقيقة ترن في أذني. وأنا أقول لنفسي: تبت هذه النقود. . لن أجري خلفها بعد اليوم، ولن أهتم بها، وسوف أتصدق غداً بشيء مما عندي. ونمت سعيداً، فإنني لم أسمع حديثاً عن عذاب جهنم وأبوابها السبعة ووادي الويل الرهيب. كان ميعاد الطائرة المقلعة إلى روما منتصف يوم السبت. . تأخرت ساعة بسبب

الضباب. ومنذ أن غادرت البيت وأنا لا أتحرك إلا بالشلن والبنس، حتى وصلت مطار روما. لم تكن معي عملة إيطالية لاستطيع بها الوصول إلى المدينة. طفقت أبحث عن مصرف فدلني رجل الشرطة على باب قرأت فوقه بحروف كهربائية ساطعة: «بانكا دي سانتو سبرتو». .

ما شاء الله. كيف لا تلمع الحروف وتشع وهي تنبىء عن «مصرف الروح القدس»؟. . تماماً كما كان يشع الصليب البارحة على الشاشة السحرية.

وتسأل عن صاحب المصرف ومالكه، فيجيبونك: إنه الفاتيكان أيها العزيز. لم يسيطر الفاتيكان على دنيا الروح فقط، ولم يكتف بإصدار صكوك الغفران وتذاكر الدخول إلى الفردوس، بل أراد أن يدخل عالم المصارف والمضاربات والأسهم والسندات.

وعندما تسأل عن ثروة الفاتيكان يصيبك الذهول من الجواب. . فهي ثروة لا تقدر وصدقني أنها لا يمكن حصرها. فلمصرف الروح القدس وحده مئات الفروع في أوروبا كلها وأمريكا. . . وكل مسيحي تقي ـ يرغب في نعيم الفراديس ـ عليه أن يتعامل معه وحده. أليست طريقة حديثة لتلك الصكوك التي ثار عليها لوثر ذات يوم؟. . وطريقة ذكية أيضاً. طبعاً فعصرنا عصر الذكاء والأذكياء فقط.

ثم ما أذكى هذا المزج الطريف بين المادة والروح في اسم

المصرف الكريم، وما أرقه في الأذن وأمتعه على طرف اللسان!

لقد أدرك الفاتيكان ـ بفطنة ـ «روح العصر»، وعرف أن «عصر الروح» قد انتهى، وأنه لا بد له من «عصر» الجيوب المؤمنة المتبتلة إن كان يبغي الاحتفاظ بهيبته وسلطانه وجبروته. فأسس المصارف والشركات فضلاً عن أكداس الجواهر والتيجان المذهبة يسطع فوقها الزبرجد واليواقيت. وشارك في كل كبيرة وصغيرة من شؤون الأصفر الرنان. ومنذ حوالي أسبوعين تقريباً ذكرت الصحف حديثاً له مغزاه وشأنه وله دلائله. هؤلاء الرهبان المتعطلون الكسالى.. لم لا يعملون؟.

هكذا تساءلت الصحف، وكان من ورائها محرك بلا ريب.

والتقطت فرنسا الخيط، وبدأت التجربة ذات الدلائل.

دخل بعض الرهبان المصانع والمعامل، وأمضوا الساعات الطويلة أمام الآلات يراقبونها ويعملون، وقامت ضجة في بريطانيا تطالب باتباع القدوة الحسنة.. فلا مكان لكسول وخامل في هذا الزمان، حتى ولو كان راهباً يركع ألف مرة أمام المذبح المقدس.

قالت الصحف: إنهم كسالى متبلدون، يأكلون ولا ينتجون. يجب أن يعملوا ليعولوا أنفسهم، ولا نعارض بين مهمتهم الدينية وعملهم في الحياة.

ولا زال الحديث يدور، والجدل يحتد.

وتذكرت مالك بن أنس وأبا حنيفة والشافعي وواصل بن عطاء

الغزال.. وتذكرت الفقيه سليمان والفقيه أحمد وهما يضفران القفاف ويشققان البلح ويحرثان أول الخريف ويحصدان آخر الربيع. ويؤمان الناس في الصلاة ويفتيانهم في مسائل الدين وينصحانهم في كل مشكل.

لا رهبانية في الإسلام، ولا «بانكا دي سانتو سبرتو»!

و.. الحمد لله!

الشيخ زرّوق في المتحف البريطاني

كالقلعة الراسخة العظيمة كان، يمتد جناحاه ذات اليمين وذات اليسار، تصر أبوابه العملاقة صباح كل يوم ليبتلع في جوفه آلاف الزوار والسائحين. وأمامه جثم تمثالان للأسد الشهير واضعاً إحدى قدميه الأماميتين على الأخرى مسنداً إليهما ذقنه العجوز وقد ثنى ذيله فوق ظهره في استرخاءة متكبرة.

ذلك هو «المتحف البريطاني» ذائع الصيت، مثله مثل مئات المتاحف في عرض أوروبا وطولها، وإن كان أكبرها وأضخمها.

أدرك الإنجليز أثر الضخامة في النفس البشرية وتأثيرها فبنوا هذه المتاحف الضخمة الفخمة وجمعوا فيها كل فن وأثر وعلم وتاريخ وتحفة ليهولوا من تاريخهم ويشهدوا الزائر إلى أي حد امتدت امبراطوريتهم وإلى أي مدى. فأخذوا من آثار كوريا ومنغوليا ومخلفات الهنود الحمر والسمر وبقايا الفراعنة وحضارات الرافدين وأعمال سكان الغابات الحارة وأدوات بني الأسكيمو والفيكونج. .

اجتزت الحارس بعد الحارس، والدليل بعد الدليل، وأنا أطوف مع الطائفين.. أريد أن ألم بكل شيء، في أسرع وقت.. كنت أمشي في قاعة الساعات وخطوات الزمن ترسمها في أذني. ساعات من مختلف العصور والانماط، دقاتها مختلفة الوقع متفقة الغاية.. ساعات من عهد شارلمان.. من عهد الرشيد أهداها له رمزاً لنبوغ العقلية العربية الخلاقة.. وأخرى ذات رمل يتسرب ليعود منقلباً يعد اللحظات بحبات الرمال.

وثالثة بماء ينزل قطرات، ورابعة تؤذن كديك آذنه الفجر بالبزوغ.

كنت أسأل نفسي: ماذا بعد؟.. ماذا حقق الإنسان طوال هذه العصور التي دقت خلالها ملايين الساعات؟.. ومتى ينتصر على نفسه وأهوائه ورغباته وطموحه القتال؟ تجرني القدم إلى قاعة أخرى لآثار سكان الغابة وأدواتهم.. لا زالوا حتى اليوم كما كانوا ولعلهم سيبقون ما دام هناك من يمص دمهم ويستعبدهم ولا يدخلهم في عالم البشر. ثم آثار ومخلفات وفنون وعلوم.. أعاجيب يتلو بعضها بعضاً. العالم كله جمع في واحد تطوفه من «طقطق» حتى «السلام عليكم» في ساعات، وأنت تتبع اسهماً وإشارات فلا حاجة بك إلى مرشد يقلق راحتك ويقطع تأملك.. طريقة جديدة ابتكروها لتقود نفسك بنفسك توفيراً للجهد والوقت والمال، وسلالم ودهاليز وممرات وصالات.. وأنا أدور كالدوامة أبغي مكاناً كان قصدي وهدفي.

عبرت قاعة واسعة طويلة، رصت على جانبيها الكتب والمجلدات حتى سقفها المرتفع.. بقايا ما سطر بنو البشر في رحلتهم الساحرة في دروب الحياة. كانت هي «مكتبة الملك» نواة المتحف وأساسه، أهدي ما فيها إلى أبناء الشعب الملك جورج الرابع عام 1823 ومن يومها والنواة تنمو وتكبر حتى صارت ما هي الآن.

ودلفت إلى قاعة أصغر بها أرفف ولوحات و«فترينات» عرضت فيها المخطوطات النادرة لأمهات كتب الحكمة والمعرفة. نسخ من القرآن الكريم والإنجيل والتوراة والفيدا وكتب كونفوشيوس وزرادشت وبراهما وسيتا. وسموها «قسم المخطوطات الشرقية»، فممر طويل، فقاعة أخرى خاصة بالمخطوطات العربية، تلك التي كنت أبغي.

يا لله.. هذه كنوزنا الغالية هنا إذن. هذه شرارة من مشعل حضارتنا الرائعة جلبوه ـ لا أدري كيف ـ واحتفظوا به. آلاف الكتب والأسفار لا تجدها في مشرق احتوتها أرفف محروسة بألف قفل. شعرت أنني بين أهلي وأحبابي عندما تصفحت أحد الفهارس العشرين أبحث عن أصدقاء أعرفهم. أسماء عربية تطالعني لفطاحل أجلاء رواد دياجير الظلام عندما كان آل سكسون يتحاربون في أدغال اسكتلندا وسهول بريتانيا.

لم أحفل برطانة أمين القسم. أحسست أنه مجرد أعجمي يقتحم على أحبابي مجلسهم ويحفظهم رهينة عنده دون مبرر، وأنهم به

متبرمون. مضيت أحاكيهم واحداً واحداً وأنصت لكلماتهم خلال الأزمنة تنطق بها الأوراق المصفرة المهترئة، وهم يوشوشون لي في ود وحنان.

كان في القاعة أعجام آخرون يحاولون الحديث مع شيوخي وأحبابي. تخيلت أجدادي يضحكون من لكنتهم وعجمتهم ويداعبونهم في ظرف المعتز بلسانه الشامخ بلغته في غير كبر ولا خيلاء. تماماً كما كانوا يفعلون بهم في مجلس الوليد والمأمون والمعتصم.

فجأة رأيت أحدهم عن يميني. كان قريباً إلي.. بل أقربهم جميعاً. فالرجل بلدياتي ومن أهلي، وطالما زرته وحدي ومع الآخرين، وفي طريقي إلى شاطىء قصر أحمد كل صيف. كان الشيخ أحمد زروق.. ذا المدرسة الشهيرة في مصراته.

ثلاثة مؤلفات وشذرات أخرى له ترقد على الرف هناك في مكتبة المتحف البريطاني، تحن إلى أرض الوطن وتشتاق. لم يسمح لي أمين القسم بالبقاء طويلاً معه فقد حان موعد الأقفال.

عشرات من أسماء ليبية ترقد مؤلفاتهم في مكتبات لندن والمكتبة الوطنية بباريس والفاتيكان بروما والأسكوريال بمدريد وسواها.. وهي تبحث عن أحباب وأصحاب وخلان.

وقال لي الأستاذ محسن عمير ـ مستشار سفارتنا بلندن ـ إنه رأى في الجمعية الجغرافية الملكية رسائل من مواطنين ليبيين كانوا

في مالطة إلى الملكة فكتوريا في عهد السيادة الليبية على البحر المتوسط، وأن هناك أيضاً كل ما كتب في الصحف والمجلات والكتب عن ليبيا لا تجد له مثالاً.

قلت لنفسي: ترى هل حان الوقت لترجمة ما كتب عنا، وجمع ما يخصنا، وما دور الدولة في الأمر؟..

وإلى متى نهمل ونمهل.. وترقد آثارنا بعيداً عنا.. كما ترقد مؤلفات شيوخنا وعلمائنا في المتحف البريطاني وتتكىء أعمدة لبدة الكبرى في القرية الإنجليزية الوادعة.. فرجينيا ووتر فولز؟!

حضارة التيك تاك

كانت الساعة منتصف الليل والصمت يلف دار التمريض التي نزلت. حفيف أوراق الأشجار تعبث بها الريح يأتي من خلال النفاذة والمنبه يدق في نغمة رتيبة بلا توقف أو ملل. شعرت بالعطش فمددت يدي إلى الزر بجانب الوسادة أضغطه كالعادة حين أريد استدعاء الممرضة فيرن الجرس ينبهها. لم يرن الجرس هذه المرة. انتظرت قليلاً ثم أعدت الكرة مثنى وثلاث ورباع. ثم توقفت فإن الجرس لم يرن كالعادة. سلمت أمري إلى الله وتهيأت لمغادرة الفراش لأشرب أو أنادي أحداً يسقيني. فجأة دخلت الممرضة مسرعة تسأل لماذا ضغطت الجرس كل هذه المرات المتتالية. دهشت فإن الجرس لم يرن. سألتها: كيف عرفت؟

ملأت الكوب ماء وقدمته لي، ثم قالت: اضغط الزر ثانية لو سمحت. ووقفت غير بعيد.

ضغطت. توت.. توت.

كان الصوت يصدر من جيب الممرضة . .

مدت يدها لتخرج مثل علبة الكبريت أودعته جيبها الصغير.

قالت: أوشك أن يعمم هذا الجهاز الآن في المستشفيات ودور التمريض. إنه جهاز إلكتروني مبتكر نضعه في جيوبنا . . حتى إذا طلبنا مريض ليلاً لم يزعج بقية المرضى بجرس الدهليز، فأينما كنا في حدود هذه الدار نلبي النداء برقم يظهر على سطح الجهاز ينبىء عن حجرة المريض الطالب.

أصلحت لي وضع الوسادة برفق وتمنت لي نوماً طيباً وخرجت تلبي نداء مريض آخر. هذه هي أوروبا الآن.

إن التقنية الحديثة البالغة التقدم تكاد تذهل القادم الغريب. عالم من دنيا علاء الدين وآلة الزمن، ومرآة الساحرة العجوز وعفاريت سيف بن ذي يزن تحقق الآن.

كل شيء بالزر والإلكترون: تك تاك . . تك تاك.

وأنت مسترخ على مقعد وثير وسيجارة بين شفتيك وفنجان شاي أو قهوة ـ حسب كيفك ـ أمامك، ويدك تمتد بهدوء . . تك. وينفتح عالم السحرة . . تاك . . وينغلق من جديد.

لن أكلمك عن المذياع والتلفاز والمدفأة الكهربائية ومكيف الهواء والهاتف والمصعد . . فهذه كلها نعرفها الآن.

اهبط إلى جوف الأرض حيث ما يسمونه (الاندر غراوند) أو قطار تحت الأرض . . تقدم إلى لوحة وأبحث عن وجهتك مكتوبة.

ضع المبلغ المطلوب.. تك.. تذكرتك في يدك.. تك.. السلم الكهربائي يحملك إلى القطار.. تك.. القطار يجري بك.. تك.. تخرج وتصعد من جديد.. تك.. أنت الآن في المكان الذي تقصد.

هل تنقصك سجاير أو تهوي شيكولاته؟ أو تريد صورة عاجلة في ثلاث دقائق؟

أو تبغي عشاء ساخناً أو دجاجة محمرة؟.. أطلب أي شيء.. تك.. تك.. وتجده بين يديك. تماماً كخاتم شبيك لبيك، عبدك بين يديك..

وتمشي في الشارع وتنظر.. تك.. عربة ضخمة تنزلها رافعة جبارة بزر صغير.. قطار كامل يهبط إلى الأرض بنفس الزر. ولا كلمة.

إن الرفاهية التي تعيشها بعض الطبقات في أوروبا تفوق الوصف، وإن الكسل ـ أحب رذائل الإنسان إليه ـ يتوفر له بشكل مثير.

بعضهم يجد عناء في تغيير محطة التلفزة حين يقوم إليه فابتكروا له جهازاً في يده يجلس به أمام التلفاز يبدل من محطاته ويرفع من صوته ويخفض ما يشاء. مجرد: تك.. تاك..

وبعضهن شكون من برد الشارع ـ إذ لا برد في البيوت والعربات والمحلات ـ فاخترعوا لهن جهازاً يضعنه في كعب

الحذاء. . تك وإذا بالحذاء ساخن دافىء. . تك. . وإذا به بارد ندى إذا ما كان حر وصيف. .

هذه هي الحياة الآن. مجرد أزرار وأرقام وأسلاك وموجات صوتية وضوئية، وذبذبات تهتز وتئز وتتماوج.

حياة بلغت فيها الرفاهية درجة مهولة ـ مع احتياط واجب: ليس لكل الناس. تقدم فني وتقني مدهش، وفر على القوم الوقت أيما توفير وأراحهم أيما راحة.

لذا فهم لا يفتحون محلاتهم مبكراً ولا يبقون فيها طويلاً.

من التاسعة أو العاشرة أحياناً حتى الخامسة وباقي الوقت يقضونه في الاستمتاع بحياتهم على طريقتهم الخاصة.

ويوم السبت عطلة، ويوم الأحد، وأعياد لا أول لها ولا آخر، فيها تمتلىء الحانات والمراقص، وتجذب أعناق الزجاجات وخصور الحسان. تك. . نصف بيرة. . تاك ويسكي كامل. . تك فودكا مشعشعة! وتمضي لعبة الأمواج الصوتية والذبذبات الضوئية تتماوج وتتذبذب. . وتشبك أحياناً.

تك. هل تقبلين مراقصتي يا آنسة؟

تاك. . بكل سرور.

تك. . ما عنوانك؟ تاك هذا عنواني!

تك. . تاك. . تك. . تاك!

«إقرأ إنجيلك» في هايدبرك

لست أدري ما إذا كانت منبراً للحرية أو ملعباً لمهرجين.. حديقة هايدبارك الشهيرة هذه.

في أمسيات كل يومي سبت وأحد يتقاطر الناس إليها من كل حدب وصوب، وكل جنس ودين واتجاه ومذهب وسن، تحملهم الحافلات ذات الطابقين وقطارات تحت الأرض الكهربائية، بعضهم ليقضي فيها ساعات رضية على العشب الأخضر الكثيف وآخرون تتعانق عيونهم في حب وتتشابك أيديهم في غزل وهم منبطحون ومنبطحات فوق النجيل الريان. أما الأكثرون فهم يتسابقون إلى زاوية بالحديقة أعدوها لهواة الكلام والحديث.. هواة السياسة وأصحاب المذاهب ودعاة الأحزاب.. من كل بلد وكل قطر، وهيأوا فيها منابر وسلالم يعتليها الخطباء ليبدوا آراءهم في مختلف القضايا وعديد المشكلات ويناقشوا الأحداث الجارية، ويجادلوا في كل شيء.

قفزت إلى الحافلة رقم 30 وقطعت لي التذكرية، آنسة في ريعان

الشباب، تذكرة إلى قوس الرخام.. أو هو: ماربل آرش.. وأنا أتخيل كيف تكون هايدبارك هذه.

وقفت الحافلة ونزلت لأدلف إلى الحديقة. مجموعات كبيرة من الناس تجمعوا حلقات تكبر أو تصغر ينصت بعضهم ويبتسم الآخر بينما اشتبك اثنان في جدل حاد تطاير فيه الزبد من الأشداق.

إن المرء يحتار إذا ما دخل هايدبارك.. من يسمع ولمن ينصت، ولا يجد بداً من أن يكتفي بفرجة.. بلحظات يقضيها أمام خطيب إذا كان ينوي أن يرى كل شيء مثلي وبأسرع ما يمكن.

كان النقاش محتدماً على أشده بين باكستاني وهندي معمم عن الحرب بين بلديهما، كل يدلي بحجته وبراهينه، وامرأة إنجليزية عجوز تضرب الهندي على صدره محتجة عليه وهو يسألها: أنديا نوغود؟ باكستان غود؟ وتتعالى الضحكات وينصرف الهندي منهياً الجدال والباكستاني يسأله: أين حلاوتي؟ كناية عن انتصاره.

شاب في الثلاثين طويل شعر الرأس كث شعر الذقن يناقش مختلف المسائل ابتداء من قضية حبوب منع الحمل حتى التسليح الذري ويدعو مستمعيه، وهم كثيرون، إلى الكلام.

زنجي من افريقيا يسخر بمرارة من أسياده البيض السابقين حينما دفعوا به للحرب في صفوفهم واستمتعوا هم بالنصر. وحين يعارضه إيرلندي ويجادله ويقول له: ماذا تريدون؟ لا زلتم تأكلون أرغفتكم عندنا. يجيبه: الحرب الثالثة سآكله متمدّداً وأنت في الخندق أيها الصديق!!

هؤلاء شبان سود لا تتجاوز أعمارهم الخامسة والعشرين، اعتلى الواحد تلو الآخر منبراً كتبوا عليه: حركة عموم افريقيا الصليبية. وهم بلغاء، الحق أنهم بلغاء بإنجليزية سليمة رائعة. وتذكرت ما فعله التبشير وما قدمه للاستعمار من خدمات.

وشيخ أسمر لعله من جزر الهند الغربية وقف يناقش بروح مرحة قضايا الساعة ويجادل معارضيه بفم اهتم ساخر.

نماذج عديدة تراها أغلبها من السود أو الملونين تدافع عن قضايا ومذاهب بمختلف الأساليب في حرية مدهشة. ورجلان.. رجلان فقط من رجال الأمن ينظران ولا يتحركان.. كل فرد حر أن يقول ما يشاء مهما تعارض مع نظم البلاد وقوانينها وحياتها، أن يبدي رأيه بلا قيد وبلا حدود.. اللهم إلا حرية الآخرين.. كما قالوا!

كان السود يهدرون في عنف كأنهار افريقيا العظيمة وعشرات من السواح والإنجليز يلتقطون الصور لهم ويلحسون «الآيس كريم». منظر مسل بلا ريب أن يروا هؤلاء «القرود كما يسمونهم يصخبون ويقفزون ويتصايحون.

نفر من البيض قليل كان يشترك.. ثلاثة شيوخ وعجوز يغنون الأناشيد الدينية ويدعون الشباب إلى التمسك بالدين والأخلاق والانضمام إلى جمعية (اقرأ إنجيلك). لقد كانوا يغنون وحدهم.. فلم يكن يسمعهم أحد.

وخرجت ورأسي تدور. مئات الأفكار، آلاف الكلمات،

سمعتها بعشرات اللهجات، وللإنجليزية لهجات هندية وافريقية واسترالية وغيرها كثير. وكنت أتساءل:

هل هي حرية وديموقراطية حقاً أن نسمح للناس في يوم معين ونطاق محدد أن يقولوا ما يريدون ثم نمنعهم من قوله بطريق مباشر أو غير مباشر في مكان آخر ويوم آخر؟.

أم هي مجرد خدعة ماكرة ذات قناع خبيث؟ ولعبة مسلية طريفة تجلب الدعاية والسياح وتصرف شحنات الغضب والحماس والانفعال؟.

مش عارف!!

دكتاتوريّة «التين آيجرز»

«كلا يا سيدي. لم نعد نخشاه. الغول الذي كان يخيفنا ويرعبنا. . دكتاتورية البروليتاريا. فقد عرفنا كيف نقلم أظافرها ونجعلها تتحول إلى برجوازية عمالية. لقد أفادتنا التجربة واستطعنا أن نخضعها بسهولة ويسر. .

ما يفزعنا اليوم. .

دكتاتورية من نوع جديد، وطريف في نفس الوقت. إنها دكتاتورية المراهقين والمراهقات، دكتاتورية «التين آيجرز» إذا شئت».

كان هذا حديث العجوز الإنجليزي في الطائرة المقلعة إلى لندن والذي كان يشكو لي باستمرار من غلاء أوروبا وفوضى أوروبا.

والحق أن في كلامه كثيراً من الصواب إن لم يكن الصواب كله. فقد سيطر الشباب المراهق منذ سنوات قليلة على تفكير أوروبا ووجهه إلى غايات غريبة ومنحرفة، همها إرضاء هذه الطبقة المتمردة

الهائجة من المراهقين والمراهقات بكل الوسائل وفي جميع الميادين. وليس منا من لم يقرأ أو يرى أو يسمع «البيتلز» أو عنهم. وما هؤلاء الخنافس سوى تعبير عن مدى قدرة المراهقين في أوروبا، ومنها بريطانيا، على تسيير التيارات والأفكار بل والسياسة الداخلية والخارجية في الطريق الذي يحلو لهم. ولقد قرأنا عن تكريم ملكة بريطانيا للخنافس وعن تنافس المحافظين والعمال في سبيل استرضاء قادة فيلق المراهقين استجلاباً لأصواتهم وأصوات أسرهم واكتساباً لهم كقوة فعالة في المجتمع البريطاني. وأنت حينما تدخل متحف الشمع مثلاً، وهو متحف لا تقام التماثيل فيه لسوى عظماء التاريخ في الأدب والفن والسياسة وغيرها، ترى نصيب البيتلز مجموعة تفوق أياً كان في عدد التماثيل المقامة لهم..

والمراهقون قوة اقتصادية كبرى أيضاً. في السنة الماضية فقط بلغ مجموع ما صرفه المراهقون في بريطانيا وحدها 900,000,000 جنيه استرليني، وهم بهذا وجهوا إنتاج البضائع البريطانية نحو أدوات اللهو والزينة الرخيصة والتي لا تدوم طويلاً حتى يجد المراهقون مجالاً أوسع للصرف وتجد الرأسمالية البريطانية مجالاً أكبر للنمو. والحرية المعطاة للمراهقين جاوزت كل حدود المعقول. هم أحرار في السهر والشرب والتدخين والمبيت خارج المنزل، ذكوراً وأناثاً، وأحرار في الصراخ والصياح وأهمال المظهر.. أحرار في ترك التعليم والهروب من المدرسة في سن الخامسة عشرة. وحين تكون عائداً من سهرة لطيفة عند الساعة الثانية صباحاً مثلاً وترى في

طريقك مجموعة فتيات لا تتجاوز كبراهن الرابعة عشرة فلا تعجب... فقد كن مثلك في سهرة ألطف ولا أحد يقول لأي منهم: ثلث الثلاثة كم!!

في يوم واحد نشرت الصحف البرقيات التالية:

أمسكت الشرطة في برايتون (ضاحية على بعد 50 ميلاً من لندن) بمجموعة فتيات لندنيات «يتدهورن» عند الساعة السادسة صباحاً. احتجزهن في مركز الشرطة فريق من الشرطة يبحث عن أولياء أمورهن بينما كن هن في المركز يحتسين الشاي والبسكويت ويدخن سجاير الكنت..

في استوكهلم قام المراهقون بشغب وتمرد وجلسوا في الشوارع وعلى الأرصفة كما حدث نفس الشيء في أوسلو. والسبب؟ احتجاجاً على أمر سلطات المدينتين بإغلاق ناد ليلي ليس على ما يرام..

عاد البيتلز من «جولة النصر» ـ هكذا والله ـ في الولايات المتحدة الأميركية وشقوا طريقهم بصعوبة بالغة وسط المعجبين والمعجبات وأقواس النصر والبالونات المكتوب عليها: أهلاً بعودة الإبطال! تماماً كما كان يستقبل نلسون أو تشرشل!.

وهكذا.. لا يمر يوم إلا والحديث يزداد عن المراهقين. وكل مراهق ومراهقة يعتبر نفسه اليوم شيئاً له خطره ومعه حق. وكل ساعة يزدادون دلالاً بعد أن يزداد أولياء الأمر لهم تدليلاً.

لقد أفلت الزمام تماماً، والمراهقة في بلاد تولى الشمس عنها شيئاً فشيئاً ففقدت بذلك ما يشغل شبابها الغض، وفي بلاد سيطرت الآلة تقريباً على الحياة فيها فلم تترك لهذا الشباب ما يفعله ووفرت له الوقت والمال والفراغ. . أمر له خطره الكبير.

وحينما أرى هذه المجاميع الهائلة الهائجة المستنزفة لكل قطرة من حياتها المنغمسة في تقاليع وتفاهات وضجيج لا نهاية له أتساءل عن مصير أوروبا القريب كله. . وهؤلاء قادتها ورجال مستقبلها. وأحياناً أراجع نفسي: ربما أكون مخطئاً. . وربما تمنيت لو عدت مراهقاً من جديد. .

و. . مسكينة دكتاتورية البروليتاريا. . فقد انهتها تماماً دكتاتورية التين إيجرز!

رينقو.. جاه وليد!

بالبنط العريض.. وقبل أخبار الصراع بين الهند والباكستان وقضية الإسترليني وإضراب العمال والموظفين.. نشرت صحف لندن الخبر المدهش العجيب: (رينقو جاه وليد!). وعشرات الصور والتحقيقات والبرقيات وملاحق للصحف تشرح كل كبيرة وصغيرة في هذه المعجزة المذهلة.. ابتداء من الدكتور حامل لقب «سير» الذي استقبل «زاك»، وهذا اسمه، حتى نوع قماش قماطه السعيد...

لا ريب أنك عرفت الآن من هو زاك رينقو هذا، ولا شك أنك أدركت سر هذه الضجة الصاخبة حوله.. إنه، بسلامته، ابن أشهر أعضاء فرقة الخنافس الأربعة.. ضارب الطبل رينقو العظيم..

بعقليتي الشرقية الساذجة كنت أقرأ ما تسطره أقلام أشهر الكتاب هنا حول هذا الحدث الفريد. وأستغرب وأهز رأسي يميناً وشمالاً وأنا أمصمص بشفتي استهجاناً لهذه الاهتمامات المنحرفة. ما للناس

وما لطفل ولد كغيره من ملايين الأطفال؟ ما ذنبهم أن يشغلوا وقتهم بالحديث عن آلام ولادته وشعور أبيه، والبرقيات التي انهالت من القارات الخمس والبحار السبعة؟.

وأتفلسف قليلاً: لم يكون «زاك» العجيب وحده المحظوظ المحاط بهالة من الاهتمام ولا يكون طفل آخر ولد في نفس اللحظة في شنغهاي أو تاورغاء؟

ولم تجبرني الصحافة اللندنية، بطريق مباشر أو غير مباشر، على أن أعرف دقائق أسرار حياة هذا (البيتل) الجديد منذ أول يوم رأى فيه النور ولي من الاهتمامات ما يفوق كل هذا بكثير؟

بعقليتي الشرقية كنت أفكر.. وهي عقلية تختلف شئناً أم أبينا كل الاختلاف عن عقلية أهل الغرب وآل سكسون بوجه خاص..

فالعقلية الإنجليزية ـ رغم ما تبدو عليه من محافظة وتزمت ـ عقلية عملية واقعية لا ترى مانعاً في أن يتنازل اللورد عن كبريائه ليرافق الخنفوس في كل ما يأتيه. بل يرى واجباً أن تهدي الملكة لهذا الخنفوس وسام الـ «م.ب.إ» أو وسام عضوية الامبراطورية البريطانية... نفس الوسام الذي حصل عليه الفيلد مارشال لورد مونتغمرى..

ولقد كسبت بريطانيا من الخنافس كثيراً..

كسبت منهم معنوياً حين انتشرت أغانيهم وقصة شعرهم الشهيرة في كل أنحاء العالم، ما عدا ذوي الشعر المفلقل أو المجعد مثلي

وهم لذا ساخطون. وسيطرت الموضة الإنجليزية طويلاً على اهتمام الدنيا وعنايتها.

وكسبت مادياً بهذه الملايين التي جاءوا بها من أمريكا وغير أمريكا ليسندوا ظهر الاسترليني المترنح..

من هنا كانت «الديلي ميل» لا تجد غضاضة في أن تنشر على صدر صفحتها الأولى: عاد الأبطال من جولة النصر... ومليون جنيه!

وترحب «السنداي تايمز» و«الديلي ميرور» و«الإيفننخ نيوز» وغيرها من الجرائد ذات الطبعات الثلاث في اليوم الواحد.. بنشر أي شيء وكل شيء يتعلق بالخنافس الأمجاد. ذلك لأنها تدرك مدى أهميتهم للدولة.. ومدى اهتمام بعض الفئات بهم.. وتدرك أنه أصبح واجباً وطنياً تحتمه طبيعة الإخلاص للوطن أن توسع دائرة الدعاية لهم باستمرار.. بالخبر والمقال والتحقيق والصورة والكاريكاتير. ومنذ اليوم الأول لوصول «زاك» والدنيا قائمة على قدم وساق.

وعندما سئل رينقو عن رأيه في ابنه هتف: رائع.. رائع. لكن له الله. إن أنفه في ضخامة أنفي.. فليرحمه الرب!. ما رأيك أنت أيها القارىء؟

أليس كل هذا رائعاً؟!..

عندما تفكر جيني

حلوة، هادئة.. حركتها بحساب وكلماتها بقدر، وكل شيء بالملي والجرام.. إنجليزية من قمة رأسها حتى أخمص قدميها.. جيني جيمس تلك..

وصديقتها معها.. كندية تفور بالحيوية والحركة والنشاط، تقفز في خفة العصفور لترقص في جنون زوربا، ولثغة في حرف السين تزيدها دلالاً ودلعاً. تلك كاتي هولمز. صديقتان متلازمتان حميمتان، وإن كانتا على طرفي نقيض في الطبائع، متشابهتين جمالاً وطرفاً.

اجتمعنا مع صديقين ليبيين على مائدة العشاء، وجلسنا نحن الخمسة نتجاذب أطراف الحديث ـ كما يقولون ـ ونطرق شتى الموضوعات.

قال أحد الصديقين: ماذا تظنون الحياة؟

قالت جيني: عمل، لهو، وحب، ونوم.

قلت: أو تعملين؟

قالت: نعم. أمينة سر لإحدى الشركات، وصديقتي كاتي أيضاً، ونحن نعيش مع ثلاث بنات أخريات كلهن يعملن. فبلا عمل أيها الصديق لا يمكن أن نعيش.

قال الصديق الثاني: واللهو؟ ماذا عنه؟

قالت كاتي: إنه متعة الحياة. أن تلهو، ترقص، تغني، تقفز، تتحرك.. هذا كله يدفع في النفس والجسم دفقات الحيوية والنشاط.

وضربت بالشوكة على كوب أمامها مرددة إحدى أغاني الخنافس في نشوة.

ـ هل تحبين هؤلاء يا كاتي؟ قلت.

أجابت: أوه.. ومن لا يحبهم؟

ولم أجرؤ أن أبدي رأيي فيهم بصراحة.. خوفاً من النتائج.

سألت جيني: أنت حرة مادياً.. فهل هذا يعني حريتك في كل شيء؟

أجابت: طبعاً، دون أية قيود.

قال صديقي: حتى في الحب؟

قالت: هذا أهم ميدان أستمتع فيه بحريتي. الحب شيء شخصي بحت لا سلطان لأحد فيه علي. أحب من أشاء وكيف أشاء ومتى وأين أشاء. ما الحرية إذن؟

قال الصديق الماكر الآخر: إذن لا بد أن يكون لك «بوي فرند»؟

قالت كاتي منقذة صديقتها من موقفها: أعتقد أن «البوي فرند» ضروري في كل بلد الآن.

لم يعلق الصديق بشيء فهي لا تعلم كثيراً عن بلاد الناس الآخرين.

قلت: أنت تعملين يا جيني، فهل تساعدين أسرتك؟

أجابت: نعم أساعدهم أحياناً، إنني أزورهم وأشتري لهم زهوراً..

ضحكنا نحن الليبيين الثلاثة لهذه المساعدة العطرة.

قالت كاتي: إننا نعيش في لندن وهي باهظة التكاليف وليس باستطاعتنا أن نمد أهلنا بالمال، ألا يكفي أننا لا نكلفهم شيئاً؟

دار الحديث دورته ووصلنا إلى السياسة.

كان مذيع الأخبار يتحدث عن مشكلة روديسيا وسألت:

ـ ما قضية الزنوج في رأيكما؟

أما جيني الإنجليزية فقد هاجمت بشدة التفرقة العنصرية وهاجمت حكومتها لموقفها المتخاذل في روديسيا. وأما كاتي فقالت: إن السود بشر مثلنا لكنهم لم يبلغوا مرحلة النضج بعد.

حاول صديقي أن يشرح معنى الإنسانية وتكافؤ الفرص

والظروف الاجتماعية والحضارية، كانت تهز رأسها الصغير موافقة بلا اقتناع.

قال الصديق الآخر: ماذا عن قضية فلسطين؟

سألت جيني: ما معنى «فلسطين» أولاً.. أهي بلد أم شعب؟

تعجبت وشرحت: إنها الأرض المقدسة.. أرض عيسى والإنجيل.

قالت: آه فهمت، تعني «إسرائيل»؟

وغمغمت في ألم وسعيت جهدي أن أبين معنى اغتصاب اليهود لفلسطين، وهدف الصهيونية العالمية البعيد، وخطرها، وقضية اللاجئين، والدعاية الصهيونية.

وعندما بح صوتي أشفقت علي فقالت:

آسفة. لم أكن أعرف شيئاً عن هذا كله. إن دعايتكم ضعيفة، بل منعدمة. إنكم أكثر عدداً وأكبر مساحة وأغنى من اليهود.

قلت: صدقت ونحن المقصرون.

كان جهاز التلفزة يذيع أغاني صاخبة وبعض الفتيان والفتيات يرقصون ويطوحون بأيديهم ذات اليمين وذات الشمال.

قال أحد الصديقين: هل تستطيعون التفريق بين الجنسين هنا؟ شعور طويلة ولباس ضيق وخصور نحيلة وأجفان مسبلة، إن هؤلاء المراهقين مشكلة اجتماعية خطيرة.

اعتذرت جيني قائلة: لكل جيل مشكلاته، وستنتهي هذه الظاهرة حتماً.

قال صاحبي: أتودين أن تتزوجي واحداً من هؤلاء المغنين المخنثين؟

قالت: إنني أسمعهم وأشاهدهم وأعجب بهم فحسب، أما الزواج فلا. أنا أفضل الرجل قوي الشخصية، المحترم، المهندم، ولا أريده من أشباه الرجال هؤلاء.

هزت كاتي رأسها موافقة وهي تبتسم، ووضعت جيني سبابتها بين أسنانها تعضها في حيرة. أشفقت على رأسها الصغير من ضنك التفكير وتعبه وشعرت أن الحديث ينبغي أن ينتهي عند هذا الحد.. فقد قالت إن الصداع ينتابها غالباً... عندما تفكر!



الفصل الثالث

من الإسلام وعنه

«ياتي زمان على أمتي يكون القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر»

حديث شريف

العرب.. وأفريقيا.. والإسلام

في عام 1960 عاد المبشر الإنجيلي الأمريكي المعروف «بيلي غراهام» إلى بلاده بعد رحلة طوف فيها بمختلف البلاد الأفريقية جنوب الصحراء. كان الهلع يملأ نفسه، وهو يعلن صارخاً: «أيها المسيحيون! إن الإسلام يغزو أفريقيا وهو سيطويها عما قريب».

ولقد جلجلت صرخته في أنحاء العالم الغربي، وكان إنذاره ذا صدى كبير. وعلق مصدر كاثوليكي بحرقة: «على البعثات التبشيرية في أفريقيا أن تبذل قصارى الجهد لتقدير موقف الإسلام هناك ومتابعته. إن الوقائع تتكلم بنفسها ويجب أن لا نقف مكتوفي الأيدي!». ويظهر أن المتابعة كانت على أوسع نطاق.

إن العداء التقليدي بين البروتستانت والكاثوليك لم يمنع الفريقين من العمل معاً في مواجهة السلام، بل إن الجهود توحدت منذ سنين لمقاومة انتشار الإسلام داخل القارة في المناطق السوداء بعد أن شمل النطاق الشمالي والسواحل الشرقية والغربية من القارة البكر.

في كتابه المعنون باسم (دور العرب في أفريقيا) الذي أصدرته

دار «بنغوين» بسط المستعرب الصحفي ـ جاك بولان ـ قضية العرب والإسلام بسطاً من وجهة نظره الخاصة. لكنه أورد كثيراً من النقاط المهمة الجديرة بالتأمل والنظر. وكان في حديثه عن العرب يقرنهم بالإسلام رسالة وحضارة، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، بل سياسة واقتصاداً. وعندما أورد إنذار بيلي غراهام تساءل: هل صحيح أن الإسلام يهدد أفريقيا؟ وأن الحقائق تنطق بنفسها؟

إن بعض التقديرات تظهر مدى التعمق الذي يحققه الإسلام في أفريقيا هذه الأيام، وتبين أن موجة إسلامية جديدة تشبه تلك التي كانت في القرن السابع الميلادي تعم الآن أفريقيا وتشملها.

فمقابل أربعة غير مسلمين يوجد مسلم واحد، أو هو واحد في مقابل ثلاثة أو لنقل أن هناك 80 أو 90 مليون مسلم من مجموع 275 مليون أفريقي عام 1960م ولم يكن معدل السكان المسلمين قد بلغ على مدى التاريخ ما بلغه اليوم وإن من المنتظر أن يصبح المسلمون نصف السكان في 1980م.

ويتابع جاك بولان تقديره لموقف الإسلام في أفريقيا من حيث استجابة الوثنيين له فيرى أنه في مقابل كل أفريقي يعتنق المسيحية يوجد عشرة يتبعون الإسلام. وقد تضاعف عدد المسلمين في العقد الأخير من هذا القرن من 40 مليوناً إلى 80 مليون مسلم مما بعث الدهشة والعجب في نفوس المراقبية وأصحاب الشأن.

وكان التطور السريع الذي حققه الإسلام مثار خيبة أمل كبيرة للمبشرين. فلقد استطاع هذا الدين أن يحقق انتصارات عديدة رغم

ما يلاقيه من حرب مستمرة وما يواجهه من صعوبات سياسية واقتصادية وحضارية.

في مالي، يقول جاك بولان، ازداد عدد المسلمين ضعفين عما كان عليه منذ خمس عشرة سنة في سبع مناطق كانت وثنية تماماً. وقد شكا الفاتيكان من أن حكومة مالي تفضل انتشار الإسلام وتعرقل حركات المبشرين الكاثوليك!

ولوحظت الظاهرة نفسها في السنغال. ففي قرية كانت لا تطأها قدم مسلم منذ مدة يتحسر المبشر «ف. مونتي» لأنها صارت مسلمة تماماً ولم تفلح جهوده وجهود زملائه في تعميد أهاليها أبداً.

في السودان وأوغندا، وتنغانيقا، وكينيا والصومال وزنجبار. وفي كل بقعة تقريباً من أفريقيا يكسب الإسلام أرضاً جديدة ويتبعه أتباع جدد.

ورغم ما تنفقه دوائر التبشير العلنية والسرية من أموال طائلة وما تسخره من أدوات في هذا السبيل، ورغم حملات الضغط والسيطرة السياسية والاقتصادية والفكرية، إلا أن الإسلام لا زال يتقدم باستمرارية تبعث الرعب في قلوب أعدائه.

فما هو السر يا ترى في هذا الموقف.. أو ليس من واجبنا كمسلمين أن نحاول معرفة ما يدور وما يقابله الإسلام من عقبات، وأن نذلل في وجهه الصعاب ونؤدي رسالتنا ورسالة الله؟

* * *

لأقل منذ البداية إنه لا يمكن الفصل بين لفظي الغرب والعالم المسيحي وعلى هذا الأساس فإن الفصل بين العرب والإسلام يبدو أمراً متعسفاً ومشبوهاً في الوقت نفسه.

فلقد كان العرب ـ ويجب أن يظلوا ـ حملة رسالة الإسلام إلى العالم، وبهذا انتفت عنهم الصفة العرقية وأصبحت الصفة الروحية والعقيدية ملازمة لهم. ونحن هنا في المغرب وفي أفريقيا ـ كما يقول جاك بولان ـ نعني المفهومين حين ننطق بأي اللفظين. فإذا ما فرقنا بينهما كانت الطامة الكبرى حين تتشكل القوميات الصغيرة تنبثق النعرات العصبية والقبلية، ويكون ما حدث في الشرق من صراع لا زالت آثاره ظاهرة حتى هذه اللحظة.

وما دام الإسلام رسالة جاء بها من ربه محمد عليه الصلاة والسلام، وحملها عرب الجزيرة لينشروها رسالة عالمية، فإن ما يخالف هذا المفهوم من معان ينبغي أن ينتفي وأن يكون المدلول الديني وحده هو الدافع للعمل في سبيل الله والأخوة الإنسانية. ولا يترتب على هذا القول منع ما قد ينتج عن نشر الإسلام من تبادل المنافع الاقتصادية والسياسية في نطاق الأخوة والتضامن الإسلاميين.

ولقد حاول الاستعمار الغربي ـ وهو تعبير مستحدث يعني بالضبط الصليبية الحاقدة ـ أن يشوه صورة الإسلام والمسلمين أبشع تصوير، وأن يحدث من الفجوات بين الأفارقة السود والأفارقة السمر ما يحقق به أهدافه القريبة والبعيدة على حد سواء.

أظهر الغرب العرب باعتبارهم تجار رقيق قساة القلوب وأنهم مصاصو ثروات أفريقيا وأن أهدافهم التوسعية وأطماعهم التجارية هي التي تدفعهم للتعمق في أفريقيا وهداية وثنييها، إلى آخر الصور البشعة عن العرب.

وكثيراً ما يتناسى صحفيو الغرب وكتابه قوافل العبيد التي ساقوها إلى أمريكا والعذاب الذي صبوه على الزنوج المكبلين بالأغلال في السفن التي كانت تمخر المحيط تنقل خدام المزارع في فرجينيا وتنقل معها الألم والشقاء.. ولعل نظرة واحدة إلى المجتمع الأميركي اليوم تبين مدى ما كان وما هو كائن. ولن نتحدث في مجال الرد الآن على الأكاذيب الغربية عن أطماع أوروبا وشهوتها للثروات الأفريقية التي لا تزال تمعن في استغلالها.. وليس العرب هم الذين يبعثون بالمرتزقة في حين يرسلون بعثات التبشير.. لكن ما يدهش أوروبا المسيحية ـ كما ورد في صدر هذا المقال ـ هو اندفاع الأفريقيين السود على وجه الخصوص إلى اعتناق الإسلام. وقد حاول كتابها تبرير هذا الإقبال بمعاذير شتى. قالوا مثلاً: إن الإسلام دين بدائي ولا يمنع الزواج بأكثر من واحدة وإنه سهل العبادات.. إلى آخر هذا النمط من اللغو في القول. لكن ما تنساه أوروبا أن الإسلام دين الفطرة لبساطته ونقائه وأن المسيحية بلغت من التعقيد على أيدي البابوات ومجامع الأكليروس حداً جعل كثيراً من أهلها أنفسهم يتخلون عنها إلى الالحاد. وتنسى أيضاً أن الأفريقي أحس بما يبيته له الرجل الأبيض من نوايا الخيانة والغدر ومن سلب

الثروات، فنأى بجانبه عنه وعن دينه الذي اصطبغ بالصبغة الأوروبية في عباداته وصوره وشرائعه.

لكن الإسلام تميز بالمعاني الإنسانية الكريمة الداعية إلى المساواة وشجب التفرقة العنصرية، والأخذ بيد الإنسان في طريقه لمعرفة الله وحقوقه وواجباته. فكان الاختلاف الجوهري بين المسيحية والإسلام ـ سواء من حيث المنهج أو من حيث التطبيق ـ سبباً مهمّاً في تقبل الأفارقة للإسلام واقبالهم عليه.

* * *

غير أننا يجب ألا نتكل على ديناميكية الإسلام الذاتية وحدها، ونبقى نحن مكتوفي الأيدي أمام صراع تتحدد فيه صورة العالم الإسلامي وتتبلور في زمن تتجاذبه التيارات والاتجاهات.

وإذا كانت استجابة أفريقيا للإسلام شيئاً رائعاً إلا أن هذه الاستجابة يجب أن تقابل بالاهتمام الأكبر وتنال النصيب الأوفر من الرعاية والانتباه.

ولعل المرء لا يعجب حين يرى الغرب يتخذ من كل سبيل شرير مسلكاً للوقيعة والتفرقة، ومغمزاً يضرب به ضربته. ومن هذا القبيل كانت هذه النغمة التي بتنا نسمعها حين الحديث عن أفريقيا ما فوق الصحراء، وأفريقيا ما تحتها. عن أفريقيا البيضاء وأفريقيا السوداء، وعن الصراع المرتقب بين الأفريقيتين.

وفي كتابه (بين النيل والنيجر) يتحدث المؤرخ البريطاني

أرنولدتوينبي عن هذا الصراع، ويكاد يجزم به. . فرحاً مسروراً.

وإذا كانت كتابات توينبي ودراساته التاريخية والحضارية ومواقفه من بعض قضايانا المهمة تحظى بالثناء والتقدير فإن هذه النبوءة لم تكن صادرة عن طيب نفس وحسن قصد، ذلك لأن الحديث عن مثل هذه الموضوعات واضح التوقيع وبيّن النوايا. وهو كلام نشر في جريدة «الأوبزرفر» البريطانية ثم صدر في كتاب يتحدث عن رحلة توينبي لبعض بلدان أفريقيا ـ ومن جملتها ليبيا.

وليس من حق توينبي أن يفرح ويسعد بهذا الصراع لأسباب: أولها أن الصراع سيكون ضد الرجل الأبيض مطلقاً، والأوروبيون أولى بالصراع ضدهم ما دام الصراع على أساس اللون لأنهم أكثر بياضاً من أهل شمال القارة. وثانيها أن أهل النطاق الشمالي ـ وإن كانوا في مجملهم عرباً ـ يشتركون في خصائص كثيرة مع أهل الجنوب، ومنهم السمر الشديدو الإسمرار.

وثالثها أن انتشار الإسلام ـ كدين شامل رابط بين الجميع ـ سيمنع تحقق هذه النبوءة ويقبرها.

وأنا أؤكد على النقطة الأخيرة بالذات. ذلك لأن الدين أهم رابط يمكن أن يوجد؛ إذ ليس كالاشتراك في عقيدة واحدة سبيل للوحدة والتضامن في السراء والضراء على حد سواء. ولعل الأحداث الأخيرة في منطقة الشرق الأوسط تبرهن بحقائق لا تقبل

الطعن على صدق هذا المذهب وقدرته على الصمود، وهنا يأتي دور العرب الحقيقي في أفريقيا.

* * *

وليسمح لي القارىء الآن أن أحيله إلى كتاب مهم في هذا الموضوع أرجو أن يقرأ طبعته السابعة التي تصدر قريباً إن لم يجد نسخة من الطبعات الست الماضيات. هذا الكتاب هو (التبشير والاستعمار في العالم العربي) للأستاذين الدكتور عمر فروخ والدكتور مصطفى الخالدي، فهو يغطي جانباً كبيراً مما أريد أن أقول.

إن واجب العرب أبداً التعاون مع الأخوة المسلمين في قارة أفريقيا لتأييد انتشار الإسلام، ولكسب اتباع له كل يوم. لا على أساس التوسع الاستعماري أو تحقيق المنافع المادية، بل على أساس الرسالة المحمدية الخالدة. . رسالة الهداية والحق والخير.

ولعل المراكز الإسلامية الكبرى في القارة تستطيع أن تدرك عظم المسؤولية الملقاة على عاتقها وتحقق تعاوناً أكبر فيما بينها لمواجهة الأخطار المحدقة بالإسلام في أفريقيا.

حتى ترتفع الغشاوة

تساءلت كاتبة لبنانية في إحدى المجلات الأسبوعية: من يفك الحصار؟ . .

وكانت تبدو شديدة الحيرة وهي تحلل أسباب «النكسة» وتجرد قلمها لتتبع علة المأساة وتفلسف القضية على هواها الخاص. ثم استخلصت في مقال تال لها ـ ولتنحبس الأنفاس دهشة وعجباً ـ أن سبب البلية هو أم كلثوم!

هذا نمط من التفكير الذي يتبعه المثقفون العرب والمسلمون، وهو نمط موجه ومخطط له بدقة وحرص مذهلين، الغاية منه صرف الأنظار وأغراقنا في جدل سفسطائي عقيم ودفعنا إلى دوامة الفكر المشوش، حتى لا تقال الحقيقة ويرفع عن الخبايا الستار.

ولقد ذكرت في مقال سابق أن قضية العرب مرتبطة كل الارتباط بقضية الإسلام، وأن الفصل بينهما أمر مستحيل ومدمر في الوقت نفسه. ومن أعجب العجب أن يتهم كل من يتصدى لمعالجة هذه

المسألة وإبداء الرأي فيها بصراحة ووضوح بأنه رجعي متزمت أو أنه ينتمي لحزب دقماطي متصلب وأنه يحارب الفكرة القومية ويدعو دعوات دينية متعصبة لا تماشي العصر الحديث أو هي ضد التقدمية والمدنية والحضارة.

وإني هنا لأصدر حكمي عن واقع أعيشه وأراه، وأحب أن أنبه الأذهان إلى خطر قائم ربما لم يدركه الكثيرون بعد. ذلك أن أوروبا المسيحية لم تفصل قط بين حربها المستمرة على الإسلام وبين غرس الأفكار المضللة، وأن تصور للأجيال الصاعدة أن العصر عصر قوميات وأن الصراع الديني قد انتهى إلى غير رجعة بانتهاء الحروب الصليبية. وقد وقر في الأذهان أن الدين أمر ثانوي بين العبد وربه وأن الحياة العصرية تحتم النقاش في مسائل أخرى «عصرية كالاشتراكية والعلمانية والتقدمية وما يتبعها في مجالات الأدب والفن والسياسة والاقتصاد. وبهذا حكم على الذين يناقشون القضايا من زواياها الدينية بالرجعية والتأخر وعدم مسايرة العصر. غير أن هذه الخدعة كشفت والحمد لله وتبين أن الروح الصليبية لم تفارق أوروبا أبداً، وأنها كانت تعمل باستمرار بوحي من هذه الروح ودافع ديني مستتر.

وأذكر أن القائد الفرنسي «غورو» عندما احتل بجيشه سوريا زار قبر صلاح الدين ووضع قدمه عليه وقال: الآن انتهت يا صلاح الدين الحروب الصليبية!

وكان الشباب الإيطالي ينشد وهو يستعد لركوب السفن في طريقه إلى بلادي ليبيا:

«أنا ذاهب إلى طرابلس..

فرحاً مسروراً

لأبذل دمي

في سبيل سحق الأمة الملعونة.

ولأحارب الديانة الإسلامية..

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن».

وكان هذا عام 1911 للميلاد.. في القرن العشرين الذي نحياه.

هذه المقدمة ضرورية لاستكمال الموضوع الذي طرقته من قبل. وربما كان من الضرورة القصوى لو استطعت الشرح والتفصيل لتنبيه أذهان الجيل الصاعد إلى حقيقة الصراع الذي سيتعرض له في مستقبل الأيام. ذلك أنه من العار حقاً أن يبلغ الأمر هذا المبلغ وأن يصبح المدافع عن دينه وحضارته رجعياً ومتأخراً وأن يصير منمق الكلم الفاحش فناناً، وأن يتوجب على كل من يخوض هذا الغمار الحذر من التأويل، ولقد كان أولى بكلمة الحق أن تجلجل وأن تصمت بقية الأصوات الناعقة باسم التقدمية والطلائعية، فإن السيل قد غمر والكيل قد طفح ولا محيص من الجهر مهما كان التفسير والتأويل.

ولأعد إلى الحديث عن أفريقيا، القادرة التي تنتظر رسالتنا في لهفة وشوق، ولأرجع لأمس بعض جوانب علها تفيق النائمين وتنبه الغافلين.

وكنت قد أشرت إلى أخطار تحقيق بالإسلام في القارة، وكان لا بد من تبيان وتوضيح.

إن «جاك بولان» يبين بعض هذه الأخطار في أثناء حديثة عن القومية العربية وأفريقيا. وهو يحاول تأكيد دور بعض البلاد العربية في القارة وانعكاس الأحداث والاتجاهات الداخلية في هذا البلد على سياسته الخارجية تجاه أفريقيا بالذات.

وليس في الاستطاعة الآن الحديث بوضوح عن هذه السياسة وتحليلها. لكن أهم ما نستخلصه من كلام «جاك بولان» أن أوروبا المسيحية قد شعرت بخطر ارتباط الإسلام والعروبة وتبلورهما في أثناء التعمق في أفريقيا. وكانت الكنيسة البابوية تتعاون تعاوناً كاملاً مع المؤسسات الاقتصادية والمخططات السياسية ليقف الصليب عائقاً في سبيل الهلال. ولهذا فإن تموين البعثات التبشيرية كان يقع غالباً على كاهل شركات أوروبا وأمريكا، ويعتمد على المساعدات السياسية التي يقدمها النفوذ الأوروبي والأمريكي في البلدان الدائرة في فلكه، سواء ما كان مستعمراً أو ما يقع ضمن دائرة هذا النفوذ رغم استقلاله الظاهري.

ونحن نعلم أنه لم يكن هناك من معين للإسلام في أفريقيا إلا

الله وبعض الطرق الصوفية والأفراد المؤمنين به ورسالته، ثم قوته الديناميكية الذاتية. ولهذا فقد عانى الإسلام متاعب جمة وهو يحاول أن ينتشر في المناطق السوداء.

لقد يسر تعاون الكنيسة والدوائر الاستعمارية تغلغل المسيحية تيسيراً كبيراً. وإذاكان عدد المنصرين قد ارتفع من مليون أفريقي عام 1933 إلى واحد وعشرين مليوناً عام 1960 فإنه قد قفز في السنوات الأخيرة قفزات كبيرة، حتى لقد سجل مليونان ونصف مليون أفريقي منصر ما بين عامي 1957 ـ 59 وحدهما. ولعل هذا التطور الكبير يبين بطريقة واضحة مدى الجهود الجبارة التي يبذلها الغرب والكنيسة للتبشير ومقدار ما يدفع في هذا السبيل.

إن من نافلة الحديث القول بارتباط أهداف التبشير والاستعمار. وليس الذين يفصلون بينهما بدعوى السياسة أو الاقتصاد سوى مخدوعين أو خادعين.. وهذا أمر صار بديهياً على كل حال.

وإذا كان كتاب الغرب ـ حتى الملاحدة منهم ـ ينزعجون لأي انتصار يحققه الإسلام في القارة فإن فرحتهم بأي نكوص عن أداء الرسالة لا تعدلها فرحة. ومن هذا القبيل كان تهليل «جاك بولان» لإعلان بعض الدول الأفريقية المسلمة ـ في الشمال وغير الشمال ـ أنها دول علمانية والنص على هذه العلمانية في دساتيرها. وهو يرى أن من التقدمية أن تؤكد دولة إسلامية عدم اتخاذ الإسلام ديناً رسمياً للدولة، ويبشر قوى المسيحية بهذه الخطوة الكبرى، كما يبشرها بالقرارات التي تتخذ في بعض البلاد للتخلص من «عقدة» الإسلام

و«تحديثه» أو «مدرنته». . إن صح التعبير.

الحق أن التعصب لم يكن في يوم من الأيام من سمات الإسلام، وإن كان صفة غالبة على مسيحيي أوروبا. فإذا رأينا منهم تسامحاً ما فليس ذلك إلا لغاية بعيدة يرمون إليها أو هو أمر من قبيل التظاهر والاستهواء. ويجب أن لا تخدعنا هذه المظاهر على الإطلاق، كما يجب أن لا نخجل من الدفاع عن كياننا الديني بمعناه الواسع الشامل، وأن نحرص عليه بكل سبيل.

ومن قبيل الخديعة والغدر أن يمنع الحديث بصراحة في ما يحدث للمسلمين داخل القارة وما يلاقيه إخواننا في الدين من اضطهاد وتعذيب. فإذا كانت المصالح السياسية ذريعة للتجاهل وأغماض العين فإن موقف بعض الدول الأفريقية «الصديقة» من عدوان إسرائيل علينا ووقوفها إلى جانبها لم يبق مجالاً لهذا التجاهل وهذا الإغماض. فكيف يسكت المرء عما يحدث في الحبشة مثلاً. . أو في زنجبار، أو في السنغال؟ وكيف تبلغ بنا المهانة أن نصمت عما يلاقيه إخواننا في أرتيريا من عذاب، ثم نتغزل في أسد يهوذا وحامي النجمة السداسية؟

* * *

إن الإسراف في حسن النية والتسامح صفة اسمها الوحيد «العبط». ومن العبط أو من العبث أن لا تتحرك القوى المسلمة لحماية حقوق إخواننا في تشاد وفي الحبشة وكينيا على حدود الصومال.

وربما يقول البعض إن هذه مسألة سياسية، فمتى فصلت السياسة عن الدين؟ ومتى كانت المصالح المؤقتة مبرراً لهدر حقوق المسلمين والسكوت عما يسامونه من عذاب؟.

إن الأرتيريين يدافعون عن الإسلام حين يدافعون عن كيانهم ولذا وجب شد أزرهم بكل سبيل. تماماً كما كانت ثورة الجزائر في أساسها ثورة إسلامية ضد الوجود الصليبي هناك.

وليس من النافع في شيء أن يذاع القرآن أربعاً وعشرين ساعة من محطة ما، ثم لا يكون هناك موقف إيجابي واحد مع المسلمين.

فإذا اعترض معترض باسم «الشؤون الداخلية» للدول فإن التدخل في الكونغو وفي غينيا البرتغالية وفي روديسيا وجنوب أفريقيا مثلاً يعتبر أمراً لا مبرر له. ذلك لأن الوقوف في وجه التفرقة العنصرية ومقاومتها بكل سبيل مسألة إنسانية وضرورية، وهذا يوازي بالضبط الوقوف في وجه الاضطهاد الديني والتضييق على المسلمين في بقاع شتى من أفريقيا.

أليس الأمر واحداً أيها السادة؟

لأكن أكثر صراحة فأورد هذا السؤال:

إذا كان الانقلاب في غانا، ومقتل لومومبا مثلاً، قد أثارا كل هذا الصخب وهذه الضجة والحملة الإعلامية الواسعة، فلم لم ينل ما أصاب أحمد أوبيلو وأبا بكر تفاوة بليوة عشر معشار هذا الاهتمام؟

لقد كان أوبيلو يهدي كل عام ستين ألف نيجيري إلى الإسلام، وكان الحاج بليوة مثال المسلم الواعي المثقف. لكن قتلهما لم يثر حسرة في نفوس المسلمين. وهذا يدل على أهمية الدعاوة والإعلام والتوجيه في متابعة القضايا، وعلى خيبة وسائل الإعلام في البلاد الإسلامية وانخداعها في كثير من الأحيان. وهو يدل أيضاً على أن بعض القوى كانت تتخذ من الإسلام وسيلة سياسية لتحقيق غاياتها ولم تكن مخلصة أبداً في نصرة هذا الدين مثلما هي مخلصة في نصرة اتجاهات مذهبية خاصة.

عندما منعت حكومة السودان نشاط البعثات التبشيرية وأممت مدارسها وطردت مبشرين اثنين من بلادها ثارت ثائرة الفاتيكان وأرسل احتجاجاته، وقامت الدنيا لهذا العمل «العدواني» من قبل حكومة لم تفعل شيئاً إلا أن مارست سيادتها على أرضها بعد أن تبين لها دور المبشرين في تشجيع أهل جنوب السودان على الثورة والانفصال. وكان الفاتيكان من الهياج بحيث هدد بالإمعان في مساعدة الانفصاليين يومذاك.

لكن الفاتيكان لم يصدر صوت احتجاج واحد ضد احتلال إسرائيل للقدس أو الأعمال الإجرامية التي تقوم بها في فلسطين. ولم يعترض على تعذيب أسد يهوذا المسلمين في أرتيريا. ولم يهاجم ذبح تسعين ألف مسلم في زنجبار منذ ثلاث سنين. ألا يثير هذا الموقف شيئاً من العجب والاستغراب؟

أحسب بعد هذا ـ وهو قليل من كثير ـ أن الوقت قد حان

لارتفاع الغشاوة عن أعين المضللين. ولنعرف أن الصراع قد تبدى على حقيقته المجردة دون تزويق أو تضليل. ولا بد للشباب المسلم ـ والعربي بوجه خاص ـ أن يعي الواقع ويدرك عمق المأساة.

ولست أقول إن القضية بسيطة وهينة فهي عميقة الجذور ضاربة في الأغوار. وهي قد رتب لها وخطط منذ زمن بعيد وسيلاقي المخلصون العذاب في سبيلهم الصعب. لكن للحق فورة وللخير ثورة لهما من القوة ما ييسر الصعاب ويزيل العقبات.

وبالإيمان والعمل والجد تحقق المستحيلات في هذا الوجود.

بقيت كلمة أخيرة لا بد منها:

أنا لم أقل كل شيء، وكل ما أريد، وآمل أن يثور من بعد هذا نقاش لتستبين الطريق ويتضح ما غمض من المعالم. وترتفع الغشاوة عن الأبصار.

الواهمون: سهيل إدريس آندكومباني

الكلمات. لو تنطلق رصاصات تقتل، لو تبعث حيات تغرز الأنياب، لو تنقلب حبالاً تنعقد فتلتف حول الأعناق... لقتلت صاحبها غضباً واستنكاراً.

الفكرة بنت الكلمة، والكلمة بنت الحرف، والحرف شريف، الحرف مقدس، الحرف آلهي. لكنه وقع في أيد ملعونة فصاغوا منه سوء الأفكار.

أمام بناية «بيبلوس» الشاهقة في بيروت هدهدتنا العربة الفارهة مرتين قبل أن يوقفها الكابح وتمتد الأيدي إلى مقابض الأبواب.

خرجنا من السيارة، وقصدنا المصعد الكبير، ودلفنا إلى المطعم الأنيق، يقسم بعضنا على الآخر أن يتقدمه في الدخول وفي الخروج. كنا ستة: ثلاثة ناشرين، ومدير مجلة شهرية، والدكتور سهيل إدريس، وأنا.

كنت متحفزاً للنقاش، متوثباً للجدل، وكان أسئلة كثيرة تدور في

رأسي أحاول أن أجد لها جواباً. . أي جواب. وكانت الفرصة مواتية. هؤلاء خمسة ممن بأيديهم مقاليد الثقافة والفكر في الشرق، وأحدهم صاحب مجلة أدبية معروفة لها في أيدي القراء رواج، وله مذهبه الفكري الذي سخر مجلته ودار نشره في سبيله، وكان له تأثير بشخصه أو مجلته أو بكتبه التي ينشرها في عقل الجيل العربي الطالع وروحه. وكانت المناقشة قد بدأت بالفعل مذ كنا في طريقنا إلى الغذاء.

ـ لقد تحسن الجو اليوم. . الحمد لله!

قالها أحد الجالسين، وكانت العاصفة التي ضربت شرق البحر الأبيض المتوسط قد دمرت ساحل لبنان كله لأربعة أيام متوالية.

ـ يمكن للمرء الآن أن يصعد الجبل ويتمتع بمناظره وثلوجه.

ليس في لبنان حديث إلا عن الجبل والأرز والملاهي وأخبار الراقصات والموضة وأسعار العملة في ساحة البرج، لا يقطعه إلا حديث العاصفة التي شغلت الصحف والإذاعة والتلفاز.

ـ ليست أول عاصفة ولن تكون الأخيرة.

علق أحد الناشرين. .

ـ أصبح الشرق الأوسط منطقة زوابع دائمة.

وكانت عاصفة حرب يونيو، وعاصفة الاسترليني قد دوختا رؤوس أهل لبنان.

ـ ماذا عن رياح الفكر الآن؟

تساءلت موجهاً الحديث إلى صاحب دار النشر الكبيرة أجاب الدكتور سهيل إدريس:

ـ دوامة!

ـ وأين «الآداب» وصاحبها من هذه الدوامة؟

ـ كما ترى. سوق النشر كاسدة والمستقبل غير مضمون. .

ـ وموقفك القديم، أعني خط سير «الآداب» ودارها. . ماذا عنه؟

ـ لا جديد!

تناول أحد الجالسين رشفة من قدحه، كان النادل يجلب الأطباق.

الوجودية. . الاشتراكية. . التقدمية. . الرجعية. . الشعر المرسل. . الكافكاوية. . مئات التعبيرات والمفهومات التي قرأتها في ما تقوم بعض دور النشر بالترويج له أو مهاجمته، كانت تطن في أذني وأريد أن أستفهم وأستفسر.

بالنسبة لسهيل إدريس كانت الوجودية السارترية مذهب مجلته، وكان أغلب ما يصدر عنها يدور في هذا المجال. كان سارتر إلٰهاً يسير على قدمين في باريس ويرسل بركته إلى أزقة بيروت، لتنتشر في كل أرجاء الوطن العربي، وكانت «الآداب» وصاحبها يفخران

بهذا الانتماء السارتري المبارك. وكان جان بول سارتر قد خرج في مظاهرة ضخمة عقب العدوان الإسرائيلي يهتف لإسرائيل وانتصاراتها ويلعن العرب المتوحشين المتبربرين. أسقط في أيدي الحواريين في المشرق، وصمتوا لحظة، ثم راحوا يذيعون أن سارتر مظلوم وأن العرب فشلوا في «توعيته» بحقيقة القضية الفلسطينية، وأنهم لا يعرفون كيف يستميلون كبار المفكرين!

ـ ما موقف صاحب «الآداب» بعد موقف سارتر؟

ـ «الآداب» تفهم المبررات لموقف سارتر، ويحسب صاحبها أن الفرصة لم تتح له ليدرك الأبعاد الإنسانية لقضية العرب!!

كانت جريدة «الأهرام» القاهرية قد استضافت سارتر ومحظيته سيمون دي بوفوار في مصر، وأرتهما خيام اللاجئين رأي العين في غزة، واتصلا بالكتاب والمفكرين، وأصدرت مجلة «الهلال» عدداً خاصاً عن سارتر، وطبلت الصحف وزمرت، وزعقت الإذاعة ليل نهار، وهتف الناس ثلاثاً:

سار.. تر.. سار.. تر.. سار.. تر!!

شيء واحد نسيه الناس في القاهرة وبيروت، هو أن والدة السيد سارتر يهودية، وأن أباه مات وعمره عامان فرباه جده لأمه حتى شب ونما فكانت تربيته يهودية محضة، ونشأ عليها جسداً وروحاً، فكراً ووجداناً، قلباً وقالباً. أليس باطلاً أن نطلب من يهودي أن يؤيد العرب؟

الذين يريدون أن يفصلوا بين الشخصية والفكر واهمون والذين يعلقون الآمال على مساندة الأعداء مضللون. أما الذين يروجون لأفكارهم فهم مخادعون يجب أن ينالوا أشد العقاب.

أنا كقارىء عادي يحاول أن يفهم ويعرف ويتعلم لن تبهرني أفكار الحرية الغائمة، ولن تدوخني الحلقات المتتالية من مفاهيم الوجود والعدم والماهية، التي لا تفيد شيئاً في أمة تحتاج إلى شيئين لا غير: الإيمان والرصاص. وبعض دور النشر في بيروت ليست سوى مواخير فكرية، أو خمارات أدبية، يلجها الإنسان الواعي الصاحي أشد الصحو فيخرج منها فاقداً وعيه وصحوه تتقاذفه الجدران وتصفعه الأرصفة، يغلف رأسه دوار عنيف.

وعلى الشباب العربي وحده تقع مسؤولية الخلاص. يجب أن لا تبهره الأسماء والألقاب، وأن لا تفقده الألوان الصارخة والأصوات الزاعقة سيطرته على نفسه، ويجب أن يبحث عن مثله ومبادئه من داخله لا أن تطل عليه من خارج. وإني لأعلم عظم التبعة وأدرك صعوبة الخلاص من هذا الأخطبوط الفكري المتعدد الأذرع والأطراف لكنه يجب أن يكون مهما كان الثمن.

قلت لسهيل إدريس:

ـ لنكن صرحاء. ما فائدة المداهنة الآن وقد وقعت الواقعة؟

أليس لدينا في الإسلام كل المعاني التي تطلبونها، وكل القيم التي تدعون إليها؟. فيه الحرية وفيه العدالة الاجتماعية وفيه المثل

الأخلاقية الكريمة. فلماذا لا تتجه إليه وحده ما دام يحقق لنا كل شيء؟

قال سهيل وهو يحاول أن يزن كلماته:

ـ الحق أن الإسلام كما قلت وقد أصدرت دار «الآداب» أخيراً كتاباً عن «الاشتراكية في القرن العشرين» مؤلفه فرنسي ماركسي جديد!

قال في مقدمته إن ماركس لم يقصد الإسلام حين قال إن «الدين أفيون الشعوب». ذلك لأن الإسلام ـ بخلاف الأديان الأخرى ـ دين اشتراكي. وللدول الإسلامية أن تحقق الاشتراكية دون التخلي عن الإسلام.

لم أدهش من هذا القول فطالما تردد في الكتب والإذاعات والصحف. ولكنني لم أملك إلا أن عقبت:

ـ إذن كنتم تنتظرون كلمة أحد الغربيين في ديننا لتقرروها حقيقة واقعة! هل فقدنا الثقة بأنفسنا إلى هذا الحد؟.. وما دام الإسلام كما تقول فلم لا تسخر مجلتك ودار نشرك للدعوة إليه.. أعني لتوضيح حقيقته التي شوهت بأيدي دور النشر والتوزيع؟

عندما يصبح الفكر العربي خليطاً غريباً من الماركسية والسارترية والفرويدية (وثلاثتها يهودية النشأة والتطور والدعاة) ويصير الشاب العربي المسلم دابة ذلولا لقادة الفكر الغربي المدمر لكيانه ووجوده، فإن الطامة أكبر من أن تحتمل.

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظهرت كلمة جديدة على الأسماع هي كلمة «الرجعية» وكان القائمون بالدعوة إليها يعنون بها الرجوع إلى آثار السلف الصالح والعودة إلى منابع الإسلام الصافية وتحقيقها في العصر الحديث. كانت كلمة طيبة صالحة موحية لكن سلامة موسى وتلاميذه ما لبثوا أن حرفوها، فصار معناها التخلف والتزمت والانغلاق، تناقض التقدمية التي دعوا إليها بمختلف السبل وشتى الوسائل. وماتت كلمة «الرجعية» الطيبة وصارت سبة ولعنة يخجل المرء أن تنسب إليه وتلصق به.. ولكم خدعنا الخادعون!

ومن التقدميين قادة الفكر في بعض البلاد العربية من طبل لزميله التقدمي «الشاعر» الروسي أيفتوشينكو. وكانت صورته راقصاً وهو يلقي مقطوعاته تحتل الصفحات بالألوان، والدراسات يقوم بها الأكاديميون التقدميون، حتى بتنا نؤمن بأن هذا الأيفتوشينكو أسطورة العصر وأنه لم يخلق شاعر قبله ولا بعده. وفجأة.. انطلق الشاعر التقدمي ينشد لإسرائيل بعد عدوان 5 يونيو «أنشودة النصر». وصمت المطبلون المزمرون وفتحوا أفواههم دهشة ولم يقتلهم الخزي بعد.. لكم أظهر يونيو من خبايا الأسرار!

كان الحديث يطول ويتشعب ويدور بين الحاضرين الطاعمين.

قال صاحب دار النشر الكبيرة:

ـ أريد أن أعترف أيها السادة.. أنا عربي مسلم وأشتغل بالفكر

العربي الإسلامي نشراً وبالجامعة عملاً، ولم أقرأ حتى الآن كتاباً لمؤلف إسلامي. لكم أشعر بالعار ولكم أحب أن أتفرغ عاماً كاملاً لقراءة الغزالي على الأقل!

لم يعلق سهيل إدريس، أحسب أن «الحي اللاتيني» لم يترك فراغاً لقراءة تراثنا العربي الإسلامي، وأن كتبنا «الصفراء» كانت مثار خجل وعار!

لست أعجب ممن لا يقرأ كتب الغرب ويجهل لغتها، لكن ما يدهشني أن يكون كبار الناشرين والمشتغلين بالفكر والأدب على هذا الجهل بكتب آبائهم وأجدادهم. والحق أنها لمعضلة كبيرة حين يجد المرء نفسه مضطراً إلى ذكر أسماء أوروبية لمؤلفين أو كتب أو أن يرصع حديثه بكلمات أعجمية ليثبت أنه «مثقف» وأن له مكاناً في المجلس.

قراءة آثار الغرب ضرورية في العلم والفن والفلسفة والأدب ونحوها، لأن أهله سبقونا في هذه المضامير. لكن أيعني هذا أن نذوب هذا الذوبان المخجل وتتلاشى شخصيتنا إلى هذا الحد المقزز؟

إن شيئاً من الثقة بالنفس والاهتمام بتراثنا نحن أمر لازم لتكوين شخصية الفرد العربي ومبعث لاعتزازه بكرامته وماضيه وذاته.

وإذا ما تحدثنا عن المسؤول عن هذه «الهلامية» التي يعيشها الفكر العربي وعن افتقار أربابه للأسس المنطقية التي تحمل دعائمه،

وعن هذا التخبط الواضح في المفاهيم والمدلولات بل وفي المنطلقات، والتناقض الظاهر البين بين القول والعمل. على المستوى السياسي والأدبي والفني والفكري، لا نجد سهيل إدريس وحده، بل نلقى مجموعة من «الشركات الفكرية المساهمة» تتحمل المسؤولية وتقوم بعملية تمييع واضحة المعالم لفكر الجيل العربي المسلم الحاضر، وتخطط للمستقبل، وتمزق أوصاله وتصرفه عن الطريق الواحد المعروف وتهيء له عوامل البلبلة والتفتت والتفسخ بأوسع سبيل.

سهيل إدريس آند كومباني ـ بالتعبير الإفرنجي المحبب ـ خطر ينبغي أن ننتبه إليه ونحن نحارب في كل الجبهات.

الطابُور الخامِس الفكري
وَحركة الهدم من الدّاخِل

القضية يجب أن تتضح، وينبغي أن لا يترك الأمر دون نقاش فإن مسألة «الطابور الخامس الفكري» هذه قد بلغت من الخطر حداً كبيراً، وآن لنا أن نعي أبعادها ومراميها وندرك خباياها وأسرارها، ونسلط الأضواء على دعاتها وقادتها وتابعيها.

ولا يحسبن أحد أن حركة (الهدم من الداخل) مقصورة على طبقة بعينها أو فريق بذاته، بل هي ممتدة أذرعها الأخطبوطية في كل مجال، وتلعب أصابعها من وراء ستار كل ميدان، وتوجه كل ما يخطر - ولا يخطر - على البال من كل سبيل.

لم يكن المستشرقون وحدهم - مثلاً - هم الذين استغلوا الرداء العلمي الفضفاض للدس والطعن في القيم العربية والمبادىء الإسلامية، وحاولوا تشويه صورة الإسلام المشرقة بدءاً من نبيه عليه السلام وانتهاء بجميع ما يمكن أن يكون سدا في وجه زحف الغرب الحاقد. ولم تكن الجامعات ومعاهد التبشير ومدارس الإرساليات

والبعثات وحدها طريق التدمير المتواصل، بل لقد اتخذت الحملة الكبرى شتى السبل ومتباين المناهج لتحقيق الغاية وبلوغ الهدف.

الأسماء اللامعة البارزة، والشخصيات القلقة المهزوزة، ودور النشر المسخرة، والصحف المأجورة، والمتشاعرون من بني العرب، والإذاعة، والسينما، وكل ما يمكن أن يؤدي خدمة وأن يكون أداة.. كانت سبيلاً لتحقيق أحلام الغرب الطامع فينا على كرّ الأيام.

إننا نحيا مرحلة من أقسى ما مر على العرب والمسلمين من مراحل: هزيمة عسكرية ومحنة خلقية، وتخبط فكري، وبلبلة في الذهن لها أول ولست أدري لها من آخر. ولذا فإن أول ما يجدر التنبيه إليه هو تطهير صفوفنا من الداخل بعد أن تبين لنا العفن الذي نعيشه واتضح ما نعانيه من فساد.

ولست أدري أمة أرادت أن تقيم وجودها وتعيد بناء ذاتها لا تفكر أول ما تفكر في درء الأخطار الداخلية، والقضاء على ما ينخر في جسدها من عوامل الفساد.

فإذا أردنا أن نضرب أمثلة من الواقع الذي نعيشه ونحس به كانت لا تقع تحت حصر. نراها في جميع نواحي حياتنا العامة والخاصة، ونلمسها في شتى مجالات النشاط اليومي.

ولست راغباً في معرفة ما قد يتخذه بنو العمومة العرب من خطوات في هذا السبيل، فإن ما يبدو لا يبشر بخير، بل يدل على أن الناس لم يعودوا يهتمون بشيء ولا يدركون مدى خطورة الدوامة

التي وقعوا فيها. . بإرادتهم في كثير من الأحيان.

ولعل الظروف لا تسمح بمناقشة صريحة واضحة، فلزم إذن أن نكتفي من البحر بالوشل ـ كما يقولون ـ وأن نشير إلى القاعات الجانبية التي تدل على ما في الأعماق من أمواج. وكل أملي أن يجد الأخوة في هذا البلد ـ وأؤكد في هذا البلد ـ فسحة من الوقت للتدبر والنظر والتفكير في الحاضر والمستقبل.

* * *

ما معنى أن يخرج المسمى (سعيد عقل) في هذه الظروف السوداء الكالحة من قلعته الصليبية ليعلن دعوته إلى نبذ الحرف العربي واتخاذ الحرف اللاتيني للكتابة. وكتابة اللغة العربية بالذات؟ كأن الناس نسوا ما حل بالحرف العربي في تركيا، وفي الملايو، وفي شرق أفريقيا، وفي نيجيريا. . وأنهم حلوا جميع المشاكل، وقضوا على كل فساد ولم يبق سوى الحرف العربي يقضون عليه بعد أن أثخنه أساتذة سعيد عقل بالجراح.

ليس سعيد عقل فرداً يدعو دعوته المجنونة، أو شخصاً أعمى بصيرته الحقد فراح يخبط خبط عشواء، بل هو مجرد أداة أمرت فنفذت، وهمس في أذنه فأعلن، وطلب إليه فأذعن. سعيد عقل جزء من جهاز ضخم يخطط وينفذ و. . ينجح في بعض الأحيان.

هل يريد سعيد عقل أن يترك العرب السلاح وأن يلتفتوا إليه يتجادلون في نظريته القديمة ـ الجديدة؟

هل يبغي أن يصطرع القوم في مسألة لا تستحق مجرد النقاش لأنها في أساسها ضد الوجود العربي والإسلام، وضد مقوماته؟

هل يروم أن لا يفكر العرب الآن إلا في حروفه الملعونة، وأن يتركوا هزيمتهم النكراء يرددها التاريخ دون ثأر؟.

أسئلة كثيرة. وقد كان في الأمكان تفنيد دعوة عقل - التي لا عقل لها ولا حس ولا شعور - لولا أن الغرض من الحديث عنه كان الإشارة وليس النقاش والتفنيد. وللشباب العربي المسلم أن يعي ويفهم دعوة عقل هذا الذي يفخر بأنه لم يكتب طيلة حياته حروفاً ثلاثة متصلة هي: ع ر ب!!

* * *

في مصر تصدر مجلة قالوا إنها «تغنى بحبها الطير» - ويا للبلاغة العربية! - ولها كتاب أصناف وألوان. أسماء كثيرة يقرأها الشباب ويعجب بها. ويقلدها. ولست بسبيل الحديث عن هذه المجلة التي هي للقلوب الشابة والعقول المتحررة - وعن خلاعتها وإسفافها وميوعتها.

ولكن كاتباً فيها معروفاً مشهوراً لا بد من الإشارة إليه بصفته إحدى أدوات (الهدم الداخلي) اليوم. ذلك هو السيد محمود السعدني.

وحين يجتمع السخف وقلة الذوق والانهيار الخلقي، ويختلط بالشوارعية وتصب هذه في قالب من اللغة العامية المنحدرة أشد

الانحدار وتغلف بالغمزات الفاضحة المكشوفة، وتقدم إلى الشباب العربي المسلم في صورة مقالات تنشر تغذي عقله وفكره، فقل على هذا الشباب السلام.

السيد السعدني نموذج للصياغة الفكرية والخلقية ـ والميوعة في المبادىء والمثل. . مجرد (ارزقي) وهو الذي يشتم (الأرزقية)، ومجرد مسطول لا يعي ما يقول، ومجرد إنسان هامشي يتعيش بالسباب ويأكل لقمته بالأسفاف في اللفظ والمعنى والانحراف في الغاية والتوجيه.

ولقد صدر له جزء أول من مذكراته (الولد الشقي) وأذيع في «صوت العرب» على حلقات، ثم ها هو يكتب جزءه الثاني ويقدمه للقراء. . وفيه ما فيه.

وهو يكتب المقالات من البحرين وغير البحرين، وتقرأ فلا تحس إلا بأنه أداة لتضييع القيم وتمييع الشباب، وتفتيت بقايا الأخلاق. ثم يجد السعدني ـ أو السعدان ـ دكتوراً كبيراً وناقداً تحريراً هو عبد القادر القط يرى فيه أنه أعظم كاتب ناقد ومعترف ساخر ـ كما ورد في نقده بمجلة (روز اليوسف) ذات يوم.

محمود السعدني إحدى أدوات التمييع والتصييع والتضييع، وكان الله في عون شبابنا إذا كان هذا الكاتب مثلاً أعلى للبعض منهم. . كما رأيت وسمعت وقرأت.

* * *

هذان مثلان. . مجرد مثلين يدلان على اتجاه. نسلك ضمن الفريق الأول بعض الكتاب ـ الشعراء، ومن الفريق الآخر نماذج الكتابة التافهة السطحية السخيفة.

وسعيد عقل (شاعر) أيضاً وله ديوان بالعامية اللبنانية مطبوع بالحرف اللاتيني، وله جائزة خصصها كل شهر ـ ألف ليرة ـ لكتاب يختاره. . وهو لا يختار إلا من يدور في فلكه ويجري مجراه.

ويذكرني سعيد عقل بفرقة أخرى من الطابور الخامس الفكري. . أولئك هم دعاة الشعر المرسل الجديد المتحرر المنطلق المنعتق المنفلت.

وقد دار كثير النقاش حول هذا الموضوع وطال، وسيظل يدور. لكن موجز القول فيه: إذا كانت الشكوى من الشعر العربي العامودي لأنه يقيد حرية الشاعر وتهويماته في الملكوت، فما بال الشعر الحديث لا يتعدى التفعيلتين أو الثلاث ـ إذا تقيد بالتفعيل ـ وفي الشعر العربي التقليدي ستة عشر بحراً تصطخب بتفعيلاتها المتعددة المتغيرة. . ثم ما يتفرع عنها من بحور وأوزان؟ لم يستطع الشعر الحديث شيئاً إلا أنه سهل الطريق لأدعياء الشعر الذين لا يملكون موهبة ولا ثقافة ولا استعداداً. . ومهد الطريق لكل من هب ودب ليصبح (شاعراً) ورغم الأنوف.

وهو قدم خدمة أخرى جليلة: ذلك أنه كرّه الشباب العربي في تراثه، وجعله يحتقر ماضيه ويتشبث بأذيال المدارس الشعرية

ـ الجديدة المصطخبة بالحمر والأفاقين والمرضى والشواذ . .

وهي خدمة للجهاز ذاته كبيرة بلا ريب. فإن جل ما يطمح إليه هذا الجهاز قطع صلة العربي المسلم بتراثه والقضاء على أجمل وأحلى ما يتميز به هذا التراث.

* * *

عندما قلت في الأسبوع الماضي إن بعض دور النشر في لبنان (ماخور فكري كبير) استكبر بعض الأخوة التعبير واعترضوا. لكن نظرة واحدة إلى أكشاك الصحف والمجلات تظهر أن هذه الدور ليست ماخوراً فكرياً فحسب بل هي وكر للفساد والانحلال الفكري والفني والخلقي.

وإني لأعجب من مراقبة المطبوعات في بلادنا. أين هي وأين مراقبتها الدقيقة الحازمة؟

ولقد سعدت بقرار كان صدر عن وزارة الإعلام والثقافة يمنع المجلات الخليعة المتسترة برداء الفن والأدب. لكن هذه المجلات بدلت أسماءها ـ فيما يبدو ـ وعادت تغزو الأسواق من جديد.

الليالي الفنية . . ألف ليلة ـ تي في ـ ومائة مجلة داعرة ومجلة، يتلقفها شبابنا وشاباتنا وتدخل البيوت يقرأها المراهقون والمراهقات، والرجال والسيدات، وفيها من مظاهر التفسخ والانحلال والدعوة إلى الفساد ما يقشعر منه البدن. ثم نطلب بعد هذا خلقاً قويماً وعقلاً سليماً!! وإذا كان سعيد عقل يعمل على الافساد بين المثقفين

وخاصة القراء، والسعدني يفسخ من مبادىء الطبقة القارئة العامة، ودعاة الشعر يدمرون قواعد شعرنا بين المتطلعين إلى أن يصبحوا شعراء، ولو بالقوة، فإن مجلات بيروت الداعرة التي ذكرت، وغيرها، هي أقوى معول هدم في بنائنا الاجتماعي والخلقي والديني والنفسي.

ولكم أتمنى على السيد وزير الإعلام والثقافة أن يضرب بقوة على أيدي من يجلب هذا الشر المستطير إلى بلادنا تحقيقاً للربح الحرام وجرياً وراء الكسب، وأن يمنع استيراد هذا الفجور، ويقضي على الفسّق المنشور فوق الأوراق. تلك مكرمة لن تنسى له أبداً وتذكر ما ظل قارىء يقرأ وكاتب يكتب.

* * *

قطط على سطح من الصفيح السّاخِن!

الطابور الخامس، أوحركة الهدم من الداخل كما قلت، حركة منظمة يديرها جهاز كبير وهو في كل مظاهر الحياة يضرب بقوة وعنف، ويتسلل كثعبان سام يغرز نابيه حين تحين له الفرص. وما ذكرت سوى أمثلة، وما رمت النقاش ولكن أردت التعبير والتذكير.

ونحن هنا في ليبيا ـ والحمد لله لا زلنا نملك القدرة على تلافي الأمور، وتعديل المعوج، وإصلاح ما فسد.. لكن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، والحديث ذو شجون.

اليساريون «زعلانون»..

بل مدعو اليسارية لم يعجبهم ما كتبت منذ أيام فانبروا يرددون القولة المعهودة ويعيدون الكلام المحفوظ عن ظهر قلب. وكنت قد طلبت النقاش من أي جانب جاء ومن أي مصدر صدر. فاكتفى البعض بالحديث في الجيوب، واكتفى البعض الآخر بالنظر شزراً ساخطاً غير راض.

ولقد كنت ذكرت أيضاً أننا في فترة آن لنا فيها أن نستيقظ، وأن نمحص الأقوال، ونستشف صالحها من طالحها، وأن نتدارك الموقف قبل فوات الأوان. وإذا كان لهذه المحنة التي نعيشها من فضل فهو فضل التنبيه والتحذير والإشارة إلى مواطن الداء الذي اجتث بعض الأجزاء وكاد يعصف بالجسد كله.

وإني لأؤمن اليوم إيماناً لا يتزعزع أن ما حدث لم يكن موجهاً للعرب لأنهم عرب، بل لأنهم دعاة الإسلام الأول ولأنهم أهل رسالة عالمية ليس غير.

وقد تبين بما لا يدع مجالاً لجدال أن ما أثير في الوطن العربي من مذاهب ونشر من دعوات كان في أساسه بعداً عن روح الإسلام وتمكيناً لإعدائه من السيطرة على مقدراته. فإذا لاقى بعض هذه الدعوات تشجيعاً من شرق أو غرب فما ذلك إلا لأن الشرق والغرب يختلفان في كل شيء إلا في عدائهما لهذا الدين وأهله.

لذا فإن الحديث عن الوجود الإسلامي والحضارة الإسلامية والدافع الإسلامي ينبغي أن يكون مبدأ حديثنا في كل ما يعن لنا من أمور. في السياسة والاقتصاد والعلم والاجتماع وكل ما يعالج سبل الحياة.

وليست هذه بطبيعة الحال دعوة إلى أن يتحكم رجال الدين في تسيير دفة الأمور فما من أحد يقول بهذا قط. لا لشيء إلا لأنه ليس في الإسلام طبقة دينية خاصة أو كهنوتية متحكمة، كما هو في بقية

الديانات، وإنما الإسلام علاقة مباشرة وصادقة بين العبد وربه. وهذه هي الميزة الكبرى التي فقدها غيرنا وقاسوا من وراء هذا الفقدان الأمرين.

وأنا أعذر اليوم كل من يخالفني في الرأي، ويرى في ما أكتب رجعية وتزمتاً وما شاء من الصفات. ذلك لأنه نشأ على قراءة كتب الغرب وتاريخه ودرس الصراع المرير الذي دار بين الكنيسة ورواد التحرر الفكري، واطلع على موقف البابوات المشين من الانطلاقة العلمية في عصر النهضة، وتأثر بما قاساه العلماء والمفكرون من آلام في سبيل الخلاص من نير المجامع والكنيسة، وتألم مما صبته محاكم التفتيش من عذاب على دعاة الأفكار الجديدة، ووقوف الكنيسة إلى جانب الإقطاعيين والسادة وأمراء المقاطعات. ثم رأى كيف انتصر العلم والفكر على الكنيسة وانبهر بهذا الانتصار المجيد.

هنا انبرى هذا الجيل يحاول أن يقلد ما كان في أوروبا، ويتبع الخطى حذو النعل للنعل. والتفت ليحارب شيئاً كالكنيسة والمجالس المسكونية والإكليروس والبابا وما يحيط به من هالة الصولجان، وليدك أركان نظام كهنوتي مسيطر حاد السيطرة. فلم يجد من كل هذا شيئاً. كل ما وجده علماء على بساطة في السلوك، وفقهاء على يسر في المعاملة ونظاماً يختلف كل الاختلاف عما قرأ وسمع عنه.

وكان لا بد من شيء يحاربه ليحقق ذاته من ناحية، ولأنه وقع في أيد مغرضة من ناحية أخرى.. فلم يجد إلا الدين يشن عليه حملته ويتهمه بأنه السبب في ما كنا عليه من تأخر عن ركب الحضارة العالمي.

ومن هنا نشأت هذه الفكرة الغائمة عن الدين وعن وجوب اتصاف «المثقف» بالزندقة والالحاد ونبذه لكل مظاهر التفكير والحياة الدينيين.

وإذا كان هذا جائزاً في أوروبا بحكم ظروف تكون الدين فيها، وما ورثته عن الأجيال الماضية، فإنه لا يجوز أن يحدث في البلاد الإسلامية.

ذلك لأن الإسلام نفسه ثورة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، وهو يحمل بين طياته الكثير جداً مما يدعو إليه قادة التحرر. وهم لو اتبعوا سبيله مع التأكيد على حسن الفهم والتطبيق ـ لحققوا ما يريدون لمجتمعهم من خير وصلاح..

إن الثقافة لا تعني الانسلاخ عن الدين أو الابتعاد عنه، بل بالعكس هي تعميق للمفاهيم الدينية وتأكيد لروحها، والمثقف حقاً هو ذاك الذي يبلغ من القدرة على الفهم والتحليل حداً يجعله يدافع عن دينه، فإذا رأى عوجاً في التطبيق حمل عليه بصدق وحرارة وقوّم هذا العوج. أما التظاهر بالمذهبية غير الواعية والتفاخر بالالحاد، في نفس الوقت الذي يخالف فيه القول العمل، فهو ثقافة زائفة صدئة لا تزيد عن قراءة بضعة كتب محددة معروفة ثم الإنقياد الأعمى والاتباعية العرجاء، دونما تدبر أو تفكير وهذا ما ندعو إلى نبذه ومحاربته بشتى السبل.

ولقد رددت غير مرة أن أوروبا لم تتخل عن تفكيرها الديني قط، وقلت إن ما تدعيه من فصل الدين عن الدنيا مسألة فيها نظر.

فالحق أن كل تصرفات أوروبا ـ شرقيها وغربيها ـ منبثق عن رواسب القرون الماضية في معاداتها للإسلام والعمل على تهديمه. وإلى الذين يرون غير رأيي أسوق لهم ما أورده الدكتور زكي نجيب محمود في كتاب «أيام في أمريكا» وهو ـ للعلم ـ من أشد الدعاة غلوّاً في سبيل مذهب الفلسفة الوضعية المنطقية المادية. فهو يقول إن القوم في أمريكا يخصصون يوماً كاملاً من كل عام، وقد يمتد في بعض المناطق إلى أيام أكثر، لا حديث للناس فيه إلا للدين في المدارس والجامعات والمعاهد، والإذاعة والتلفاز وجميع مرافق الحياة. الكنائس تغص بروادها والقسس يلقون مواعظهم فيها وفي الشوارع والأطفال حديثو الولادة يعمدون يومذاك. وهم بهذا الصنيع لا يقال عنهم إنهم رجعيون أو أهل تفكير ديني ضيق الأفق. إنها أمريكا صاحبة الفلسفة البراجماتية والوضعية المنطقية.. ألا يكفي هذا؟

وحدثني صديق عاش في إحدى جامعات أمريكا مدة.. ومن حديثه علمت أنه ما من جامعة تخلو هناك من كنيسة كبرت أو صغرت تابعة لها. لها «طاقمها» الكامل وهيئتها الدينية التامة، ومكتبها وميزانيتها. وهي تصدر النشرات الدينية، وتقيم الاحتفالات وتشرف عليها، وعلى كل صغيرة وكبيرة تتصل بحياة الطلاب الدينية.

فهل وجد هذا في مدارسنا أو جامعاتنا..؟

وإذا كان هناك مظاهر للتحلل من قيود الدين بل والهزء بها

والسخرية منها في الغرب فهي ليست سوى تعبير عن السخط على ما تمارسه طبقة الكهنة من بقايا سلطان، وهو رغبة في الانعتاق من هذا السلطان والتخلص منه. ورغم هذا فلا يختلف اثنان من أهل الغرب في وجوب الاهتمام بنشر المسيحية والدعوة إليها عن طريق التبشير أو هدم الدين المخالف وهو الإسلام.

إن التبشير عملية ميسرة في المناطق غير القارئة، خاصة ما يقع تحت سيطرة الغرب ونفوذه، لكنه مسألة صعبة غاية الصعوبة بالنسبة للبلاد الإسلامية ذات الجذور الدينية العميقة. وبقدر ما نجح المبشرون في غابات أفريقيا وجزر المحيط بقدر ما فشلوا في تحويل المسلمين عن دينهم رغم ما بذلوه من جهد ومال.

ومن هنا كان لا بد أن تتغير الخطة وتتبدل، وصار الاكتفاء بزعزعة العقيدة هدفاً رئيسياً يسعون إليه، ويكتفون به عن التبديل والتحويل.

الخطة ـ وقد مضى على الشروع فيها نصف قرن أو يزيد ـ تهدف إلى خلق فراغ ديني أول ما تهدف. وهي ترى أن عملية التنصير شاقة إن لم تكن مستحيلة، ولذا فإن إزالة «الرواسب» الدينية من نفوس شباب المسلمين تعتبر مطمحاً عظيماً وأملاً كبيراً في هذا السبيل.

لكن.. كيف يتحقق هذا يا ترى؟

هنا ـ وبعد أن تأكد الأمر ـ ينبغي أن نلقي نظرة على الأساليب

المتبعة في هذا الطريق. وإن التفاتة صغيرة إلى مؤسسة علمية كبرى في الشرق ـ هي الجامعة الأمريكية بيروت ـ تشير إلى شيء من هذه الأساليب.

فلقد نشأت الجامعة الأمريكية أول ما نشأت علمية في ظاهرها تبشيرية في باطنها. وكانت اللغة العربية يومذاك هي لغة الدرس والتعليم فيها. ونمت الجامعة ـ أو الكلية ـ وكبرت ورسخت أقدامها فوق التربة العربية المسلمة. وكانت اللغة العربية لا تزال مستعملة يوم أن كانت الدعوة العربية تهب في وجه الدولة العثمانية، وكانت الطورانية التي أرث نارها دعاة حزب الاتحاد والترقي والكماليون في تركيا تزيد في حدة الثورة العربية على دولة الأتراك. ومن عجب هنا أن يذكر «جاك بولان» في كتابه «دور العرب في أفريقيا» أن أول خمسة قوميين عرب ألفوا حزباً سرياً لمناهضة الأتراك كانوا قد درسوا في الجامعة الأمريكية ببيروت!!

لكن هذه الجامعة ما لبثت ـ بعد أن زال حكم الأتراك وتقسم العرب دويلات وأقطاراً ـ أن عادت ففرضت اللغة الإنجليزية لغة تدريس فيها ونبذت العربية إلا بقايا لا تسمن ولا تغني من جوع.. ولا يزال الأمر كذلك حتى الآن..

ليس حباً في العرب إذن أن تقوم الجامعة الأمريكية بالدعوة إلى العروبة وإنما كان الأمر تخطيطاً لمرحلة معينة.. تأريثاً لنار العداوة بين العرب والأتراك.. تماماً كما يقال:

صلى وصام لأمر كان يطلبه

فإذا قضي الأمر لا صلى ولا صاما

وليس عجيباً بعد هذا أن تتبنى الجامعة المذكورة دعوة أخرى هي دعوة «الفلسفة العربية» محاربة لواقع الحال وهو الفلسفة الإسلامية. وإن تحت يدي الآن نشرة منها تظهر هذه القضية كل الأظهار.

والواقع أنه لا يوجد شيء اسمه الفلسفة العربية أبداً، ذلك لأن الأغلبية العظمى ممن تفلسف كان مسلماً غير عربي كما كانوا يكتبون أحياناً بألسنة أقوامهم أيضاً. فإذا عالجنا الأمر على أساس عرقي تبين أن عدداً لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة كان عربياً أما سواه فقد كان فارسياً أو تركياً أو غيرهما من الشعوب المسلمة.

وقس على مثال الجامعة الأمريكية عشرات بل مئات من المؤسسات والأفراد في المجال العلمي ممن يرى في الإسلام وما يدعو إليه عدوه الذي يجب أن يحارب.

وكان هناك مؤسسات أخرى اتخذت من نشر الفساد الفكري والتحلل الأخلاقي بين الشباب العربي المسلم وسيلة لزعزعة عقيدته بتزيين هذا الفساد له. وكانت الهجمات المتتالية على الإسلام في ما ينشره كتاب الغرب والترجمات المتعددة له واسطة أخرى للتشكيك وبث الريبة في الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي بل والدين الإسلامي نفسه.

ثم عمت الموجة بعد ذلك حتى بات الشاب المتدين أضحوكة أنداده ومحل السخرية والهزء، عرضة لسهام أخوانه المسلمين.. فتأمل!

وكانت الطامة أكبر حين تألب على الإسلام الشرق والغرب ـ إن كان هناك شرق وغرب ـ. وكان الامبرياليون والشيوعيون على حد سواء يرون فيه خصمهم اللدود. وكان على الشاب المسلم أن يختار إما اليسار وإما اليمين، أن يصبح ماركسياً لينينياً أو رأسمالياً غربياً استعمارياً. وكأنه ليس هناك أمر ثالث.

لقد تنوسي الإسلام وحذف من قائمة الاختيار، رغم أنه الملجأ الوحيد الذي يمكن أن نلجأ إليه.

وإذا كنت رددت مرات أن في الإسلام ـ كدين وحضارة وفكر ووجود ـ كل ما يحقق لنا التكامل النفسي والثقة بالذات ويؤدي إلى ما نبحث عنه جميعاً من صلاح، فإنني أحب أن أؤكد هذا اليوم للغاضبين. ذلك أن ظاهرة التخبط الفكري الذي نعيشه ونلمسه بأيدينا ليست إلا إحدى مظاهر العمل المتواصل لزعزعة العقيدة ونبذ الإيمان.. ليست إلا تعبيراً عن الفراغ القلبي والعقلي، والإفلاس الروحي والذهني صير شبابنا قلقاً متمزقاً تعيساً منسحقاً مهزوماً حائراً معذباً دون أن يعرف من أمر نفسه شيئاً، يرفع قدماً ويضع أخرى.. تماماً كقطة على سطح من الصفيح الساخن!!

يا ليعربِ.. يا لقحطان!!

كنت أستمع إلى محطة «الشرق الأوسط» أمس الأول، وكان المتحدث هو الأستاذ فكري أباظة، الكاتب المعروف، وكان حديثه كله لوعة وحسرة على اللغة العربية واللسان العربي، وتأنيباً لمن يكتب إليه فينصب الفاعل ويكسر المفعول ويرفع بحرف الجر الذي يجر وراءه دبابة!

كان فكري أباظة يتباكى على لسان يعرب وقحطان وينعي على شباب اليوم عِيَّ اللسان وتحريف الحروف وسوء النطق وسماجة التعبير وركاكة الأسلوب.

وهذه غيرة تحمد بلا ريب، ونخوة تشكر دون شك.. لكن بعد إيه؟! بعد خراب البصرة، وقد كان السيد فكري أباظة في مقدمة حاملي معاول الهدم؟ بعد أن ساهم هو وقادة الفكر بالمشرق في تشجيع امتهان اللغة العربية والاستهانة بها؟ بعد أن جعلوا من المجتمع اللغوي سخرية وهزؤاً ومن الشيوخ حاملي رسالة لغتنا

القومية محط الغمز واللمز والإضحاك؟

وقد ذكر فكري أباظة شباب مصر بأن عليهم أن يصلحوا من لسانهم، ويهتموا بنحو اللغة وصرفها إذا كانوا يريدون أن تظل مصر زعيمة العالم العربي، وأن تحافظ على هذه الزعامة. . على الأقل حتى يمكنهم التفاهم مع بقية مواطني الأقطار العربية الأخرى.

وكل هذا طيب وحسن، وهو دعوة مباركة تبعث على الرضا والارتياح، لو كانت تصدر فعلاً عن صدق في القول وإخلاص في النية. وبارك الله في شيخ الصحفيين في مصر وهو يتذكر أن عليه واجباً نحو لسانه ولسان أخوانه، ونحو أمته العربية الكبرى، ومقوم وجودها الأول والأخير.

لكن أعجب ما كان في حديث السيد أباظة هو أنه كان بلغة عامية مصرية، تسف أحياناً فتهبط وتجر معها السامعين إلى الهبوط!

إن قضية اللغة العربية ليست بالأمر الهين، وليست بالمسألة السهلة اليسيرة. فهي قضية القضايا، أو هي القضية الأولى بالنسبة لنا كعرب ذوي لسان واحد، ينبغي أن نحرص عليه. . إذا أردنا لوجودنا الحضاري كله استمراراً، ورمنا لوحدتنا أن تحقق.

ولست أرى أين أبدأ في هذا الحديث المتشعب الكثير المسالك والدروب، ولست أعلم كيف يمكن لامرىء أن يتناول هذا الموضوع المعقد الطويل بأكبر قدر من الإيجاز عله يبلغ رأيه ويشهد عليه الله والناس.

والحق أنه ما من لغة تعرضت للأذلال والامتهان كما تعرضت اللغة العربية، وما من لسان دفع في صدره بالسهام المسمومة كما حدث للسان العربي. ومن أسف أن يكون المهينون المذلون والضاربون الدافعون من أبنائه الناطقين به وبضاده. فإذا اعتذر معتذر عنهم وقال إنهم مسخرون بأيدي قوي أجنبية أخرى، وأنهم مخدوعون مضللون، فهو عذر أقبح من الذنب لا يجوز معه صفح ولا يمكن غفران.

وصحيح أن اللغة العربية مرت بمرحلة ضعف في أيام ركود حضاري شامل، وأن ما أصاب العقل العربي من شلل وخمود انسحب عليها ـ وهي أداة التعبير عن الأفكار ـ فسكنت حركتها وهدأت بعض الزمان، إلا أنها مع هذا ظلت أداة صالحة لمواكبة التقدم الحضاري، وكانت تحمل في ذاتها عوامل نموها وتطورها وتحافظ على كيانها المقام على أسس متينة تفردت بها بين اللغات جميعها.

وجاء الغزو الفكري الصليبي بكل ما يحمله من حقد أسود وما يعتمل في نفسه من غيظ كظيم. فكان أول ما فعل أن حاول القضاء على مقوم الوجود العربي كله.. اللغة.. مهما كلفه من ثمن.. وكانت البعثات التبشيرية والتعليمية والإرساليات تحاول بث التشكيك في قدرة العربية على مسايرة العصر الحديث بمخترعاته ونظرياته وآرائه وأفكاره ومنجزاته العلمية.

وقد نجحت الدعوة الغربية في بعض الأحيان، لكنها اصطدمت

أحياناً كثيرة بمتانة الأساس اللغوي العربي وقدرته على المقاومة والصمود. وكان لا بد من معركة بين المتمسكين بلغتهم وبين الاتباع والأذناب والتلاميذ المسخرين الموجهين. وتركز الصراع في مصر أكثر مما عداها من الأقطار.

قام البعض يدعو إلى العامية المحلية، وقام آخر ينادي بحذف الحرف العربي واستعمال الحرف اللاتيني بدلاً منه، ودعا فريق إلى إدخال الكلمات الافرنجية في اللغة حتى وإن وجد ما يقابلها حذاء النعل للنعل. وكان هذا فريق الدعاة من أمثال سلامة موسى وعبد العزيز فهمي ومن تبعهم من أمثال لويس عوض وأتباعه. وهذا أمر فصلته الدكتورة نفوسة سعيد في كتابها «الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر» وبينه الأستاذ محمود محمد شاكر في حلقات نشرت في «الرسالة» عامي 1964 ـ 1965م. وطبع جزء منها باسم «أباطيل وأسمار» ووضحه جلال كشك في كتابه «الغزو الفكري» وكتب عنه الدكتور محمد محمد حسين في أغلب ما كتب.

وقد جاء عهد ـ نتيجة لهذه الدعوات ـ كانت فيه اللغة العربية مهيضة الجناح مكسورة الخاطر، تتناوشها الأقلام، وتنهشها الألسنة وتنشب فيها الأظفار.

وأتى عليها حين كان لا ينطق بها عربية فصحى سوى الشيخ متلوف وما خلقوه من صورة ساخرة. تهزأ بعلماء الدين وأئمة اللغة. وأصبحت الروايات الهزلية تترى محشوة بمثل هذه الشخصيات تنفيراً للناس من دينهم ولغتهم، وتشجيعاً على الفسق ونبذ اللسان القومي.

وظهرت مجلات عامية تحت أسماء من مثل «البعكوكة»، وخرجت الأشرطة على الناس وسيلة أخرى من وسائل بعث العامية ونشرها، ليس داخل القطر المصري فحسب، بل وخارجه أيضاً. . ونشأ عن كل هذا بطبيعة الحال تقليد لما ظهر ونشر، وكان أن تمسك كل قطر بعاميته أو بلهجته المحلية يعض عليها بالنواجذ ويدافع عن وجودها واستمرارها. في مصر لهجة وفي ليبيا أخرى، وفي لبنان والعراق والمغرب والسودان، وأصبح ما يقوله البغدادي لا يفهمه الطرابلسي، وما يحكيه اليمني لا يعيه الدمشقي.

وكانت هذه ثمرة لعينة من ثمار الدعوة إلى العامية. وهي ثمرة طالما عمل لها أصحاب الأهداف وخططوا، وطالما استعانوا بكل سبيل في الحصول عليها.

مأساة. . بل مآس نشهدها اليوم تنال من لغتنا العربية، وتبعدها عن أن تكون لغة حياة وعيش.

أذكر أنني كنت أراجع أوراق بعض الطلبة في كلية الآداب، فأجد الخطأ الفاحش، ويقابلني الغلط المستقبح، فأعاتب الطالب فيجيب: «يا أستاذ أنا مش متخصص في العربي»!

وهل يغفر لك خطأك في لغتك القومية، وهل يغفر لك سهوك في حرف أو فعل مساعد في اللغة الإنجليزية؟

كأنما صارت اللغة شيئاً يتخصص فيه حتى يتقن، وكأنما هي ليست ركيزة حياتنا وعماد وجودنا.

يا سبحان الله!

ونعود إلى مصر.. وقد مر بها عهد حسب الناس أنه سيحقق المعجزات في كل منحى من مناحي الحياة، وكنت يومها تلميذاً بالسنة الخامسة الابتدائية، وكانت تصل إلينا مجلة للأولاد اسمها «سندباد».. كان المرحوم الأستاذ محمد سعيد العريان رئيس تحريرها والمشرف على إصدارها، وكانت تربط صبية العالم العربي من أقاصي العراق حتى أقاصي المغرب، بلغتها العربية السليمة الصحيحة وأفكارها السامية الطيبة وتوجيهاتها الهادفة المفيدة.

ثم مات «سندباد» فجأة.. غرق بسفينته وتحطمت الأحلام.

وأعقبتها صحف للأولاد لتسد الفراغ... فكانت مجلة اسمها «سمير» وأخرى تدعى «ميكي».

لغة عامية ممعنة في العامية وأفكار تافهة، وتوجيهات إلى «الكورة» وما أدراك ما الكورة، وشخصيات مستوردة أمريكية أوروبية لا تمت لنا بصلة.. هذا «بطوط» وذاك «عبقرينو» والثالث البطل «بم بم» وهلم جرا من هؤلاء الأبطال الميامين.

وانبه إلى أن «سمير» و«ميكي» مجلتان للأولاد تصدران عن «دار الهلال» ولفكري أباظة مكانته ومنزلته هناك. فهل فكر فيما سيصير عليه لسان هؤلاء الصغار وقد نشئوا على عامية وربوا على اعوجاج لسان؟..

وننظر إلى الصحف والمجلات.. هذه «أوسع المجلات

انتشاراً». . أعني مجلة «صباح الخير». . هل فيها إلا اللغة العامية والاغلاط المتعمدة الفاحشة؟ وكان بعض كتابها ـ كصلاح جاهين وعباس الاسواني ـ يكتب المقالة الطويلة الكاملة بلهجة عامية مصرية. . ولا يستحي!

وكنت في القاهرة عام 1966. وقرأت في الصحف أن الإذاعة هناك سترفض كل تمثيلية لا تكون مكتوبة بالعامية «!» ولم يرتفع صوت ليحتج، ولم يقم معترض برأي.

إن فكري أباظة ـ وأمثاله ـ يتباكون اليوم على لسان يعرب، وقد كان «المصور»، طوال أربعين عاماً أو تزيد وهو رئيس تحريره يعج بإزجاله ومواويله العامية، وتمتلىء صفحاته بالنكت والرسم الساخر العامي، ويفسح المجال لممجوج الكلم وملحون الحديث. ولا زلت أذكر «عاميات» فكري أباظة ـ وكنت صبياً ـ يكتبها في «الاثنين» بعنوان «شيء يجنن». . ثم يأتينا اليوم يتحسر ويتألم.

ولقد ركزت الحديث عما كان من أمر الدعوة إلى العامية والسخرية من الفصحى في مصر، لأن رحا المعركة دارت في أرض الكنانة، ولأن ما يخرج من مصر يكون له تأثيره العظيم خارجها، ولأننا نعتبرها رائدتنا ونتطلع إليها بأمل كبير.

وكان لي شقيق صبي يأتيني كل يوم وهو يكرر: بص. . نط. . بط. . وز. . ويكد ذهنه ليحفظ، وهو لا يفهم شيئاً مما يقرأ. . لماذا؟

لأن رجلاً اسمه عبد العزيز القوصي أراد أن يطبق ما في ذهنه ـ وقد تسنم مركزاً في معارف مصر ـ فكان هذا الغثاء المنفر من العربية وأهلها، ومن الحرف العربي ومصائبه ومن كل ما يمت للعروبة بصلة.

ألم أقل لكم إن الحديث متشعب طويل؟ فأنَّي بلملمة أطرافه؟..

فيا سيدي فكري أباظة.. لا تحزن ولا تيأس.. فهذا نتاج غرسك، وهذا بعض فضلك.

وما دام كبار الكتاب الآن أمثال لويس عوض ومحمود السعدني ومفيد فوزي وصلاح جاهين، وما دام صلاح عبد الصبور يسخر من لغتنا العربية في «مأساة حلاجة» سخرية تقطع نياط القلوب، وما دامت الإذاعات الزاعقة ليل نهار لا تهتم بلسان يعرب ولغة قحطان، فإن الله في عون اللغة العربية.. ما دام هؤلاء ليسوا من أعوانها.

ويا لعبس يا لعدنان!

«يحب أبناؤنا أن يقرأوا أشعار العرب وأقاصيصهم، ويدرسوا آثار فلاسفة العرب وفقهائهم، لا لينقضوا مقالاتهم بل ليمتلكوا لغة عربية فصيحة.

أين من يقرأ اليوم الشروح اللاتينية للكتاب المقدس، أو يدرس الأناجيل والأنبياء أو الرسل؟

واحسرتاه! لقد صار شبابنا الموهوبون يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بشغف زائد، ويكونون مكتبات هائلة، ويعتبرون الأدب المسيحي كماً مهملاً ولا قيمة له.

لقد نسوا لغتهم، وأصبح مقابل كل واحد يكتب رسالة باللاتينية إلى صديقه ألف ممن يعبرون عن أنفسهم بعربية فصيحة سلسة، وينظمون أشعاراً بهذه اللغة تبز أشعر العرب أنفسهم!».

بهذه الكلمات اليائسة الحزينة عبر «بول ألفاروس» اللاهوتي الأسباني عن أسفه وقلقه لانتشار اللغة العربية في الأندلس وما حولها

من البلاد، كما يذكر «سذرن» في كتابه «نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى».

كان الغرب يومها يتخبط في دياجيره، وكانت منائر العلم العربي الإسلامي تشع من قرطبة وغرناطة وإشبيلية وشريش، تقابل أخواتها في أرجاء الامبراطورية الإسلامية من حدود بحر الظلمات، حتى أمواج البحر الأصفر.

ويومها لم يقل أحد عن اللغة العربية أنها لغة متأخرة، أو عائقة للتقدم، أو صعبة الإعراب والاستعمال. وهي التهم التي يوجهها لها بعض أبنائها اليوم للأسف الشديد.

ألف من شباب الغرب يومها يكتب العربية، ويقرأها ويتكلمها وينظم بها شعراً، يقابلهم واحد فقط ممن يحسن لغته اللاتينية. هل الفرق بين الرقمين كبير؟

إنه 999 فقط ليس غير!

لم يكن الألف من الشباب الموهوبين هؤلاء ليجدوا عنتاً في ما يتذرع به بعض شبابنا من صعوبة الإعراب. ولا كانوا يلحنون، ولا يخطئون حديثاً وكتابة، ثم يعتذرون بعسر ضبط الفعل والفاعل ونحوهما مما يتعلل به بعض أخواننا.. دون حياء أو خجل.

وقد كان العرب يومها متمسكين بلغتهم وبحرفهم لا يطيقون غيره بديلاً، لأنه عماد وجودهم وحرف قرآنهم. وكان أبناء الغرب مضطرين إلى تعلُّمه، فوجدوا فيه سلاسة وعذوبة وسعة في

التعبير وشمولاً ودقة، وكان لساناً عربياً مبيناً غير ذي عوج. ومن هنا كان هذا الاندفاع نحوه والشغف به، وكانت شكوى القساوسة والآباء.

إن الأمة لا تقوم بغير لسان، ولا تنهض دون لغة قومية، وبمقدار ما يحترم الشعب ـ أي شعب ـ لغته القومية ويحرص عليها بمقدار ما يدل هذا على وعيه وقوته وتماسكه، ومنذ كانت الخليقة كانت اللغة. أساس وجود الأوطان وتمايز الشعوب واختلاف القوميات.

وكانت المعيار الأول لمدى استقلال الأمة ووحدتها في هذه الأرض.

ولهذا فإن أي دعوة منحرفة إلى استعمال العامية في أي مظهر من مظاهر الحياة، أو استبدال الحرف العربي بحرف آخر، هي دعوة إلى التفتت والذوبان والتلاشي والانتهاء.

لنأخذ إسرائيل ـ عدونا الأول ـ مثلاً.

لقد قامت على أشتات من البشر تجمعوا من مختلف أرجاء العالم. . من أصقاع سيبيريا إلى غابات أفريقيا، ومن أقطار العالم الجديد إلى أعماق آسيا. . من كل بقعة في هذه الدنيا. . وكانوا ينطقون لغات لا يحصرها العد. . لغات البشر كلها. ولم يكن يجمعهم لسان.

فهل اختار قوادها لغة حديثة متطورة ـ كما يزعم الزاعمون ـ

كالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، وهي لغات العلم والعصر التقني الحديث؟

هم لم يفعلوا. بل عادوا إلى لغة آبائهم وأجدادهم ـ العبرية ـ وأخرجوها من بين الأسفار، ونفضوا عنها غبار العصور، وقرروها في المدارس والمعاهد، وأجبروا قومهم على درسها والنطق بها واستعمالها في المعاملات الرسمية، وفي الإذاعة والصحف والكتب، ليعيدوا إليها الحياة.

فإذا علمنا أن اللغة العبرية بقيت مئات السنين تعتبر لغة ميتة لم تتطور ولم تسلك سبيل النمو والحياة، وأدركنا أنها لم تواكب علماً ولم تساير فلسفة ولم تستخدم في شعر أو نثر، إلا ما ندر، لعرفنا عظم العمل الذي قام به بنو إسرائيل.

ومن عجب أن قوماً يحيون لغة ميتة وآخرين يميتون لغة حية. وهذا هو التمايز الواضح الصريح.

ومن بعد ثورة مصطفى كمال أتاتورك في تركيا على آثار الإسلام ونبذه لكل ما يتصل به ومحاولته قطع الصلة بين ماضي تركيا ومستقبلها، واستبداله الحرف العربي بالحرف اللاتيني في هذا السبيل، قام دعاة في المشرق العربي ينادون بمثل فعلة أتاتورك. وتعللوا وتذرعوا وجاهدوا في هذا السبيل بقدر ما وسعهم الجهد وأمكنتهم الطاقة.

ونتلفت حولنا ونسأل مستغربين متعجبين: وماذا في الحرف

العربي من سوء؟ ألم يؤد دوره، علماً وفنا، كأفضل ما تكون الأدوار؟ ألم يقم حضارة ويشيد مدنية وينشر ثقافة ويبلغ ديناً؟.

وننظر.. ها هي الصين وها هي اليابان ـ رغم ما يكابده أبناؤهما من صعوبة الحرف ورسم الكلمة فيهما ـ لم تتخليا عنه أبداً.

ونحن نعلم استعداد اليابان لأخذ كل شيء جاء من الغرب، علماً ومعرفة وتقنية وفناً، ونقله بدقة متناهية وتقليد باهر.. لكنها لا ترخص في حرفها، لأنها تعلم قيمته في وجودها كاملة، وأهميته في ديمومتها كشعب ذي قومية.

ومن أسف أن يدعى البعض صعوبة العربية ويعدد المآخذ عليها، دون علم ولا هدى ولا كتاب منير.

عابوا عليها كثرة المترادفات ووفرتها. وكان الرد: إن هذه ميزة وليست عيباً. فللترادف وظيفته يؤديها من حيث التنويع في الأسلوب وتوضيح الفكرة. ثم إنه ليس هناك ترادف في الألفاظ أي أن يأتي اللفظان بمعنى واحد، إذ لا بد من اختلاف الألفاظ بالنسبة للقبائل العربية في الحديث عن الشيء الواحد.

فخذوا ما تبغون واتركوا ما عداه، دون تضييق ولا تعسير.

وقالوا: ما أصعب ضبط آخر الكلمات بالحروف! هذا الإعراب هو مشكلة المشاكل.

وقلنا: ألا تخجلون؟ ألا تستحون أيها الفارغون؟

أنتم تستسهلون الإنجليزية مثلاً فانظروا كيف ينقسم الفعل الواحد حسب الأزمنة وحسب الموقع.

ففي الفعل Walk مثلاً. نقول:

I walk, he walks, they walked, i have walked, she has walked, you will walk, he wil be walking... is going to, we are walking.

إلى آخر هذه التصريفات. وزد عليها استعمالات الأفعال المساعدة:

can, could. would, do,
does, did, am, are, is.

للدلالة على موقع الفعل وصاحبه وزمانه. ويا للطامة إن أخطأت في أي منها! وما شاء الله من الأفعال.

في العربية نقول: مشى، يمشي، أمش. ونضيف السين وسوف، ونسند الفعل إلى الفاعل.

وفي العربية أحفظ هذه القواعد: الفعل والفاعل والمفعول، وكان وأخواتها وإن وأخواتها وحروف الجر والجزم والنصب وأدواتها. ثم نم مطمئناً سالماً من اللحن والخطأ.

فأي صعوبة في الإعراب يا ترى وأي عسر؟!

ويدور الحديث، ويلقي بعض القوم بأبيات من الشعر ساخراً:

مكر مفر مقبل مدبر معاً

كجلمود صخر حطه السيل من عل

ويضحك هازئاً بهذا البيت الرائع البديع.

وما علم المسكين أي لوحة متعددة الألوان، متباينة الحركة، متنوعة الصور يقدمها هذا البيت الخالد الموجز، حين دفع به امرؤ القيس منذ ألف وخمسمائة عام أو نحوها في صدر الزمن ليحفظه.. وقد عاش يطاول الدهور والعصور دون أن ينال منه تعاقب الأيام.

لكن.. إذا كانت هذه الصورة الرائعة وهذه الكلمات المعبرة الموحية، حتى لنكاد نحس بقوائم الجواد الضاربة على الأرض، لا تعجب بعض قومنا، فهل معنى هذا أن نقذف بأسفار شعرنا وأدبنا ونحتقره؟

في اللغة العربية قوة في التعبير حين القوة، وفيها سلاسة حين السلاسة والرقة.

وهذا العصر الجاهلي الذي كان فيه امرؤ القيس هو الذي قال فيه الشاعر أيضاً:

ولثمتها فتنهدت   كتنهد الظبي الغرير
ودفعتها فتدافعت   مشي القطاة إلى الغدير
وتحبني وأحبها   ويحب ناقتها بعيري

وهل هناك لغة تؤدي المعاني بمثل هذه الألفاظ، القوية، الرقيقة، المعبرة في كل موطن وحين؟..

ما أعجب الزمان!

وكأنني الآن في موقف «ألفاروس» أتألم وأتحسر، لكن الموقف يختلف على كل حال.

هو يأسف لأن بني قومه نبذوا لسانهم واتخذوا العربية لساناً. وأنا آسف لأن بني قومي يتخبطون ولا يدرون ماذا يفعلون.

ولست ضد اللسان الأجنبي بحال، فإن المعرفة لا تتم ـ أو هي للأسف لا تبدأ ـ إلا به.

لكن ما أبغيه هو الدفاع عن لغتنا العربية الفصيحة، لأنها عماد وحدتنا، وأساس قوميتنا، وحرف قرآننا.

ولن نعيش أبداً بلا وحدة أو دون قومية أو بغير قرآن.

أما هذه الدعوات الشاذة إلى العامية أو ما شابهها من دعوات، فإنها ليست إلا قضاء على حمية عبس ونخوتها، وإتلافاً لشهامة عدنان وتمزيقاً لوحدتها.

بقي القول بأن على الشباب العربي أن يتنبه للأخطار، وأن يحترم لغته إذا رام أن يُحْترم ويحترمه الآخرون، وأن يقبض عليها بكل ما يملك من قوة ويحافظ على كيانها وقدسيتها وسلامتها.

وعلى المسؤولين ـ في كل بلد عربي ـ أن يسعوا لهذا جهد الطاقة وقدر الإمكان ويعملوا في سبيل تثبيت دعائم لغة قوميتنا وديننا والحفاظ عليها ما وسعهم الجهد.

واللهم قد بلغت.. اللهم فاشهد!

لعلَّ، وَأخواتها.. وبَنات العمْ

هذه هي القضية.. أن نبقى أو لا نبقى.. أن نكون أو لا نكون، ولا شيء آخر.

ولعمري إنه لامتحان قاس هذا الذي يمر به الفكر العربي اليوم، وهي «محنة» بتعبير أحكم وأدق، أو هي مجموعة من المحن والأحن التفت حول عنقه تضغط وتضغط حتى توشك أن تكتم أنفاسه، بأيد هي منه وإليه، وأيد غريبة عنه.

ما القضية؟

هذا سؤال منك جدير بالإجابة، بعد هذه المقدمة الدرامية.

وماذا تريد أن تقول؟.

وهذا سؤال كسابقه يحتاج إلى جواب. لكن واأسفاه.. ليت لي أن أحقق سؤالك بهذه البساطة وهذه السهولة.

إنها قضايا أيها القارىء الصديق أو هي قضية القضايا إن أردت

الإيجاز والاختصار. وهي تهمك بقدر ما تهمني، لأنها قضية وجودك ووجودي، أعني وجود حضارتنا وثقافتنا كعرب يحملون رسالة الإسلام العظمى ويرتبطون بها بل يمتزجون، ومن واجبهم أن يؤدوا هذه الرسالة خير أداء.

في عالم الذر الصغير الصغير، مثلما في دنيا الغابة المتوحشة، تماماً كما يفعل الجندي في ميدان المعركة.. ينذر كل قومه ويحذر إذا ما أوجس خيفة، ليهبوا قبل أن يداهموا ويؤخذوا على غرة. أحاول اليوم أن أدل على مصدر من مصادر الشر الذي يتهددنا في أعز ما تحيا به أمة وتكون ويوشك أن يكتسح قلعته ويدمرها.. أعني فكرنا العربي الإسلامي.

لكن من أين أبدأ؟..

إلى أي مكمن للخطر أشير؟.

إنها خطة، بل خطط جحيمية تلك التي دبرت بليل والشرق نائم ساكن.. حتى إذا ما كشفت إحداها وأحبطت كانت الأخرى جاهزة للتنفيذ، وسرعان ما تتولى الأيدي الإبليسية المدربة ـ لأجيال خلت وتتلو ـ العمل الدؤوب المستمر في سبيل هدم هذا الصرح الشامخ للفكر العربي الإسلامي.

ومنذ الحروب الصليبية، حينما اندحرت أوروبا المسيحية عسكرياً، بل قبل هذا بكثير، كان الأصابع الشريرة تبيت لاغتيال المزاحم الوحيد والمواجه الأول للحضارة الأوروبية، وثنِّيها

ونصرانيِّها، والذي حطم كبرياءها ووضع أنفها في الرغام. الإسلام والعرب.

جربت أوروبا كل أساليبها وأظهرت أفانينها في سبيل غايتها. ذلك لأنها تدرك بجلاء الأساس المتين للحضارة الإسلامية. وما تمثله من خطر عليها لا زال قائماً ـ كما مثله من قبل.

جندت آلاف المستشرقين، وعشرات آلاف المبشرين، وحشدت قواها الفكرية في أعظم تعبئة عرفها الفكر عبر تاريخ هذا الكوكب لتدمير أعمدة الفكر العربي والعمل على انهياره.

لكن هذا الفكر وهذه الثقافة صمدا للغزو الصليبي وصادماه.. وعرفت أوروبا مدى صلابة الثقافة العربية أمام هجومها، رغم عوامل الوهن المادي والعسكري البادية على أهلها. وهنا رأت أن تلجأ إلى أسلوب الالتفاف وتتجنب المواجهة المباشرة بأن تضرب ضربتها القاضية من الداخل بعد أن فشلت الضربات الفكرية الخارجية في أحداث الأثر السريع المطلوب.

كانت المؤامرة محبوكة الأطراف، يضمها «دثار الإنسانية» ويلفها غطاء «التعاون البشري» وعلى وجهها قناع «التحضير والتمدين». وكان ذراعاها ممدودتين، على كل جانب منهما صف من المستشرقين بذقونهم المدببة ونظاراتهم الذهبية الأنيقة وابتساماتهم المرحبة بكل «تلميذ» قادم من الشرق.

موجة من أبناء الشرق ـ منهم المسلم وغير المسلم ـ يتدافعون

أفواجاً على الحي اللاتيني وكليات السربون، وتحت أشجار الدردار في كمبردج وغير كمبردج، ويتزاحمون على أبواب جب وجيوم وماسينيون يتلقفون منهم ما يلقونه إليهم من طعم مغلفة بالمزوق الملون من «تحقيق علمي» و«درس منهجي» ليعود التلاميذ النجباء إلى بلادهم بعد حين يخبون في الأرواب الجامعية بيمناهم شهادات الدكترة، وبيسراهم ألواح الحكمة والوصايا العشر.

ويمر الزمان.. وتلقى البذور الشيطانية هنا وهناك. مجلات وصحف سيارة ودور للكتب يصدرها نصارى الشرق والمقربون من غير نصارى الشرق، تخرج على الأمة الإسلامية كل يوم برأي هادم في ثوب «كفاح هادف» ومعول ضارب بدعوى حرية الفكرة والدرس المنهجي والتحقيق العلمي. وتجد هذه المجلات من سلطات الاستعمار الحاكمة آنذاك تأييداً وتعضيداً ومؤازرة ما لها من حدود.

واستمرت اللعبة القذرة..

مضت المؤامرة تهدهدها يد الشيطان وتحوطها عناية إبليس ويفرخ أفراخ لافراخ المستشرقين. وكان الطريق ممهداً ليمرحوا ويرتعوا ويسمموا فكر الشباب العربي المسلم، ويشككوه في تراثه، يفقدوه الثقة تماماً في كل ما هو عربي ومسلم، ويوهموه بأن كل شرقي منحط وكل ما يتصل بماضيه رجعي ومتأخر ولا قيمة له، وأن الأصيل ذا القيمة الحضارية الممتازة هو هذا الفكر الغربي وحده. ونجحت الخطة واأسفاه.

أصبحت أسماء الكندي وابن الهيثم والغزالي والفارابي لا تثير سوى السخرية والتهكم وصار ترديد أسماء سارتر وهايدجر ومارسيل وإليوت وساجان دليلاً على ثقافة المرء وتقدميته وتحضره. فإذا تحدث عن العقاد أو شكرى أو مشرفة أو أرسلان أو شوقي أو الرصافي كان مهزأة يقابل بابتسامة الأشفاق.

هنا المأساة تكمن وأي مأساة.

وما درى هؤلاء اللاهثون وراء الفكر الأوروبي والأسماء التي يلوكونها في مباهاة وتفاخر والأفكار المنحرفة التي يرددونها كالببغاوات دون فهم أو تمحيص أنهم إنما يلتقطون فتات الفتات، وأن هذا التطبيل والتزمير لكل ما هو أوروبي ليس سوى جزء من الاستراتيجية الكبرى لأوروبا المسيحية والوثنية ضد حضارتنا التي بدا يشرق الفجر عليها من جديد.

وهي لعلمها بمدى القدرات الروحية والمادية الهائلة التي يحملها الفكر العربي الإسلامي إذا انطلق ـ مستعيناً بماضيه الرائع وبمدى تأثيره ـ لا على النطاق العربي الإسلامي فحسب بل على المستوى الحضاري العالمي ـ تحاول بكل جهدها أن تحطم ثقته بنفسه وثقة أهله به عن طريق قطع صلته بماضيه وامتداده إلى المستقبل من بعد. وهي تستخدم في هذا كل الطرق وأهمها بالطبع تلك الأيادي والرؤوس ذات اللباس العربي وما هي بالعربية.

صحف كثيرة أقرأها أسارع إلى الفهرس لاستطلع ما كتب، وأقرأ

عناوين للكتب عديدة لكنها تدور في فلك واحد: التحقيق العلمي للتراث العربي، دينه وتاريخه، أدبه وفلسفته، فنه وعلمه الطبيعي.. وغير ذلك كثير.

وتختلف الألفاظ وتتباين الأساليب، لكن شيئاً واحداً تتفق فيه وتتحد: هذا التشكيك الملحاح في أهمية تراثنا العربي الإسلامي ونظرة الريب الماكرة حتى إلى أهم المسائل التاريخية ذات الشأن الكبير في تاريخ الإسلام العربي، ومحاولة شيطانية للتدليل على أن الإسلام والعرب كانا عالة على الحضارات السابقة، يونانية وفارسية وهندية. كل هذا تحت ستار من «التحقيق العلمي» و«التدقيق المنهجي» و«التمحيص الأكاديمي».. وتوقيعات عربية أو هي ذات «عقال» عربي لا غير.

ويقرأ المرء ويمضي في القراءة.. حتى يصل:

«قلنا كذا أو كذا ولعل محمداً أخذ هذا عن فلان..».

رأينا كيت وكيت ولعل هذه الفكرة جاءت من الفلسفة اليونانية أو الحكمة الهندية أو الأدب الفارسي..».

«عرفنا كذا ولعل للتوراة دورها في هذا الموضوع.. ولعل للفيلسوف اليهودي فلان صلة بهذا.. ولعل، وربما، ويحتمل، ومن الممكن، ومن الجائز، ويبدو لنا، ويظهر».

وهكذا تتردد «لعل» وأخواتها التي نفق سوقها وراجت بضاعتها في حملة تشكيكية كبرى، الغاية منها بتر ما يصل المثقف العربي المسلم بتراثه العظيم.

ومن بعد «لعل» هذه وأخواتها الكثيرات الشهيرات يأتي دور بنات العم وبنات الخال والأخ والأخت وبقية الأسرة الكريمة لتصبح:

«من المؤكد أن محمداً أخذ عن كذا، ولا جدال أن ما رأينا أصله كيت، ونجزم بأن جذور المسألة تمتد إلى أصل أجنبي ولا ريب، وحقيقي، ولا شك، ونقرر، ونحكم..» إلى آخر القائمة المعروفة.

وشيئاً فشيئاً ينخلع القناع التنكري الخبيث لتظهر الوجوه الشريرة على حقيقتها، معلنة حقدها الكظيم.. إذا ما وجدت فرصة تسمح لها بالتبيان عن بغضها الأسود الكالح.

لكن رغم هذا ـ واأسفاه ـ لا زال السذج البلهاء يلهثون خلف جيمس وجورج وألكسندر، ولا زلت تسمعهم يلوكون تقيؤات سارتر وسيمون واضعين بين كل جملة وأخرى كلمة أجنبية لم يمكنهم جهلهم بلغتهم من إيرادها عربية سليمة.

والقضية ليست سهلة ولا بسيطة.

أبداً أيها القارىء الصديق.

إنها قضيتنا كلنا. مسألة وجود أو لا وجود.

أن نكون أو لا نكون..

هي قضية الفكر.. فكرنا. وإذا ما نجح العدو في اقتحام قلعته وهدمها فقل علينا السلام.

عَن رجُلِ الدّين.. والدنيا

1 ـ بروليتارية المعتزلة!

في خريف عام 1965 شاءت الصدف أن أكون في العاصمة الفرنسية وأن أشهد إحدى المعارك الكبيرة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية. ذلك أن فريقاً من الفرنسيين طالب ـ في سبيل زيادة الإنتاج ـ بأن يهجر الرهبان أديرتهم ويتركوا صوامعهم ويدخلوا المصانع والمعامل يعملون وينتجون بدل هدر قدراتهم بين كتب الصلوات وترانيم الأرغن..

وقد قامت الدنيا يومذاك ـ بين مؤيد ومعارض ـ وتركت عاصمة النور والحبور ولم أشهد للمعركة خاتمة.

كنت يومها أذكر بكل فخر واعتزاز فقيه قريتنا (الكادح) وهو يصحو فجر كل يوم ليؤم الجماعة في الصلاة، ثم ليخرج الماء من البئر ويملأ (الجابية) ويسقي الزرع، ويقصد السوق ليقضي لوازمه، ويعود للعمل من جديد..

وأذكر أنه كان يتخذ من السابقين مثلاً يحتذيه ويعرف قيمة العلم المقترن بالعمل.

وحين يرجع المرء للأسفار فإنه لا جدال واجدٌ الكثير مما يمكنه أن يقدمه للناس ويقول لهم: هاؤم اقرأوا كتاب الأسلاف، وعوا دينكم الذي به تدينون.

لنأخذ نموذجاً واحداً من النماذج الرائعة العديدة وننظر فيه. ومن يدري فلعل أحداً ممن يبحثون عن النماذج (البروليتارية) يستفيد به ليؤكد (يسارية) الإسلام، كما فعل أحمد عباس صالح مع الصحابة الأول وكما فعل صلاح عبد الصبور مع الحلاج!

فلقد كان المعتزلة علماء فقهاء أدباء أجلاء. وكانوا يقرأون الفلسفة ويشتغلون بالعلم الطبيعي ويكتبون في اللغة والفقه وهم فرسان علم الكلام.. الفلسفة الإسلامية الحقيقية.

فماذا كانت أسماء الإعلام منهم؟

كان رئيسهم واصل بن عطاء الغزال ـ من غزل الصوف ـ، وتلميذه أبو الهذيل العلاف ـ من بيع العلف ـ وتلميذه الثاني إبراهيم بن سيار النظام ـ من نظم الخرز ـ وكان منهم: أبو يعقوب الشحام وأبو بكر النقاش، وأبو الحسين الخياط، وأبو جعفر الإسكافي وهشام الفوطي.. وعشرات من الأسماء فيها الوراق والخراز والقصاب ونسبة إلى حرف لا تحصى كان يقوم بها هؤلاء

العلماء الكادحون، ولو رحت أضرب الأمثلة وأورد الاستشهادات لما انتهت عداً.

فماذا يعني هذا كله؟

إنه يعني ـ بكل بساطة ـ أن الإسلام لم يعرف الفصل بين طبقات الأمة، ولا يسمح به. وأنه لم يخصص طائفة تقوم بشؤون الدين وأخرى تهتم بأمور الدنيا، وأنه ـ في جوهره ـ مزج بين هذه وتلك مزجاً تاماً كاملاً لا غموض فيه.

2 ـ ليس من الإسلام:

لماذا نرفض تعبير (رجل الدين) وقد اعتادته الآذان واستقر في الأذهان؟

أليس هو مؤدياً للغرض عند الإشارة إلى أولئك الرجال الذين تخصصوا في علومه وأحاطوا بها علماً؟ ألسنا نجد هذا الاصطلاح ذاته عند سائر الأمم ومختلف الأديان؟

سؤال قد يطرحه القارىء على نفسه وقد يحب أن يوجهه إليَّ، والإجابة تستوجب إثارة عدة نقاط مهمة.

أولاها: أن الدعوة للعودة إلى الاصطلاح الصحيح السليم ـ شكلاً وموضوعاً ـ واجب يفرضه ما نتج عن التعبير المستجلب من لبس نحن عنه في غنى كبير.

وثانيتها: أن استقرار الأمر في الأذهان واعتياد الآذان لا يكونان مبرراً للاستمرار في الخطأ والإصرار عليه.

وثالثها: أن نكبتنا جاءت من هذا التقليد الأعمى المسرف في عماه، ولا بد من تبديل المفهومات وتغيير المدلولات في جميع المجالات. **ورابعتها** إذا رجعنا لحضارتنا امتداداً ولديننا حياة فينبغي أن نفرده بما تميز به وميز به نفسه.

فإذا كان جائزاً في أوروبا لنصرانيتها ـ وحيث انتشرت النصرانية ـ أن يميز القوم طائفة منهم تختص بأصول دينهم وفروعه، وتكون لها سمات خاصة لا يماثلها فيها غيرها، فإن هذا غير جائز في الإسلام أبداً.

للنصرانية رهبانها وأساقفتها ونظم كنائسها ومجالسها المليّة. ولليهودية ربيوها وأحبارها وحاخاماتها. وللبوذية لاماتها، كما أن للهندوكية كهنتها. لكن ليس شيء من هذا كله في الإسلام.

في هذا الدين يستوي الفلاح والحمال والطيب والأستاذ في الجامعة والبقال والموظف، ذكراً كان أحد هؤلاء أو أنثى، كلهم مسلم، وكلهم مسؤول عن إسلامه، ولا فرق بين هذا وذاك.

هذا الدين لا يميز رجلاً لأنه اهتم بمسائله وتعمق في بحثه لها على أساس اهتمامه وبحثه. لكنه يرفعه درجات لأنه من أرباب العلم.. كما يرفع درجات العالم في الكيمياء أو المتخصص في علم طبقات الأرض أو الباحث في مسائل علم النفس، لماذا؟ لأن كلا منهم «عالم» في ميدانه فهو مكرم لأنه درس وبحث.. فعلم.

لقد وضع ديننا الحنيف أصولاً رائعة ينبغي أن نسير على هدى

منها وأن لا تتعدى حدود الله. . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه. غير أن الجواب لم يتم فصولاً.

3 ـ لا رهبنة ولا كهنوت:

هذه هي إحدى القواعد الرئيسية في النظام الإسلامي، وهي ركيزة لا يستغني عنها هذا النظام، وهو بها تفرد وسما.

إن الإسلام يجعل من علاقة الإنسان بربه علاقة مباشرة لا توسط فيها ولا وسيلة. يكون ذلك في العبادات كما يكون في المعاملات. . في الصلاة والصوم ونحوهما كما في السلوك اليومي وصلة الإنسان بالإنسان، ومن هنا كانت عزة المسلم وكرامته.

ليس في الإسلام كنيسة، ولا اعتراف، ولا صكوك غفران، ولا حرمان بابوي. ليس في الإسلام رضا وسخط ـ على مستوى الأفراد والجماعات ـ اللهم إلا رضا الواحد الأحد أو غضبه. وهذه لعمري إحدى مفاخر الإسلام التي يجب أن نحرص عليها أبداً.

فإذا كان ديننا الحنيف قد ألغى الرهبانية على أساس أنها تعطيل لقوى عاملة، ومنعها لأنها تنافي الطبيعة البشرية وتضاد واقع الحياة، فإنه أكد التأكيد كله على نبذ «الازدواجية» فيه وحرم «اثنينية» عباداته، وصرف اتباعه عن فكرة «الطبقية الدينية» كل الصرف. ذلك تأكيد للمسؤولية المباشرة لا ريب فيه. وخوف من أن يحدث في الإسلام ما حدث لأديان أخرى من سيطرة طبقة واحدة من المجتمع على أذهان الناس وعقولهم وتوجيه حياة البسطاء والعامة توجيهاً يخدم

مصالح هذه الطبقة وحدها ويحكمها في مصائر الشعب ومقدراته، وهذا خطر لو تعلمون عظيم.

هذا من ناحية، وهو من ناحية أخرى ترغيب لكل مسلم في الاستزادة من المعرفة بأسرار دينه ومسائله ليكون على بينة من أمره لا يعتمد في عبادته على غيره من المسلمين ولا يتكل على سواه. وهو من جهة ثالثة أمر ـ حتى لمن كرسوا حياتهم لدراسته والتعمق فيه ـ بالسعي لكسب العيش والعمل اليومي لتوفير أسباب الحياة، حتى لا تتعطل فئة من المسلمين تكون عالة على الأمة في معاشها.

ورحم الله الصدّيق أبا بكر. لقد كان ـ وهو أمير المؤمنين ـ يقصد السوق يبيع ويشتري. وكان العلماء ـ كالحسن البصري وأبي حنيفة ومئات غيرهما ـ يعملون بالزراعة أو التجارة وهم قادة الرأي ووجوه الأمة وحملة العلم فيها.

إن حروفاً ثلاثة تكون الكلمتين الشريفتين: «العلم» و«العمل». وهذه قضية ـ في ظني ـ تحتاج إلى شيء من التفصيل. أليس كذلك؟!

4 ـ خير الكلم:

(جرى اليوم حفل بمناسبة كذا وكذا، وكان في جملة الحاضرين فلان وفلان ورجال الدين والدولة)، (حدث اليوم كيت وكيت وقد دعى رهط من رجال الدين والأعيان والوجهاء).. إلى آخر البرقيات التي تبثها وكالة الأنباء لتذاع في التاسعة والنصف، وتنشرها صحف

اليوم التالي، لتعاد إذاعتها في (أقوال الصحف) صباحاً ومساء من جديد.

فهل سأل أحد نفسه يوماً: من أين لنا برجال الدين هؤلاء؟ وهل قولنا هذا يطابق واقع الحال؟

الجواب أن هذا التعبير دخيل على لغتنا وديننا، أجنبي عن أفهامنا، مسيء لتصور إسلامنا، وأولى بنا أن ننأى عنه ونبعد ونعود إلى الاصطلاح الحق، صوناً لقيمنا من ناحية، وهو من ناحية أخرى أعزاز لحملة العلم فينا وتكريم يصرفهم عن شبهة الكهنوتية.

ما ضر لو قلنا: دعي العلماء والوجهاء؟ وما السوء في كلمة (العالم) الواضحة البينة بذاتها المدلة على فحواها؟ أم أصبحنا تابعين مقلدين لهذا الغرب حتى في ألفاظنا الدينية تتلقف منه كل شيء دونما نقد ولا تمحيص؟

فلنقرأ ما يقوله العالم بحق الأستاذ عبد الله كنون في كتابه (مفاهيم إسلامية) ولنتمعن فيه. فهو يشير إلى هذا الأمر ويبينه تبييناً، ثم يقول إن المستشرقين أنفسهم يتحرجون من استعمال عبارة (رجال الدين) عند حديثهم عن العلماء المسلمين، لأنهم يدركون مبلغ ما فيها من خطل وبعد عن جادة الصواب، بل هم يوردون كلمة (العلماء)، وليكونوا علماء حديث أو لغة أو فقه أو شريعة وما شاكلها. ذلك لأن الإسلام جعل المعرفة بكل شيء علماً، ولا فرق

في اللغة العربية بين اللفظين، بينما نجد الفارق شاسعاً بين (العالم) و(رجل الدين).

فإذا كان المستشرقون ـ وما أكثر ما طعنوا هذا الدين ـ يتبعون الحق في هذه المسألة المهمة، فما بالنا لا نفطن إلى ما نرتكب من أخطاء؟

أما بعد..

فربما رأى أحدكم غير ما أرى، وربما هون من القضية باعتبارها مسألة شكلية لا تقدم ولا تؤخر. لكنني أراها ذات شأن، وأنظر إلى ما خلفها فأجده ذا خطر أشرت إلى بعضه في ما مضى من هذا الحديث.

ولعمري إن من الكلم ما أعز وأذل، أو قطع ووصل، ولعل خيره ما قلَّ ودلّ.

المستقبلية الإسلامية.. حقيقتها وأبعادها

الضجيج يملأ الاسماع، ودقات الطبول الداوية لا تدع للكلمات الصادقة مجالاً ينصت إليها فيه، والتعبيرات المكررة والمحفوظة تنثر بلا حساب فتتلقفها الآذان غير واعية مدلولاتها تمام الوعي ولا مدركة معانيها كل الإدراك.

الحيرة. هذه هي الكلمة الوحيدة المعبرة عن واقعنا الفكري اليوم. حيرة بين تصديق ما يلقي أو تكذيب ما يحس. حيرة في اتباع رأي أو تركه واتخاذ مذهب أو نبذة. هي تبدو في هذا التذبذب المفجع في مواقف المهتمين بالفكر والتفكير، على مختلف مستوياته ومتباين أنماطه، وفي هذا القلق الفكري البالغ العنف الذي يحوط النفوس. فإذا سألت عن السر وجدته في تلك الرغبة الطبيعية في الانعتاق من القيود ـ أياً كان نوعها ـ والتطلع إلى بناء مستقبل أفضل على مستوى الفرد، والأمة معاً. ثم في ذلك التصادم ـ الطبيعي أيضاً ـ بتن الانعتاق والقيد مما يؤدي ـ حتماً ـ إلى الصراع والتحدي والعنف.

والثورة على القيد أمر مرغوب ومطلوب، فهي أصل الوجود والتطور، ومجتمع راكد مآله لا ريب إلى اندثار. وهي أيضاً مقياس حيوية المجتمعات وجدارتها بالبقاء والنمو. والصراع يولد الحركة - أو العكس - وكلاهما مؤداه التفاعل والحرارة اللازمان لاستمرار الحياة. غير أنه يحدث كثيراً الخلط بين مفهوم «الثورة» و«التحطيم». . وهنا الخطر كل الخطر.

ثلاث كلمات تهمنا من الفقرة السابقة: التطور، والنمو، والاستمرار.

وهي خلاصة هدف أي ثورة في أي مجال من المجالات، وإلا انتفت صفة الثورية عنها وإن لبست لبوسها. وهي أيضاً متصلة ببعضها كل الاتصال: فالاستمرار هو عدم فناء الشيء ومضيه وجوداً في الزمان، والنمو هو زيادة حجمه أو زيادته في المكان، ثم يكون التطور بمعنى تقدمه حساً ومعنى، أو شكلاً ومضموناً، أو ظاهراً وباطناً، بحيث لا ينفصل عن زميليه السابقين بحال.

فماذا نبغي بهذه المقدمة؟

نبغي - باختصار - أن نؤكد أن الثورة لا تتعارض مع المفهومات الثلاثة السابقة، بل هي - في الواقع - تجسيد ظاهر لها بحيث تحرك سكون المجتمع وركوده، وتزيل العوائق التي تحول بينه وبين نموه وتجتث عوامل تأخره وعدم تطوره، بحيث تصبح استمراريته

استمرارية خلاقة بناءة بعد إزالة المعوقات وإتاحة المناخ المناسب للنمو والارتقاء.

ونسأل: ماذا يعني مفهوم الثورة بالنسبة للجماهير؟

والجواب المبسط: التغيير إلى الأحسن على مختلف المستويات. ونسأل: ماذا يميز مجتمعاً عن مجتمع؟

والجواب المبسط أيضاً: قيمه، وهي تشمل جوانب الحياة وتطبع سلوك الأفراد بطابع خاص.

ونحن متفقون على أن التغيير يعني استبدال الفاسد من مستمسكات المجتمع بخير منها يعود بالنفع عليه، ومتفقون أيضاً على أن عملية التغيير من واجب الجماهير وبإرادتها ـ إذا كانت واعية ـ فإن لم تكن فبتوعيتها بحقيقة الأمر ودفعها لاحتضان الفكرة والعمل على تنفيذها لخيرها وخير المجتمع. ومتفقون ثالثاً على أن القيم الأساسية التي كونت المجتمع وشكلته ينبغي أن تعالج بأكبر قدر من الحكمة والحيطة.. لسبب بسيط هو أنها هي ركيزة بنائه وأساس نموه وتطوره واستمراره.

أنا لا أقول إن جميع القيم مقدسة مصانة، فهذا خرف من القول لا يرضى به عاقل. فالواقع أن كثيراً جداً من هذا القيم ـ والتي كانت في بدايتها قيماً فرعية ـ هي من عوامل تأخر المجتمع وتقهقره، وأن كثيراً من التصورات يعتبر قيماً وهي في واقعها مجرد أوهام عامة ضررها أكثر من نفعها، ويجب أن تجتث.

بمعنى آخر: المجتمع كالشجرة، جذورها القيم الحقيقية التي تمدها بالغذاء والنماء، وهي قد تزهر وقد تثمر وتنمو حول ساقها وفروعها قشور تتراكم مع الزمن هي ما قد نسميه بالقيم الوهمية.

من هنا كان واجب الحرص على الجذور.. على القيم الحقيقية.. إذا ما أردنا أن نحفظ تميز مجتمعنا وتطوره واستمراره مستقلاً عن غيره من المجتمعات معتداً بوجوده الذاتي، معتزاً بخصائصه الجوهرية، منبثقاً من تربة خاصة في جو خاص.

والإسلام هو أهم ما يمكن أن يحفظ هذا الوجود وهو بالتالي محتوى قيمنا الحقيقية ووعاؤها. فإذا فرطنا فيه كنا نفرط في وجودنا كله ونقضي على أنفسنا بالتبعية لهذا المذهب أو ذاك، من الشرق كان أو من الغرب.

وقد تسأل: ما علاقة هذا كله بالموضوع؟

والجواب: علاقتان. **أولاهما** ما جاء في مقدمة هذا المقال من حديث عن تلك الحيرة التي تلف النفوس، ونفوس المفكرين منا بوجه خاص، وهي حيرة مبعثها الأساسي ـ فيما أرى ـ هو الذهول الكامل أمام منجزات الحضارة الغربية والانبهار بمدى ديناميكية مجتمع الغرب وما يرسله إلينا كل يوم من مخترعات في العلم والفن والفكر على حد سواء. وهو ذهول له ما يبرره على كل حال. غير أن كثيراً منا يظن أن الغرب لم يحقق ما حقق إلا بعد انسلاخه من عقيدته وتنكره للمسيحية واتخاذه العلمانية ديناً له ـ إن جاز التعبير.

وهو ظن خاطىء من أساسه: فأول شيء طبعته أوروبا عندما اخترعت الطباعة كان الإنجيل، وأكثر الكتب مبيعاً في السنة الماضية كان الإنجيل أيضاً. فأوروبا لم تتخل عن مسيحيتها ـ رغم شكها فيها ـ وهي تزداد بها كل يوم تمسكاً. **أما الثانية** فتكمن في العنوان وهو على صلة بمفهوم الثورة لا تغيب عن البال. فهل كانت الثورة إلا نظرة حالمة بمستقبل أفضل وعمل في سبيل تحقيق الحلم؟ وما من ثورة قامت إلا وكان نصب عينيها أهداف محددة تطرحها شعاراً لها في حاضرها لتعمل على هديها في مستقبلها.

الثورة رفض للتقليد.. والإسلام رفض للتقليد أيضاً. ومن التقليد القول بأن «الدين أفيون الشعوب». كلمة لفظها كارل ماركس اليهودي يعني بها مسيحية أوروبا التي كانت متمثلة في الكنيسة المستغلة، فإذا بها تنقل إلينا حذو النعل للنعل، مع اختلاف الظروف والملابسات والأحوال.

فهل تقارن مسيحية أوروبا في القرن التاسع عشر بكهنوتها ورهبانها وكنائسها ومساندتها للإشراف وحكام المقاطعات واستغلالها في السمسرة السياسية وفساد نظامها الإكليروسي وصكوك غفرانها وتفسخ أخلاق بطاركتها ومحاربتها لآمال الشعوب.. بالإسلام، وكتابه القرآن يحارب الظلم الاجتماعي والفساد الخلقي ويلغي الوساطة الكهنوتية ويثور على الدجالين والمشعوذين ويطلق حرية الفكر ويعتق الإنسان من خوفه وذله ويرد له ـ رجلاً وامرأة ـ كرامته

وعزته ويحقق المساواة في الحقوق والواجبات ويرفض تكوم الثروة وتراكم رأس المال وتحكم طبقة عليا؟

مجرد المقارنة العابرة توضح اختلاف الأوضاع. لكنه التقليد غير البصير هو الذي يدفع الكثيرين إلى اعتناق هذا المبدأ ـ وما يتلوه من قضايا وتفرعات بطبيعة الحال ـ دون النظر لتباين الظروف والأحوال.

هذا مثل. ومثل آخر نضربه في ما أشرنا إليه في بدء الحديث من وجوب التفرقة بين الثورة والتحطيم. . وهما ضدان. الثورة إزالة للعوائق وبناء، والتحطيم مجرد عملية تخريب غير واعية ولا مدركة لخطر المسؤولية دون تفريق بين صالح وطالح وصحيح أو فاسد. والتحطيم مرض قبل كل شيء. . مرض في النفس يجد صاحبه لذة في التدمير ونشر الحيرة والبلبلة في الآخرين ليتساووا في دائه العضال، وهو أخطر ما يكون حين يقصد زلزلة القواعد والقيم بهز الثقة في سلامتها وزعزعة الإيمان بها وبث الريبة والشك من حولها وذر الشبهات في أهميتها. وهو قد يكون في هذا مخدوعاً وقد يكون مدفوعاً وفي الحالين ينبغي أن ينظر إليه بحذر.

وليس هنا مجال معالجة الحرب الضارية التي يشنها أعداء الإسلام عليه في الماضي والحاضر، ولا هو يسمح لنا بهذا إن شئناه. لكنني أود اختيار جانب واحد من اتهام واحد لنرى جانب الحق فيه.

«الإسلام دين رجعي»:

هذا هو القالب الذي يواجهك به موجِّه الاتهام. وما دام الإسلام «رجعياً» فهو لا يصلح للحاضر ولا للمستقبل، أي أننا يجب أن ننبذه ونبحث عن بديل له لا تربطنا فيه قيود الماضي وأغلاله، ثم ننطلق لبناء مجتمع جديد بمثل جديدة ومبادىء جديدة هي من وضعنا وباختيارنا وحسب ما نراه موافقاً لنا.

وهذه من كبرى المغالطات في الجدل على الإطلاق. فأنا لا أعرف لكلمة «رجعي» معنى سوى ما اشتق من (الرجوع) بمعنى التقهقر أو (الرجع) بمعنى الصدى، وفي كليهما مفهوم النكوص والارتداد إلى الوراء بدلاً من التقدم والسير إلى الأمام. وهذه مسألة سنميز خطأها من صوابها ـ بالنسبة للإسلام ـ بعد قليل. لكن هناك (الرجعة) أيضاً بمعنى العودة إلى الماضي.. إلى الأصل والمنبع.. والاهتمام بالسلوك على ضوئه. وهذا يذكرني برأي قرأته ذات يوم عن مقارنة بين العرب واليهود قال صاحبه: إن العرب قوم يهتمون بالماضي دائماً واليهود قوم ينظرون إلى المستقبل أبداً وهذا هو الفرق بين العقليتين. ونسي صاحب الرأي ـ أو تناسى ـ أن اليهود عاشوا ألفي سنة ينوحون على حائط المبكي ويدرسون العبرية ويقرأون التلمود ويحلمون بتحقيق نبوءة أرض الميعاد، وكلها من الماضي السحيق. ولولا هذا لكانوا قد اندثروا وتلاشوا في خضم المجتمعات الإنسانية الكثيرة التي عاشوا بين ظهراني أهليها هذه العصور الطوال.

فصفة الرجعية إذن ـ بمعنى الرجعة أو العودة للنبع الصافي بعد

تنقيته من الشوائب ـ ليست بتلك الدرجة من السوء حتى تصبح سبة يتنابز بها اللاهون ومدعو الفكر والتفكير. بل هي ذات فائدة لا تنكر في التمسك بالكيان وتحديد ماهية المجتمعات وتقدير الانتماء إلى حضارة ضاربة في أعماق التاريخ، سامقة على مدى الزمن، صلبة في وجه التحديات والأعاصير.. لكنها تصبح عديمة الجدوى، بل ضارة، إذا تحولت إلى ضرب من عبادة الماضي وتقديسه ومعارضة كل جديد ومحاولة الوقوف في مواجهة التطور الطبيعي الذي تفرضه طبيعة الأشياء وسنة الحياة، والجمود عند موقف معين لا تحول عنه أبداً. ذلك ـ باختصار ـ يعني الموت والفناء ولا شيء سواه.

فهل نستطيع القول بأن الإسلام دين رجعي بمفهوم الجمود والركود وعدم التطور؟ هل هو دين رجعي بمعنى أنه ينظر إلى الماضي فقط ولا يهتم بالحاضر ولا المستقبل؟

ينقسم الزمان ـ بالنسبة للمفهوم العام ـ إلى ثلاث فترات هي: الماضي والحاضر والمستقبل.

فالماضي كان يوماً مستقبلاً ثم أصبح حاضراً ثم صار ماضياً، والحاضر كان مستقبلاً وسيصير ماضياً. والمستقبل سيصير حاضراً ثم ماضياً.. وهكذا تدور عجلة الزمان.

هذا المفهوم نفسه يتخذه القرآن ـ عماد الإسلام وأساسه. غير أنه لا يعالج الزمان في ذاته بصفته الجوهرية المجردة كما تفعل الفلسفة اليونانية مثلاً، وإنما هو يهتم بأحداثه.. بالفعل الذي يقع

فيه.. إذ أن هذا هو الأهم بالنسبة للإنسان، والإسلام دين واقعي وليس ديناً ميتاً فيزيقاً متعالياً. ثم هو يتخذ من هذه الفترات وعاء لتأكيد قيمة من القيم أو مبدأ من مبادئه الأساسية.

الماضي لا يراد لذاته ولا تقدر أحداثه إلا من خلال أمرين اثنين: إما العبرة والتجنب للمثل السيء وإما الاقتداء والاهتداء بالأسوة الحسنة. وقد كان الإسلام ذاته رفضاً لماضي الجاهلية وثورة على الجمود الفكري الذي جعل الإنسان يسجد لحجر لا ينفع ولا يضر.

أما الحضار فهو للعمل، سواء كان مادياً أو معنوياً وفيه نظرة واضحة إلى المستقبل والتهيؤ له. والحاضر أفضل من الماضي حتى في أخطر القضايا الإسلامية وهي مسألة الإيمان والكفر، فإن الإيمان الحاضر يمحو كفر الماضي، والتوبة الحاضرة تكون سبباً لغفران الذنب الماضي.

بقي المستقبل وهو أهم الأزمنة الثلاثة بالنسبة للإسلام. وهو ينقسم إلى أقسام ثلاثة: **1 ـ قريب مادي. 2 ـ قريب روحي. 3 ـ بعيد روحي ومادي.** ونحن إذا نظرنا في آيات الكتاب العزيز نجد الغالبية العظمى من آياته الكريمة في صيغة الأمر، التي هي صيغة طلب الفعل في المستقبل، موجهة إلى الرسول الكريم أو المؤمنين أو مختلف طوائف المخلوقات. وهي إما أن تكون:

1 ـ أمراً باستعداد في شأن من شؤون الحياة الدنيا وإرشاد في السلوك.

2 ـ وإما أن تكون دعوة لنهج معين في سبيل التطور الروحي والسمو النفسي.

3 ـ وإما أن تكون حديثاً عن مستقبل بعيد في الحياة الآخرة. حتى لقد وردت أداة المستقبل «سوف» في القرآن أكثر من 40 مرة.

فالمستقبل بالنسبة للإسلام هو محور التفكير ودائرة النظر، وهو أهم من الحاضر والماضي لأنه هو الذي سيحدد مكانة الإنسان في المجتمع والوجود ويشكل تطوره المادي والروحي.

فإذا جاء في القرآن الكريم مثلاً (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) فإن هذا الأمر يعني وجوب العمل على التطور المادي ـ وقد نسميه اليوم التطور التقني ـ في مختلف جوانب الحياة والتقدم في سبيل ما نعبر عنه اليوم بـ(مواجهة التحديات وحماية الثورة) أعني التفوق الكمي والكيفي على العدو حتى لا يجد ثغرة ينفذ منها لضربنا وقهرنا. وإذا قال (واستقم كما أمرت) فهو يعني وجوب السمو الخلقي والارتقاء الروحي ليس بالنسبة للنبي ﷺ فقط بل بالنسبة لكل مسلم في هذا العالم، أعني في الحياة الدنيا وما يتبع هذه الاستقامة من أخلاق اجتماعية وطرق معاملة ومبادىء ومثل تعمل جميعها على حماية الفرد والمجتمع معاً.

وإذا قال النبي ﷺ (إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) فإنه يجمع طرفي الحياة ـ دنيا وأخرى ـ

وهما مستقبل قريب وبعيد. ولو مضينا في سرد الشواهد لما انتهينا من سرد.

لقد بلغ الاهتمام بالمستقبل في القرآن حداً لا أعرف له مثيلاً في أي كتاب سماوي آخر. فبينما نجد التوراة مثلاً تخلو من ذكر أي شيء يتعلق بالحياة المستقبلة ـ بعد الموت ـ وتصب اهتمامها كله على سرد أخبار الماضين والأحداث التي شكلت تاريخ بني إسرائيل، نجد القرآن يركز عنايته في المستقبل تركيزاً شديداً حتى ليتحول فيه فعل الكينونة الماضي ـ كان ـ إلى فعل يدل على الماضي والحاضر والمستقبل في كثير من الأحيان.. وهذا أمر تفرد به القرآن الكريم وحده في قدرته التعبيرية الخارقة.. ليس فقط بالنسبة للذات الآلهية بل بالنسبة للبشر أيضاً. فآية **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾** مثلاً لا تعني ماضي المسلمين، وأغلبهم لم يكن مسلماً حين نزلت الآية، بل تعني الحاضر والمستقبل حين نجد، بعد هذا التفضيل، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ونفس التفسير ينطبق على آية **﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾** أو **﴿وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾** أو **﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾** أو **﴿من كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾** إلى آخر هذه الآيات التي صيغت في الماضي وهي تعني الحاضر والمستقبل.. بل تعني المستقبل أكثر من غيره لأنها قواعد ومبادىء يجب أن تسير على هديها الأجيال.

خلاصة القول أن الإسلام في حقيقته ثورة على جمود الماضي

وفساده، وعمل في الحاضر من أجل تثبيت أمتن الأسس لمستقبل الإنسان في دنياه وأخراه. وهو لا ينظر إلى الماضي إلا من خلال الاعتبار لتجنب الضار والاقتداء بالنافع وهو ـ من بعد هذا وذاك ـ نظرة شاملة للكليات، تفصيلية بالنسبة للجزئيات، لتحقيق التطور الإنساني مادياً وروحياً وتمكين الفرد المسلم من النظرة المتفائلة لمستقبل أفضل والعمل الجاد في هذا السبيل.

لماذا حرب «الأيام الستة»؟

تمنيت أن سمعتها، أن رددتها الجماهير، تمنيت أن كانت أغنية المقاتلين وصيحة الجنود وهزج الليالي الحالكات السواد، تمنيت أن انطبقت شفاه الشهداء وهي تلفظها وتموت في سبيلها بدل الزهور والورود والسلام: الله أكبر!

منذ ثلاث سنوات كانت البلاغات العسكرية تذكر عدد القتلى وليس الشهداء وتتحدث عن الحرب وليس الجهاد، وتكتب الصحف عن أزمة الشرق الأوسط وليس عن القدس والمسجد الأقصى.

الذين يدعون أن المسألة صراع بين الصهاينة والعرب فحسب واهمون، والذين يرون أنها مسألة مصالح بين الشرق والغرب فقط مخطئون. المسألة أكبر من هذا بكثير وأشد خطراً. هي إلى جانب هذا أو ذاك قضية الصدام التاريخي بين الإسلام وأعدائه، أياً كان هؤلاء الأعداء ومن أي جهة أتوا.

فلسطين تمثل ـ في هذه المرحلة ـ نقطة الصراع بين الحضارة

الإسلامية ـ والعرب هم صلبها ـ والحضارة اليهودية المسيحية، مهما تبدلت صور الأخيرة وتشكلت ولبست من أثواب وأزياء.

فإذا كان هناك من يحزن لما أصابنا منذ سنوات ثلاث، فليلم من أمات الروح المقاتلة في جوانح المقاتلين، وليصب لعناته على الذين نسوا ـ أو تناسو ـ أن المرء لا يضحي بحياته في سبيل الزهور والسلام، وأن العربي المسلم ـ خاصة ـ يحمل مهجته على راحته وهو يموت من أجل مبدأ. . من أجل حضارة. . من أجل دين هو بدونه لا يساوي درهماً زائفاً في سوق الأمم والشعوب.

سؤال يثور أبداً ما الذي دفع العرب للخروج من شبه جزيرتهم إلى الدنيا العريضة؟ والجواب أبداً: لينشروا رسالة آمنوا بها وليقدموها للعالم، بها يهتدي ويستنير. ولم يكن العالم ليعترف بمجرد وجودهم ـ حتى كبشر ـ لو لم يكونوا يحملون هذا المشعل الوضاء.

ولقد أدرك المفكر الرائع ابن خلدون هذه الحقيقة الواضحة فقال: إنه لا تقوم للعرب دولة إلا بنبوءة. وهو يقصد بالنبوءة هنا إيمانهم بما جاء به نبيهم الكريم وبذل الأرواح في سبيل إقامة دولته العظيمة.

قضية لا مجال للمراء فيها لمن يستقرىء التاريخ وينظر في أحوال الأمم، وأمر هو من الجلاء بحيث يصبح الجدل فيه غاية في الغفلة والسذاجة.

ماذا أستطيع ـ كعربي مسلم أو مسلم عربي ـ أن أقدم للفكر الإنساني؟

لا شيء، لا شيء مطلقاً إذا لم أستلهم ما سطر الأجداد وقدم الآباء. أو لأصبحن متطفلاً على موائد الآخرين بلا ريب.

في أوروبا تعني كلمة العربي كلمة المسلم. وهم لا ينسون مطلقاً ما رأوا وسمعوا من المسلمين وعنهم. أوروبا تتسامح مع جميع الأديان والفلسفات.. تتسامح مع البوذية والهندوكية، وتصالح اليهودية وتؤاخيها، وتغفر عبادة البقر والجرذان والصراصير، وتأخذ عن الثقافات الوثنية وترى الأفكار الملحدة الكافرة، لكنها لا تتهاون ذرة مع الإسلام. ذلك لأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أذل كبرياءها وحطم تشامخها، وجابهها أقوى ما يكون عوداً وأوضح ما يكون فكراً وأعنف ما يكون حين الاحتدام.

هل تنسى أوروبا ما جرى في الأندلس والقسطنطينية؟ أليس الإسلام هو الذي أجلاها عن «بحر الروم» وأبعدها عن اعتصار شعوبه وانتهاب ثرواته؟ أليس هو الذي أقام حضارة سامقة وقدم للإنسانية ثقافة يبلى الزمان ولا تبلى؟

السلسلة المتصلة الحلقات ـ منذ القرن السابع الميلادي ـ من توتر الصلة بيننا وبين أوروبا هي التي تحرك نيكسون لإهداء الفانتوم وتدفع المتبرعين للبذل والعطاء. وغير هذا لا شيء آخر يعنيها.

والذين يقرأون ليفهموا ـ لا ليقلدوا ويجاروا ـ يستطيعون ـ بلا

عناء ـ أن يدركوا هذه البديهيات التي لا تخفى عن أحد. والذين يكتبون ليداروا ويخترعوا الأسباب والعلل ويبعدوا الشعب العربي المسلم عن حقيقة المعركة ودوافعها لا بد أن ينكشفوا يوماً ويظهروا على حقيقتهم الكالحة.

* * *

منذ سنوات ثلاث كانت هناك حرب سميت ـ لدينا ـ حرب الشرق الأوسط أو حرب يونيو أو هي حرب حزيران.. أو ما تشاؤون.

لكنهم في أوروبا لا يعرفونها بغير اسم «حرب الأيام الستة».

لماذا حرب الأيام الستة ـ ويصرون كل هذا الإصرار ـ ونحن نعرف أنها انتهت في أيام ثلاثة ـ وفي قول ساعات ثلاث؟

المسألة لا تحتاج لجهد في التحليل والتفسير. هم ـ ببساطة ـ أرادوا حرباً دينية ـ شئنا نحن أم أبينا ـ واليهود يقولون إن الله بنى العالم في أيام ستة، خلق الكون كله بهذا التحديد، ثم جلس على عرشه يستريح من العناء في اليوم السابع..

ببساطة أكبر، ديان دمر المسلمين في ستة أيام ثم ارتقى مئذنة المسجد الأقصى يلهو ويستريح هو الآخر، ولم لا؟ وما الفرق ـ في رأيهم ـ بين الخالق وديان؟ تعالى الله علواً كبيراً.

* * *

واأسفاه!

ونحن نبكي وننوح ونرسل النكت لأن جندنا لم يقاتلوا قتال الأبطال.

في سبيل ماذا تموت الجند وتستشهد؟ في سبيل الزهور والأطفال والسلام؟

أشهد أنني غير مستعد للموت في سبيل أي من هذه، أو سواها.. لكنني مستعد في سبيل الله وحده ليس غير.

في سبيل الله والعقيدة هو الجهاد، وهو ـ من بعد ـ في سبيل ما تريدون.

الفصل الرابع :

مِنَ الكتب وعنها

«الكتب ثلاثة: ما يستجيب لك، وما يجيب عن سؤالك، وما يطرح أسئلة تحتاج إلى جواب»

مأسَاة الحلّاج أم مأسَاة الفكر الإسلامي؟!

- 1 -

هذا حديث ذو شجون أيها الأصدقا..

حديث لا تكفينا فيه صفحة أو عشرات الصفحات. لأن القضية هي مسألة وجودنا أو عدمه..

أعني حضارتنا وثقافتنا ومثلنا العليا في مجتمعنا هذا الذي نبنيه. لذا فإنني ألتمس من القارىء العزيز إن لم يجد جواباً لكل ما يريد، أن يبحث بنفسه عن الجواب، والمهم أن يثار سؤال وترسم علامة استفهام. منذ سنة تقريباً صدرت في بيروت مسرحية لأحد أعمدة الشعر الحديث صلاح عبد الصبور، واختار لها عنواناً: مأساة الحلاج. كانت بالطبع من الشعر المرسل، وحاول فيها أن يقول شيئاً ما.. شيئاً في نفسه أو نفس غيره. وكان لها قبول هنا ورفض هناك، ولم ترس بعد على شاطىء لها أرادوه.

لِمَ اختار عبد الصبور الحسين بن منصور الحلاج ركيزة تدور

حوله أحداث مسرحية؟ وهل قال شيئاً جديداً في هذا الحلاج؟ وهل يمكن أن يقبل ما قال؟

إن شخصية الحلاج من أكبر الشخصيات التي ازدحم بها التاريخ الإسلامي إثارة، ليس فقط ما استحدثه من ضروب التصوّف ومظاهره ومبادئه وإنما في ما أحاط بحياته وفكره من ظروف وتأثيرات هي غاية في الغموض الباعث على الحذر.

ولم يكن من العجيب أن تظهر شخصية كالحلاج في ما بين القرنين الثالث والرابع الهجرين إذ ظهر قبله كثيرون شق كل منهم سبيله الوعر الخطير، نذكر منهم مثلاً عبد الله بن سبأ ـ اليهودي أول من أدخل فكرة التشيع لعلي بن أبي طالب ثم تأليهه وعبادته ولهذا حديث يطول ـ ونذكر أبا الحسين أحمد بن الراوندي وأبا عيسى الوراق الملحدين وزميلهما صالح بن عبد القدوس، وحتى ابن المقفع وأبا نواس في الأدب والشعر، إلى جانب العديد من رؤساء الفرق الخرمية والبابكية والقرمطية وغيرها. وكل هؤلاء أمثلة تضرب إذا ما عدد الذين حاولوا النيل من هذا الدين وأهله سواء عن طريق الفرق الدينية والسياسية أو عن سبيل الأدب والشعر أو الغوص في مجالات الجدل اللاهوتي بين المذاهب المختلفة.

لكن الحلاج كان نمطاً آخر اختلف عن سواه في المنهج والطريقة والأثر. ولقد ظهر الحلاج في فترة كانت تترنح فيها الدولة العباسية وتتأرجح ويستعد الشيعيون ممثلين في آل بويه للقفز إلى سدة الحكم. وكان طبيعياً أن تتميز هذه الفترة بالهياج الفكري

والاضطراب الثقافي نتيجة للقلق السياسي آنذاك.

ولسنا هنا بسبيل تأريخ للفترة أو حديث عن مظاهر الفكر والثقافة يومذاك فإن لهذا مجاله المعروف.

لكن المهم أن نشير هنا إلى ما اتسم به بحث أغلب المستشرقين ـ حين يبحثون في تاريخ الفكر الإسلامي ـ من ميل إلى نبش خلافات الفرق القديمة وتسليط الأضواء عليها كمثال لعمق الخلافات المذهبية الإسلامية! فنراهم يهتمون ببحث أدق الفروق وأعقد المشاكل بين المعتزلة والأشاعرة والكرامية والشيعية وهلم جرا. فعل هذا أمثال رنيان وغولد زيهر وهورتمن وبيكر وكثيرون غيرهم. وقد نال الحلاج عناية خاصة من المستشرق المعروف ـ والذي توفي منذ حوالى أربع سنوات ـ لويس ماسينيون.

اهتم ماسينيون بأبي الحسين منصور الحلاج فنشر «أساطينه» وكتب عنه كتاباً ونشر البحوث المطولة وعرف به تعريفاً تلقفه عنه تلاميذه في الشرق ليجعلوا من الحلاج شخصية تاريخية وعلمية وصوفية تتقدم الصفوف. وحاولوا بكل ما يملكون من قوة أن يبعدوا عنه ما عرف به طوال التاريخ من سيرة منحرفة واتجاه خطير ومؤثرات في هذه السيرة وهذا الاتجاه.

فهل كان كل هذا الجهد وهذا العناء خالصاً لوجه الرحمن الرحيم؟!

نحن لا نشكك في القيمة العلمية التي نجدها عند هؤلاء العلماء

الفطاحل الدارسين، ولا نحاول الانتقاص من مجهوداتهم الفكرية الكبيرة. لكن يحق لنا ـ كمسلمين تحمل مسؤولية التاريخ ـ أن نتساءل عن سر هذا الطوفان من الدراسات والكتب والنشرات والمؤتمرات عن الفرق الإسلامية والتصوف الإسلامي؟

لو كانت القضية بحثاً عن الحقيقة ومحاولة الوصول إلى الحق لما كان سؤال. لكن القارىء لكل هذه البحوث أو أغلبها يلمح محاولة مريبة ومستترة لبلوغ هدف معين خاصة إذا ما لاحظ هذا التركيز المستمر على نواحي التفكك أو الضعف أو التناقض أو الشذوذ أو الطعن ـ بعبارة أوضح ـ في الفكر الإسلامي.

ليكن الحلاج ـ مدار حديثنا ـ مثلاً لنا.

إن ما دار حول هذه الشخصية ـ إبان حياته وبعد موته ـ ليشير للمتمسكين بدينهم ونظامهم إلى امرىء لعب دوراً خطيراً في بلبلة الأذهان وتشتيت الأفكار وتمزيق الوحدة الفكرية للأمة الإسلامية، وكان لها ـ على طول التاريخ ـ أنصار مشكوك في نواياهم ـ حتى وإن تظاهروا بالإسلام ـ أو مغرر بهم بطريقة مخزية.

وحتى لو افترضنا حسن نية الحلاج ذاته ونية اتباعه فإن الأمر لا يخلوا من تهمة الانحراف والشذوذ في مجال من أخطر مجالات الفكر الإسلامي، وأعني به التصوف. إذ يكفي ما جاء به هذا الحلاج من معاني الحلول ـ أعني حلول الله في البشر ـ وما كان يدعيه من اتصاله بالذات الإلٰهية وحلول الله فيه حتى لم يبق «في

الجبة إلا الله» على حد تعبيره.. ثم ما كان منه من تهريج سوقي رخيص ومحاولة للضحك على ذقون العامة والسذج بمختلف الحيل والألاعيب.. وما يرويه لنا المؤرخون من «مخرقته» أعني شعوذته وسحره ادعاء للكرامة والمعجزة.. يكفي هذا ـ وهو قليل من كثير ـ للحكم بإدانته وإبعاده عن دائرة التصوف الإسلامي الحق، بما فيه من سمو وارتفاع عن الدنيا وزهد فيها وفي بهرجها ومناداة بالكمال الإنساني عن طريق الخضوع لله الكامل المطلق مما تمثله رابعة العدوية والمحاسبي وأبو يزيد البسطامي وذو النون المصري وسواهم.

هل ترى الحديث بَعُدَ بنا؟..

لقد أردت أن أتحدث عن مسرحية صلاح عبد الصبور فإذا بنا ننزلق إلى الكلام عن شيء آخر وإن كان غير بعيد. لكن لا بأس فإن الحديث ـ كما قلت ـ ذو شجون، وليس من المستطاع الكلام عن الحلاج دون التعرض لما دار حوله وعنه. وأردت أن أبين إلى أي حد نحن مغرر بنا من قبل هؤلاء المستشرقين وإلى أي هدف يجروننا إليه. والمثل على قول هذا مسرحية «مأساة الحلاج» هذه التي أشرت إليها أول الحديث.

لم اختار عبد الصبور الحلاج بالذات؟ وهل قال جديداً وهل نقبل ما قال؟.. لقد اختاره بتأثير غريب، وجعل منه «بروليتاريا» يساريا بعد أن أحل اللاهوت في هذا الناسوت.. الهلفوت!

ـ 2 ـ

قلت جواباً عن تساؤلي، لم اختار عبد الصبور الحلاج بطلاً لمسرحيته أو محوراً لها: إنه اختاره بتأثير غريب. تأثير استقاه عبد الصبور من جملة التأثيرات التي تركت بصماتها البشعة على أسطح أدمغة مثقفينا ومفكرينا بعد أن عبثت أصابعها في تجاويف رؤوس البعض منا فقلبت محتوياتها رأساً على عقب.

فإذا تتبعتم ـ أيها الأصدقاء ـ نتاج عبد الصبور في «أقول لكم» و«الناس في بلادي» و«أحلام الفارس القديم» مثلاً لوجدتم تأثيرات غربية واضحة جلية ـ وقد أحسن الأستاذ عمر الدسوقي في محاضرته يوم الأربعاء الماضي حين بين غرام عبد الصبور بترديد ما جاء في العهدين القديم والجديد وتكراره المستمر، مثل كثيرين غيره من الشعراء «المرسلين»، للمعاني المسيحية كفكرة الفداء والخلاص والصلب وما إليها ـ وليس من المستطاع بالطبع إيراد الشواهد على هذا القول لكن القارىء يستطيع ـ بقليل من المشقة ـ الرجوع إلى هذه الدواوين للتحقق من هذه المقولة.

فماذا في مأساة الحلاج؟

إن المؤلف لا يستطيع الفكاك من هذا النهج الذي ارتضاه، ولا يمكنه إلا التعبير عن ذاته بكل ما تحمله هذه الذات من رواسب، وإن حاول ـ في عناد ـ أن يسلك سبيلاً جديداً.

وهل يستطيع هو أن يتخلص من تقليده لإليوت ولغير إليوت

برموزهم المسيحية؟ حتى وإن كان هذا في موضوع يتصل برجل مسلم يعبر عن قضيته شاعر مسلم أو المفروض أنه مسلم؟

فإذا كان بطل المأساة رجلاً عرف عنه الكثير من الميل والانحراف وأثر عنه ألف قول وقول يتصل من قريب أو بعيد بآثار النصرانية وعقائدها، فلا ريب أن المجال يبدو فسيحاً أمام الشاعر حتى يشبع رغبته في الحديث بالرموز النصرانية المحببة إلى نفسه.

في ص 71 مثلاً يقول الحلاج:

«إليّ إليّ يا غرباء.. يا فقراء.. يا مرضى.

كسيري القلب والأعضاء، قد أنزلت مائدتي».

وفي ص 121 مقارنة بين المسيح عليه السلام والحلاج الذي يتستر وراء قوله:

«لا، لم أدرك شأو ابن العذراء

لم أعط تصرفه في الأجساد

أو قدرته في بعث الأشلاء

فقنعت بأحياء الأرواح الموتى»

ثم يقول ص 122:

«لم تفهم عني يا ولدي

فلكي تحيي جسداً، حز رتبة عيسى أو معجزته.

أما كي تحيي الأرواح فيكفي أن تملك كلماته.

وفي ص 132 يقول السجين للحلاج:

«وتحب الناس، لأنك من أجل الناس سجنت وعذبت»

وهذه هي فكرة الفداء بعينها مع بعض التمويه.

وحين يسأل أبو عمر العامة في مصير الحلاج:

«بم تجزونه؟»

تقول المجموعة:

«يقتل، يقتل

أبو عمر:

دمه في رقبتكم؟

المجموعة:

دمه في رقبتنا»

هذا بعض مما جاء من رموز وإشارات مسيحية جعل آخرها خاتمة المأساة تشبهاً بما يقوله النصارى من أن اليهود هتفوا عندما تمنع بيلاطس من صلب المسيح: أصلبه، دمه في رقبتنا.

ثم نأتي بعد هذا إلى جانب آخر من الجوانب التي حاول عبد الصبور إبرازها وملأ بها «مأساته». . أعني مسألة الحلول التي اشتهر بها الحلاج.

إن المعروف في كتب التصوف والعقائد أن الحلاج هذا بلغ أمره حداً من الجرأة على الله ـ عز وجل ـ وعلى الناس أن ادعى حلول

الله فيه حتى كان يصيح: ما في الجبة غير الله. وما إلى هذا من عبارات فسرها حسنوا النية بالشطحات الصوفية ورأوا فيها تعبيراً عن الفناء الكامل في الذات الإلٰهية، وحاول البعض التماس مبرر لهذا الكلام الخطير العجيب في أمور الجذب وما إليه. لا علينا فلسنا هنا بسبيل تحليل لأسس التصوف أو النظر في مقاماته وأحواله. لكن المهم أن نشير ـ وإن بعبارة عابرة ـ إلى العلاقة الوثقى بين فكرة الحلول الصوفية الحلاجية وفكرة حلول اللاهوت في الناسوت النصرانية. فكما حل الله تعالى حسب رأي النصارى في عيسى فلم لا يحل ـ حسب منطق الحلاج ـ في الحسين بن منصور؟!

فكرة رائعة، وجديرة بأن يعبر عنها شاعر الطليعة التقدمية صلاح الدين عبد الصبور!!

في ص 55 يقول الحلاج:

أحياناً يخطىء سبل الحب

ويحب الله بشخصي»

وفي ص 75:

«فنحن له كمرآة يطالع فوقها صفحتها.

جمال الذات مجلوا ويشهد حسنه فينا».

وفي ص 77:

«ليستقبل وجه اللّه، يستجلي جمالاته».

وفي ص 80:

«وجل جلاله متفرق في الخلق أنواراً بلا تفريق».

وفي ص 105:

ـ هل تبحث في أسرار الكون؟

الحلاج: بل أشهدها أحياناً»

وفي ص 177:

«يقول هو الحب سر النجاة، تعشق تفز

وتفني بذات حبيبك تصبح أنت المصلي وأنت الصلاة!»

ولو مضينا نتقصى أفكار الحلولية لما انتهينا إلى حين. وقد يكون لصلاح الدين عبد الصبور عذره من طبيعة الموضوع وطبيعة الشخصية التي اتخذها محوراً لمأساته. وقد تغفر للشاعر التقدمي الطليعي كل شيء اللهم إلا هذا الخلط وهذا العجن والرفس وقلب حقائق التاريخ وواقع الحال.

ـ 3 ـ

لم يكتف صلاح برموز المسيحية وأفكار الحلولية فأراد أن يجعل من الحلاج زعيماً شعبياً وقائداً نضالياً تقدمياً يكدح في سبيل الجماهير ويناضل من أجل الخبز والسلام!!

جاء في مسرحية عبد الصبور «مأساة الحلاج» على لسان إبراهيم بن فاتك (ص44):

«هذا رجل يلغو في أمر الحكام

ويؤلب أحقاد العامة

ورجاني أن أنبيك رجاءه

بالحيطة والكتمان»

وفي ص 83:

«لكن هل أخذوه من أجل حديث الحب؟

لا، بل أخذوه من أجل حديث القحط

أخذوه من أجلكم أنتم»

وفي ص 158 يقول أبو عمر للحلاج:

«ماذا تبغى؟

أن يختل الناموس ويصبح أمر العامة

أعلى من أمر الخاصة؟»

وفي ص 184 يقول الحلاج:

«عانيت الفقر يعربد في الطرقات

ويهدم روح الإنسان

فسألت النفس: ماذا أصنع؟

هل أدعو جميع الفقراء

أن يلقوا أسياف النقمة

في أفئدة الظلمة؟»

وكثير جداً من مثل هذه الشواهد التي أراد بها عبد الصبور أن يجعل من الحلاج شخصية قضت في سبيل قضية، أعني بطلاً شعبياً

ثائراً ضد حكم الظلمة والطغاة، وقائداً جماهيرياً استشهد فداء للشعب. وهو لا يألو جهده يصوغ العبارات الموحية بهذا المعنى موهماً القارىء أن صلب الحلاج لم يكن تأديباً وعقاباً. تأديباً لغيره من دعاة الألحاد والانحراف وتشويه الإسلام، وعقاباً له على ما اقترفت يداه وما بهرج للعامة من زخارف وشعبذ من آلاعيب - بل كان نتيجة «زعامته» الشعبية التي أقضت مضاجع الحكام!!

وليس من المستغرب أن يقلب مؤرخو الاتجاه التقدمي هذه الأيام كل ما عرفه الناس وحكاه التاريخ وأيدته الأدلة والبراهين رأساً على عقب ويجمحوا بخيالهم الخصب العجيب ليوائموا بين أحداث التاريخ الإسلامي وشخصياته وبين الاتجاه التقدمي الحديث. فتراهم يركبون في هذا النهج مطايا الصعاب وينجرفون إلى تيار التفسير والتأويل والتعليل (من «لعل» وليس من «العلة» ولهذا حديث آخر) محاولين أن يجعلوا الحصان يشرب بعد أن أوردوه الماء!؟

ألم يعجن أحمد عباس صالح - رئيس تحرير مجلة الكاتب الطليعية - التاريخ الإسلامي ليقولبه كما يشاء ويصنف الصحابة الأكرمين إلى يسار ويمين؟! فجعل من علي رائداً يسارياً ثورياً وجعل من أبي بكر يمينياً رجعياً ورفع من هذا وحط من ذاك بمقاييس الماركسية العجيبة. وطبق منهجه المادي الديالكتيكي على رجالات صدر الإسلام كأنما كان ابن مسعود يقرأ ماركس وعثمان مستظهراً مؤلفات لينين وأبو ذر الغفاري تلميذاً لماوتسي تونغ ومعاوية من اتباع كينز أو سميث.

فليس عجيباً بعد أن قام عباس صالح «بتيسير» هذا و«تيمين» ذاك أن ينهض تلميذ نجيب آخر ليدلي بدلوه، وقد فتح الباب على مصراعيه فيختار الحلاج المتهم في دينه ونحلته والذي يمثل ـ على أحسن الفروض ـ تياراً منحرفاً عن الإسلام الصافي النقي ودخيلاً على روح هذا الدين العظيم، يختاره ليجعل منه زعيماً شعبياً جماهيرياً مناضلاً محبوباً شهيداً في سبيل قضية البروليتاريا!

اللهم لا اعتراض على جلاء مواقف رجالات الإسلام البطولية، بل دعوة إلى بيان إخلاص المخلصين ونضال المناضلين في سبيل خير الإسلام وأمة الإسلام. . ونصرة الجماهير المسلمة على أعدائها وظالميها. . اللهم لا اعتراض على هذا، بل دعوة إلى النظر في مواقف أبي ذر الغفاري والعز بن عبد السلام وأحمد بن حنبل ومن إليهم من رجال الإسلام الحقيقيين الصادقين المصدقين. أما أن ننصرف عن هؤلاء إلى المشبوهين من أمثال الحلاج وابن الراوندي وصالح بن عبد القدوس ـ لغرض في نفس يعقوب ـ فهنا تجوس في النفس هواجس وتأخذ بالخناق الظنون وهنا يجب أن نقف لنرى ماذا يريد هؤلاء الطليعيون من كل هذا اللعب بالنار؟

إن صلاح الدين عبد الصبور لم يكتف بما فعل ولا بتمجيد هذا المشعوذ اللاهي كل هذا التمجيد فإذا به يوجه سهام سخريته ونقمته وحقده تجاه طبقتين تعتبرهما الماركسية أعدى أعدائها وألد خصومها. بل هو يسخر مسرحيته لينال من هاتين الفئتين ويبرزهما في أسوأ صورة تبعاً للاتجاه اليساري. . أعني طائفة علماء الدين

ـ ويعبر عنهم بشخصية الواعظ ـ ثم فئة التجار. ومن يدري.. فلعل عبد الصبور رمى إلى غاية الغايات في الفلسفة الماركسية.. أعني إلى إحداث الصراع الحتمي بين الطبقات، حتى في مسرحية لا يتجاوز عدد صفحاتها المائتين من القطع الصغيرة؟!

ـ 4 ـ

الوعاظ والتجار.. ممثلو الدين وأصحاب رأس المال، هما أعدى أعداء الماركسية.. ولهذا فإن إهانة هاتين الطائفتين والانتقاص من مكانتهما وإظهارهما بمظهر أعداء الشعب المناضل هدف يسعى إليه اليساريون في كل زمان ومكان.. لذا فلا عجب أن تكون مسرحية صلاح الدين (!) عبد الصبور حافلة بالتعبيرات الجارحة المسيئة لرجال الدين ولممثلي الرأسمالية.

ومنذ البداية (ص 9 ـ 10) تظهر السخرية من الواعظ والتجار وتستمر طيلة المسرحية (ص 13 ـ 14، 64 ـ 65، 72، 128 وغيرها). مهمة الشيخ البحث عن موعظة الجمعة.. وتبرير ما يقوم به الحاكم الظالم، وتثبيط الهمم، وتوجيه أسئلة الفلاح وجهة اتكالية مستسلمة. ومهمة التاجر النظر إلى الأحداث من زاوية مصلحته الخاصة لا غير، ومشاركة الواعظ في موقفه.. هذا الواعظ الذي يصفه صلاح الدين عبد الصبور بالوغد:

«هل ماتت جوعاً؟ لا، هذا تبسيط ساذج.. يلتذ به الشعراء الحمقى والوعاظ والأوغاد

حتى يخفوا بمبالغة ممقوتة وجه الصدق القاسي» (ص128).

بهذا النمط وعلى هذا النهج تسير «مأساة الحلاج».. ترمي إلى أشياء بعيدة المدى، وأهداف واضحة اللون.

وعبد الصبور معذور إن فعل ما فعل في هذه المأساة وجدف ما جدف وخبط ما خبط، هو معذور حين يتلمس القربى والرضا والحماية، ومعذور حين يخرج للناس من أغوار القرن الثالث الهجري «بطلاً» عرف بشذوذ الاتجاه وانحراف التعبير وسوء الغاية. لكن هذا كله لا يمنع من أن نقف ونقول بملء الفم: لا. قفوا أيها الدجالون، واحذروا اللعب بالنار. وعلى الذين يؤمنون بهذا الدين أن يرقبوا هذه الحركات المشبوهة المريبة ويرصدوها ويكشفوها للناس قبل أن تعم الطامة.

ليست مأساة الحلاج إلا مثلاً نضربه لعبث العابثين بتاريخنا وتحويله وجهة غير وجهته، وهي ليست إلا بداية لمخطط ذي خطر كبير.

لقد علمتم ما فعل لويس عوض بتاريخ فيلسوفنا العربي المسلم الكبير: أبي العلاء المعري.. كيف شوه ودجل ولوى أعناق الأحداث، وذهب في الخبط كل مذهب.. ذلك كان في ما سماه «على هامش الغفران» وقد بين محمود شاكر ضلاله وتضليله في «أسمار وأباطيل» ومزق من على وجهه القناع.

وعلمتم ما ارتكبه أحمد عباس صالح من أثم في تفسيره المادي

الديالكتيكي للتاريخ الإسلامي، وكيف فضحه أحد كتاب «الرسالة» وبين خطل تفسيره وخطأه.

وقرأتم ما بينه جلال كشك للناس ـ اصرح ما يكون البيان ـ من حقيقة كثيرين نحن فيهم مخدوعون.

وها هو يأتي صلاح الدين عبد الصبور لينفث ما ينفث وهو بما يأثم جد عليم..

إن مأساة الحلاج ليست غير تعبير عن مأساة الفكر الإسلامي الذي أصبح أمره بأيد هي أبعد ما تكون عن هذا الفكر ـ وإنا للّه وإنا إليه راجعون.

فإذا قام من يدفع عن هذا الفكر وهذا التراث ونادى: وإسلاماه! رمى بالتهمة الجائرة وامتدت إليه أيدي الاتهام لاعنة آباءه وأجداده وأفكاره الرجعية المقيتة..

هل نسكت اتقاء التهمة وخوف السبة؟

هل نصمت في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى كلام؟

هل نجبن خشية ألسنة قُصَّر الفكر قصيرى النظر؟

سؤال ما أهم الإجابة عنه.. اليوم وغداً وبعد غد..

عَـرب ويَهـود

1 ـ الكتاب:

تماماً مثل كل الأيام السود ـ والبيض على حدّ سواء ـ في حياتنا سينطبع الخامس من يونيو في أذهاننا لعقود من الزمان تطول. وإذا كان هناك من يوم سيغير من حياتنا ـ شئنا أم أبينا ـ فهو هذا اليوم المشهود. وستترتب عليه، بلا جدال، نتائج تبلغ من الخطر حده، وتبدل منا كل تبديل. وليهون المستعجلون من غلوائهم، فإن التاريخ لا يصنع بين يوم وليلة، ولا بد لتفاعل الأحداث الكبرى من زمن مديد.

وإذا كانت مصائب قوم عند قوم فوائد، فإن أول طائفة استفادت من يوم الخسران هذا كانت طائفة الناشرين، في بيروت وفي غير بيروت. وهل يمر يوم دون أن تقذف فيه دور النشر بآلاف النسخ مما يعد حديثاً وشعراً، ودراسة، وقصة، وتحليلاً لهذه النكسة الأليمة؟

من هذا القبيل جاء كتاب الدكتور سامي الجندي الذي بين يدينا «عرب ويهود». وهو حسناً فعل بهذا العنوان الذي يحمل معنى

المواجهة والمقابلة، وبأن حدد العدو باليهود. فقد تعودنا على كلمات «الصهاينة» و«الصهيونية» وأمثالها بمعزل عن اليهود واليهودية كأنما هما مختلفان، فما أحوجنا في يومنا وغدنا للتحديد، وما أعوزنا لمعرفة الحق من الباطل.

صاحب الكتاب وزير سابق في الحكومة السورية، وهو كما ذكرت الأنباء، معتقل بسبب ما كتب. وهو أيضاً بعثي يساري، أو هو يساري بعثي، والعلم عند صاحب العلم.

أما الكتاب فليس دراسة، وليس مذكرات، وليس قصة، وليس تحليلاً. فلنقل إنه خليط من هذا كله، مزيج مما ذكرت وأكثر. وأنا هنا لا أحاول الانتقاص من الكتاب أو كاتبه، فقد أثار أسئلة عديدة هي ـ فيما أحسب ـ تحتاج إلى جواب، وهو أشار إلى جوانب تستحق الاهتمام، وبين ـ في غموض ـ عن زوايا من تفكير رجل تسلم ذات يوم مقادير أمر الثقافة في بلاده، وكان له فيها التأثير الواسع العريض.

وما دمنا مضطرين إلى الجدل والنقاش، ما دمنا لا نملك أن نعمل شيئاً آخر، فلنناقش إذن بعض ما جاء في هذا الكتاب.

2 ـ الارتباك:

ماذا يريد سامي الجندي أن يقول في كتابه؟

هذا هو السؤال الذي يتبادر إلى ذهن القارىء، وهو يطوي الصفحة الأخيرة منه.

هل هي دعوة إلى التسامح والتسالم؟ أم هي صيحة الحرب والجهاد؟ هل يلقي التبعة في ما حدث على الغرب أم على الشرق أو على كليهما؟ هل تراه يحاول استثارة المسلمين جميعاً بالمعاني الدينية التي يقدمها أم هو يبغي أن يبعد الدين عن الميدان؟

هل يجمع بين اليهودية والصهيونية أم يفرق بين الأمرين؟

إن الأسئلة التي يقدمها في بعض فصول الكتاب يناقض بعضها بعضاً ويوحي للقارىء المتأمل أن المؤلف حائر لا يدري ما يقول، مذبذب بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.. فهل هذا هو الموقف المطلوب من المثقف العربي المسلم اليوم؟

لقد حمدت له تحديد العدو باليهود في عنوانه، فإذا به في الصفحات الأولى يقدم نماذج «طيبة» من أصدقائه اليهود الذين كانوا يدرسون معه في الجامعة. نموذج طالب الطب اليهودي ذي الاسم العربي، وخطيبته وصديقتهما سنة 1947 وما بعدها، نموذج «الجرسون» الشيخ اليهودي في أحد مقاهي دمشق وأولاده الذين يحاربون العرب في فلسطين.

ثم يعود فيتحدث عن كرم العرب وشهامتهم، وكيف استضاف جمال الحسيني ـ الزعيم المعروف ـ موسى شرتوك في بيته عاماً كاملاً مختبئاً خوفاً على حياته، فلما تبدلت الأحوال صار شرتوك وزيراً لخارجية إسرائيل باسم موسى شاريت، وكان أول من هاجم آل الحسيني وشردهم.

يتحدث سامي الجندي مرات عن الدين - أعني الإسلام بالتحديد - وأهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه في ميدان مواجهة اليهود، ثم يضرب على وتر ابعاد الدين عن القضية برمتها فتصدر نغمات غريبة لا تتفق مع ما يقول.

وهو في المقدمة يسطر تاريخاً جديداً لليهود يدير رأس القارىء ويدوخه، ليثبت أن إبراهيم - عليه السلام - كان أبا لليهود بإسحاق وأن ليس هناك دخل لإسماعيل - عليهما السلام - وسلسلة من الأسماء والإسباط والقبائل، ورصداً عاجلاً لتطورات القضية الفلسطينية حتى يوم الخامس من يونيو المشؤوم. وتقرأ فتخرج بالنتيجة التالية وهي: أن الدكتور سامي الجندي يريد أن يقول أشياء فلا يجرؤ، ولا بد أن يقول شيئاً، فليقل أي شيء!.

3 - عفا الله عما سلف:

تقول النصرانية: (من صفعك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر أيضاً).

والنصارى لا يتبعون هذا القول.

ويقول القرآن الكريم: **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾**.

والمسلمون لا يتبعون هذا القول كذلك. لقد انقلبت الآية وانعكست الأوضاع.

ولقد كانت الدعوة إلى التخاذل، على مدى التاريخ، تعتبر خيانة

عظمى يعاقب داعيتها بالإعدام، خاصة إذا كانت المعركة مستمرة وتلقت الأمة ضربة عنيفة أولى، كان هذا في فرنسا أيام اكتسحتها جيوش هتلر، كما كان في بريطانيا بعد «دنكرك» وفي روسيا وغيرها من البلاد.

غير أن كتاب الإسلام الذي يعطي حق رد الاعتداء للمعتدي عليه لا يلبث أن يقول (وإن جنحوا للسلم فأجنح لها). ذلك لأن الإسلام في جوهره سلام، بشرط رد العدوان ـ أو محو آثاره بتعبيرنا اليوم.

وفي كتاب الدكتور الجندي نزعة (إنسانية) واضحة، تغلو أحياناً حتى تصبح هندوكية تستنكف أن تقتل نملة لئلا يسيل دمها فتتألم مشاعره المرهفة، ويخدش إحساسه الرقيق.

هو يروي مذابح دير ياسين فيقشعر البدن، ويحكي عن غدر اليهود فتضطرب الأوصال ويذكر صوراً عن تلهف اليهود على الفتك والقتل، ويقدم أمثلة عما قاساه، ويقاسيه العرب، تحت سيطرة اليهود في فلسطين من ألم وعذاب تثير نخوة الجبان وتهيج الروح الخامدة، ثم يختم كتابه بسؤال عن النهاية والعاقبة، ويدعو إلى التسامح والسلام، كأن من قتل واستشهد لم يقتل ويستشهد وكأن لم يسم اليهود العرب سوء العذاب.

أفهم أن تستثار الحمية، وأن توقد شعلة الثأر، ولا أفهم معنى للتباكي على القيم (الإنسانية) الرفيعة بعد أن وطئت أرضنا وشرد شعبنا، وأخرجنا من ديارنا.

أدرك معنى العفو إن كنا قادرين غالبين، ولا أعي معنى الدعوة (السلمية) ونحن مقهورون مغلوبون على أمرنا. فدعوة السلام، في هذه المرحلة بالذات، لا تعني شيئاً سوى الانهزامية والتخاذل. هل أقول.. الخيانة؟

4 ـ الصهيودية:

الآن حصحص الحق.. وكان الدكتور الجندي أول الشاهدين.

وعلى مبلغ ما بذل الكثيرون من الجهد في الفصل بين اليهودية والصهيودية، فإن هذه الدعوة لم تلبث أن انكشفت على حقيقتها. وإني لأذكر ما كتب أحمد بهاء الدين في كتابه «إسرائيليات» وما جرى في مؤتمر الكتاب العرب بالقاهرة في العام الماضي (1968)، حين وقف أحد أبناء فلسطين ـ هو بالتحديد خيري حماد ـ يصاول عن هذه الفكرة ويجاول، بعد بضعة شهور من الهزيمة المرة، وهو لا ريب يفعل هذا عن اقتناع بما نشرته الدعاية اليهودية، ليفصل بين الأمرين.

وقد ظهر اليوم أجلى ما يكون أن لا فرق ولا تفريق. اليهود هم الذين يحاربوننا، واليهود هم الذين يقاتلوننا بكل سلاح وفي كل ميدان.

دخلت أول دبابة سيناء وهي تحمل نسخة من التوراة، وأعادوا الأسماء الدينية القديمة لكل مدينة وقرية احتلوها، وتصرفوا في كل أمر كيهود ليس غير. فما هي هذه الصهيودية؟ ولِمَ نبغي بينها وبين اليهودية التفريق؟

في بطن التلمود، كما في صفحات التوراة، تكمن جميع أسس دعوى إسرائيل. وهم لا يخفون هذا أبداً، نحن الذين ندفن رؤوسنا في الرمال.

وعلى مدى التاريخ وتطاول العصور كانت الدعوة العنصرية اليهودية ـ التي ندعوها الصهيودية ـ تستمد وجودها واستمرارها من النصوص الدينية. ولم نبعد؟ أليس صهيون ـ الذي تنسب إليه الصهيودية ـ هو رب اليهود، وهم يسمون جبله في فلسطين باسمه؟

هلى نخشى أن تتهم بعداء اليهودية كدين؟ أم نخاف تهمة عداء السامية؟ أما الأولى فإن النصرانية أقرب ـ عند اليهود ـ إلى العداء، بسبب عقيدتهم في قتل اليهود للمسيح، وبسبب التاريخ الطويل الدامي الذي لاقاه اليهود على أيدي اتباعه في الغرب خاصة، وهم ما شكوا يوماً من العرب والمسلمين اضطهاداً.

وأما الثانية فإن العرب أنفسهم ساميون، بل أكثر سامية من اليهود الذين انتشروا في آفاق الأرض واختلطوا أو تناسلوا مع مختلف الشعوب والأجناس.

الصهيودية، أو اليهودية، أمران متفقان، أعني القول إنهما أمر واحد في الحق، لم يستطع الدكتور سامي الجندي إنكاره.

5 ـ جوان.. خرّاب المراية!

تقول الرواية: إنه كانت هناك أيام الحروب الصليبية الأولى مرآة مقعرة فوق منارة الإسكندرية. كان القوم يرصدون سفن النصارى

الغازية فإذا ما رأوها سلطوا عليها ضوء الشمس المنعكس والمتجمع في بؤرة المرآة فتحترق للتو. تضايق الصليبيون من هذا الأمر، وتشاوروا، ثم قرروا أن يخربوا المرآة ويفسدوا فعلها، وتخيروا من بينهم رجلاً يدعى جوان تظاهر بالإسلام وحفظ القرآن الكريم وتبحر في علوم الدين حتى أتقنها، ثم تسلل إلى الاسكندرية عالماً مهيباً وشيخاً جليلاً وأستاذاً ضليعاً. ولما كانت الثقة من صفات المسلم فقد استقبله أهل البلد خير استقبال، وأفسحوا له في بيوتهم ومجالسهم المجال، حتى صار لهم إماماً يتقدمهم إلى الصلاة كل فجر وكل عشاء.. كان الماكر في أثنائها يدبر أمره، ويهيىء لضربته ويستعد لتنفيذ خطته. فلما تمكن من أفئدة القوم وعقولهم واحتل مكانة الإكرام في القلوب أبيحت له زيارة المنارة ومرآتها، وصار في مكنته أن يتردد عليها ما شاء له الهوى، وأصبح في استطاعته أن يكسرها لتوه. لكنه كان أبلغ مكراً فلم يفعل بل داوم في زياراته على أن يحمل معه قطعة صغيرة من الثوم يحك بها المرآة في خفية حتى أفسدها دون أن يحس به أحد. فلما جاءت السفن وسلط الاسكندريون المرآة عليها لم تجد نفعاً ولم تأت بشيء.

قالت الرواية: فلما حلت الكارثة أصبح القوم يتداعون إلى المسجد للصلاة والدعاء والابتهال فلم يجدوا الشيخ بل ألفوا تحت سجادة المحراب ورقة كتب فيها: «أعيدوا صلاتكم كما قال خليلكم، إن الصلاة وراء الكافرين حرام!».

هذه أحدوثة يرويها القوالون وهي للنقد التاريخي والعلمي قد لا

تصمد، لكنها تبين عن سؤال يثور هو: ماذا اتخذنا من حيطة لاتقاء شر التسلل اليهودي بيننا. هذا السؤال هو ما لاحظت أن الدكتور سامي الجندي لا يستطيع عنه الإجابة، وهو قد حاول أن يقول شيئاً بإشارته إلى أثر يهود الدونمة الذين أسلموا في تركيا وإلى أصل مصطفى كمال أتاتورك وغيره من قادة الانقلابات والثورات ووشائجهم اليهودية أو صلاتهم الماسونية. وليس أول من فعل، فقد لاحظ ذلك أيضاً الأستاذ محمد جلال كشك في كتابه «إيلي كوهين. . من جديد».

هذا موضوع طويل لا ينتهي عند حد، وهل نحتاج لإيضاح أكثر في استقرائنا لكتاب سامي الجندي؟ ألم تكن قضية «إيلي كوهين» أو «كمال أمين ثابت» وجوسسته وما لها من ذيول في عهد وزارته؟

6 ـ إيلي كوهين:

ورد أمس ذكر «إيلي كوهين» في سياق الحديث عن علاقته بسامي الجندي، وكان أمره عجباً. والذين كانوا يتتبعون الأخبار لا بد أن طرق سمعهم ما حدث في دمشق عام 1965 ليهودي كان هذا اسمه قبض عليه متجسساً ثم أعدم وأسدل على قصته الستار. لكن قضايا الأمم لا تحجبها الستر ولا يغطيها ألف قناع. إيلي كوهين شاب يهودي ولد في الاسكندرية وفيها عاش حتى بلغ أشده وتعلم. تلقفته يد حاخام هناك بعد قصة حب له لفتاة من غير دينه ودربته وحفظته التوراة عن ظهر قلب وأعدته لمهمة كبرى. خرج من

الاسكندرية لإسرائيل حيث درس أساليب الجوسسة على أيدي الخبراء ثم أرسل إلى الأرجنتين عام 1961 ليتصل بالملحق العكسري في سفارة الجمهورية العربية المتحدة أيام الوحدة وهو أمين الحافظ.

ولما انفصمت الوحدة جاء إلى دمشق على أساس أنه مغترب سوري قضى خارج وطنه مدة وعاد ليخدمه ويصدر منتجاته إلى الخارج. وفي دمشق استطاع أن يعقد صلات وثيقة مع القادة هناك: أمين الحافظ وكريم زهر الدين وصلاح الظلي وسليم حاطوم وغيرهم من محترفي الانقلابات. كان اسمه: ثابت أمين، مسلم، تاجر أثاث، بعثي متحمس، وكان (التاجر) يزور الجبهة ويقضي الليالي في مرتفعات الجولان ويملك جهازاً لاسلكياً ويسكن في شقة تواجه قيادة الأركان العامة. أرسل أهم الأسرار وأدق الخبايا إلى إسرائيل التي كان يزورها بين الفينة والفينة وحمل إليها خرائط الجبهة ومواقع مدافعها وسراديب دباباتها ومراكز قيادتها وعاث في دمشق فساداً وحكمها ثلاث سنوات كاملة، كانت الانقلابات تدبر في بيته وترسم السياسة في مخدعه على أنغام الموسيقى وبين أحضان الغانيات. ثم قبض عليه بطريقة ما اختلفت فيها الروايات وحاكمه أصدقاؤه أنفسهم محاكمة كانت مهزلة المهازل. ثم شنق رافضاً أن يتكلم أو يبين عن شيء. كانت آخر كلماته رسالة إلى زوجته: «فلترعى أولادي ولتصلّي من أجل روحي». كان يهودياً مؤمناً يحفظ التوراة ويستعمل آياتها شفرة ويطلب من أهله أن يستغفروا له، وكان إيمانه حافزاً له لعمل المستحيل والتضحية بحياته في سبيله وطنه.. أو ما يعتبره وطنه.

فأين هذا من ذلك المقال الذي نشر في جريدة «جيش الشعب» الدمشقية مليئاً بالالحاد مشحوناً بالدعوة إلى الكفر بالله واليوم الآخر؟ وهل من بشر يقبل على الاستشهاد وهو لا يتوقع ثواباً أو يطمع في جنة وجزاء؟ الإيمان. نعم.. هذا هو الذي ينقصنا. وهو أمر لو تعلمون عظيم.

7 ـ مايكل شتاينر:

كانت حجرة ذات سريرين، تلك التي سلم إليّ مفتاحها في بيت الطلبة بجامعة درهام أول يوم وصلت إليها فيه. كانت من ذاك النوع الذي يشترك فيه طالبان، قضيت بها بضع ليال ثم سافرت إلى لندن لغاية. ويوم عدت وجدت كتاباً من الإدارة بانتظاري ومفتاحاً آخر لحجرة أخرى. فلما قرأت الكتاب علمت أنهم يطلبون مني الانتقال ومشاركة أخ سعودي غرفته. صعدت الدرج لأجمع متاعي، فما راعني إلا اسم الساكن الجديد الذي حل محلي مسطَّراً على الباب. كان اسمه: مايكل شتاينر. اسم مزدوج، خليط من الإنجليزية والألمانية ولا بد أن في الأمر سراً. فتحت الباب ودخلت. كانت ملابسه وكتبه مكومة هنا وهناك وعلى سريره قيثارة قد اتخذت الوسادة لها متكأ. دفعني فضولي إلى النظر، ومن النظر إلى تقليب الكتب علني أستشف شيئاً أو أفهم عن الذي أخرجني من داري أمراً. كان فيما يبدو طالب «انثروبولوجيا» أو هو «علم الإنسان» وكتب منوعة أخرى في نظرية التطور والديانات المقارنة، والمجتمعات البدائية. ثم حانت مني التفاتة فوقع بصري على كتاب

أعرفه جيداً، ذلك هو «تاريخ الحروب اليهودية» لمؤلفه «يوسفوس» وكان يبدو أنه قرأ فيه شوطاً وفهمت لماذا لم تدعني إدارة البيت أشاركه أو يشاركني الغرفة ولماذا أصرت على أن أشارك أخاً سعودياً كان قدم لتوه من جنوب إنجلترا.

مر أسبوع أو هي عشرة أيام حين قصدت المطبخ المشترك لأطهو طعاماً خفيفاً لي. هناك وجدته يقلي بيضاً وشريحة من لحم. قال: أنا مايكل شتاينر، من كندا. قلت: وأنا فلان، من ليبيا. قال: عربي؟ قلت: طبعاً، وأنت؟ كندي يهودي؟ قال: بل يهودي كندي. حول هذه النقطة كان لا بد أن يحتدم النقاش وحاولت أن أكون هادئاً قدر الإمكان، وهو في الحق حاول. لكن نغمة حديثه ورنة صوته كانا ينبئان بما يعتمل في نفسه. علمت منه أنه زار فلسطين مرتين، قبل النكسة وبعدها، على بعد الشقة بين موطنه وهذه البلاد. وقال إنه ليس صهيونياً ولكنه يهودي متحمس لشعبه، وما الفارق؟ وأبدى دهشته لهزيمة العرب المنكرة، وأشد الدهشة لسقوط الجولان السورية التي كان في مكنتها، كما قال، أن تدمر تل أبيب ونصف إسرائيل بأيسر سبيل دون أن تخدش خدشاً واحداً.

لو قرأ مايكل شتاينر ما كتبه سامي الجندي وعمل فيه النظر وعرف علل المصائب والنكبات لما أبدى دهشته مما وقع، فإن الله ـ عز وجل ـ قد جعل لكل شيء سبباً. ونحن... نحن سبب البلاء.

8 ـ الغفلة:

يقول المثل الإنجليزي المشهور: «يمكنك أن تخدع كل الناس بعض الوقت، وتخدع بعض الناس كل الوقت. لكن ليس في وسعك أن تخدع كل الناس كل الوقت».

وعندما جادلني صاحب لي في ما أكتب من تعليقات حول كتاب سامي الجندي كانت حجته أنني وقعت في خطأ فاحش بتسويتي بين الصهيودية واليهودية زاعماً أنني أحوّل الموضوع إلى وجهة قد تكسبنا عداء أمم الغرب وتفقدنا تأييدها، باعتبارنا معادين لليهودية كدين، ولليهود كشعب، وليس للصهيودية كفكرة متعصبة ومذهب. وعلم الله كم وددت أن يكون صاحبي مصيباً وأن أعلن تسليمي بحجته واتباع منطقه. لكن الخامس من يونيو لم يبق للزيف مكاناً ولم يترك للتضليل سبيلاً. ذلك لأن مسألة التفريق هذه هي من عمل جهابذة اليهود أنفسهم وهم ناشروها بيننا لنزداد عمى وجهلاً. وإذا كان يحلو لبعض قومنا دفن الرؤوس في الرمال فإن هناك من يؤمن بمواجهة الحقيقة على مرارتها.

وما ذنبنا نحن العرب والمسلمين أن تقوم دولتهم على أساس ديني لا يخفونه؟ وما وزرنا إذا قابلنا ما يأتون بسلاحنا الذي نملك؟ وإنني لأسوق هنا بضعة أمثلة علها تبين عن المفهوم الديني لإسرائيل وبناتها في إيجاز تتطلبه روح هذه الزاوية الصغيرة.

أولاً : الاسم الرسمي لإسرائيل حتى الآن هو «دولة إسرائيل»، فلا

هي ملكية ولا جمهورية. ذلك تمهيد لمملكة داود التي يحلمون بإنشائها من الفرات إلى النيل.

ثانياً : لا تذكر صحف الغرب سكان إسرائيل باسم «الصهاينة» بل هم «اليهود».

ثالثاً : أحيا اليهود اللغة العبرية (المقدسة) وجعلوها اللغة الرسمية في العبادات والمعاملات.

رابعاً : أساس دعوة العودة إلى فلسطين مستمد من التوراة والتلمود.

خامساً : محاربة اليهود للإسلام وكتابه سراً وجهراً في مختلف المناسبات وبشتى السبل.

سادساً : من أمثلة السلوك الديني ما قام به بن غوريون ورئيس إسرائيل المتوفي في جنازة تشرشل الذي دفن يوم السبت، إذ مشى الرجلان أميالاً على قدميهما احتراماً لشعائر دينهما وخالفا بهذا من حضر من رؤساء الدول وكبرائها.

سابعاً : لا تقام عشية عيد الاستقلال الاحتفالات والاستعراضات فحسب، بل إن رئيس الوزراء نفسه ملزم بحضور مسابقة كبرى لحفظ التوراة بين اليهود ترصد لها الجوائز الكبيرة.

إن ألف مثل ومثل يمكن أن توقظنا من سباتنا العميق وغفلتنا التي ما بعدها غفلة. أم ترانا ننتظر ضربة يونيوية أخرى لا تبقى ولا تذر؟

9 ـ عن اللغة:

ما هي اللغة؟

سؤال تختلف عنه الإجابات بقدر ما يتيسر الفهم أو تتنوع الأهداف. لكن مدلولها الصحيح عندي أنها هي كيان الأمة ومحتواها، وبدونها لا يمكن لشعب أن يدَّعي أصالته إن لم نقل وجوده الماثل للعيان. ومن هنا كان اعتزاز الشعوب بلغاتها والفخر بألسنتها على مدى التاريخ. وعلى قدر ما درس الدارسون وبحث الباحثون فإن ما من لغة تعرضت لهذا السيل العرم من محاولات الهدم والطعن والاتهام مثلما تعرضت له اللغة العربية من أعدائها ومن بعض أبنائها على حد سواء.

فما السر يا ترى في هذا الهجوم المركز الذي لم يهن، وما سبب هذه الدعوات الملحاحة لاستبدال الحرف العربي باللاتيني والدعوة إلى اللهجات العامية والانتقاض على أوزان الشعر وقوانينه؟

أحسب أن الحرب العوان التي شنت علينا لم تترك ميداناً إلا وواجهتنا فيه، وأحسب أن ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم أهم عامل في محاولة الانتقاص منها ومحاولة تدميرها والقضاء عليها. ولسنا نأسف لشيء بقدر ما أسفنا لاحتضان بعض أبناء العربية، صدقاً أو ادعاء، لهذه الدعوات والمحاولات. وهل نذكر ما فعل عبد العزيز فهمي ولويس عوض وسعيد عقل وأذنابهم من الحواريين؟ ألا تباً للتبعية وسحقاً للانحراف وبعداً للمتهافتين على الفتات.

ذكرني بهذا كله ما يتردد في كتاب سامي الجندي، وكتب غيره، من اهتمام اليهود بلغتهم العبرية وأحيائهم لها حتى لقد بعثوها من الرمس وهي اللغة الميتة المنقرضة لتصبح لغة الصحف والحديث والإذاعة والكتابة والفن والعلم.

في مدى عشرين عاماً تحولت العبرية على أيدي المخلصين من أبنائها إلى لغة ينال كتابها جوائز «نوبل» وتهتز لها قاعات المؤتمرات، وهي لغة كان أبناؤها أنفسهم ـ كالفيلسوف اليهودي ابن ميمون وصاحبه ابن جبرول ـ لا يجدونها صالحة للتعبير ويكتبون بالعربية الفصيحة.

هذا هو الفرق بيننا وبينهم. هم يحيون لغة هامدة لم تساير العلوم والفنون والآداب ونحن نميت لغة تملك جميع أدوات التعبير ويعدها الكثيرون أرقى لغة في سلامة تركيبها، وسلاسة ألفاظها، ويسر اشتقاقها، وسهولة مآخذها. وإنها لألف مرة كذلك.

10 ـ وختاماً..

فهمت من مقدمة كتاب الدكتور الجندي، ومن صلبه، أنه كتب لأهل الغرب علهم يتفضلون بقراءته ويسمحون لحجج العرب أن تبلغ آذانهم وتعيها أذهانهم. . وهم نادراً ما يقرأون ما يكتب العرب وقليلاً ما يأخذون المنطق والحجة بمأخذ الجد والاهتمام. . فإن الحق لديهم هو القوة وصاحبه هو الغالب القاهر لا الضعيف المغلوب.

وقد يبرر كون الكتاب موجهاً إلى أمم لها أسلوب في خطابها نحن مضطرون إلى استخدام ما جاء فيه من منطق وحديث. وقد تغفر له صفته هذه ما امتلأ به من ارتباك إلى حافته، وما يعتمل بين دفتيه من متناقض القول ومضطرب المنطق، إن لم نقل معوَّجه على اطلاقه.

لكنني لا أرى عذراً في طبعه باللغة العربية ونشره بيننا هذه الأيام بالذات، فنحن لسنا في حاجة إلى مزيد من الخلط والخبط، فقد كفانا ما لاقيناه. نحن أشد حاجة إلى الخط الواضح الصريح.. نقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت، ولكل عقابه أو ثوابه.

الشاب العربي، بل والمثقف العربي، مسؤول أمام الله وأمام شعبه أن يدافع عن قضيتنا المقدسة. وهو إن كان يدافع باللسان والدليل لا بد أن يتزود أولاً بالمعرفة الصحيحة عما يدافع عنه.. تاريخاً وديناً وسياسة واقتصاداً واجتماعاً. لا بد أن يبطل دعوى اليهود بأنهم سكان البلاد السابقون للعرب بمعرفة من كان يسكن فلسطين قبلهم أعني قبل قيادة (داود) لهم وانتصاره على الكنعانيين. ولا بد أن يفند مزاعمهم الدينية عن (حائط المبكى) أو (هيكل سليمان) بتبين حقيقة الحائط أو الهيكل، ولا بد أن يفسد خطتهم لربط عودتهم بنبوءات أنبيائهم بإدراك كنه هذه النبوءات واتصالها بالعصبية اليهودية بعد سبي بابل، ولا بد أن يدحض افتراءهم بأنهم (شعب الله المختار) بدراسة هجراتهم واختلاطهم وانصهارهم في متباين المجتمعات..

لهذا، ومثله كثير، يعود ما لاحظت من أن الشاب العربي لا يلبث أن ينهار إذا ما قارع يهودياً أو أحد أشياع اليهود في أوروبا حين يواجهه بهذه (الحجج البالغة)، ذلك لأننا ندافع بعاطفة المحق دون محاولة تفنيد أباطيل الدعي بالفهم والإدراك.. والاطلاع.

أما بعد..

فما أكثر الشجون التي يثيرها مثل كتاب سامي الجندي، وكنت أحب الإشارة فإذا بحبل الحديث يطول.. فلنكتف منه بهذا القدر، فإنه والله أطول الحديث.

عَن القرآن، والتصوف، ومصطفى محمود

انتهى طبع الكتاب ونزل إلى السوق.. تخاطفته أيدي الهيبز ونفذت طبعته الأولى قبل مضي شهر واحد. الكتاب غريب للغاية لا بداية له ولا خاتمة. عفواً.. بل هو يبدأ بثلاثين صفحة بيضاء ثم يأتي ما يسجله المؤلف من خواطره وآرائه الصوفية، ويختمه بثلاثين صفحة أخرى بيضاء من غير سوء.. وخلاص!!

المؤلف، رجل أفغاني يدعى إدريس شاه. تخصص في الكتابات الصوفية ونشرها باللغة الإنجليزية ـ طبعاً ـ في لندن. وهو نشر حتى الآن ما يزيد عن سبعة كتب من ضمنها كتاب عن «جحا الفيلسوف الصوفي». تجد مؤلفاته إقبالاً طيباً من المهتمين بهذا الموضوع، بل هو يدعى أحياناً ليحاضر في الجامعات الكبرى كاكسفورد وكامبردج ويوضح مفهومه الصوفي (لطلائع) الشباب البريطاني. ينافسه ـ وإن كان أقل شهرة منه ـ أخوه علي شاه الذي (ورط) الشاعر الاسكتلندي (روبرت غريفز) في فضيحة أدبية هزت

الأوساط الثقافية هنا في العام الماضي، حين (شاركه) في إصدار (رباعيات) للخيام ادعى علي شاه أنها كانت مفقودة وأن أسرته العريقة احتفظت بها طوال القرون، ثم تبين أن المسألة كانت خدعة محبوكة منه أساءت إلى (غريفز) إساءة بالغة.

تلك مسألة أخرى قد أكتب لكم عنها يوماً. والسؤال الآن: لماذا يقبل (أبناء الزهور) أو (الهيبز) على كتابات إدريس أفندي، أو هو إدريس شاه، هذا الإقبال؟..

والجواب فيما أرى يكمن في أسلوب الكاتب وطريقة تناوله لموضوعاته وطرافته للشباب الإنجليزي الحائر بين مدنيته وسلام روحه. ثم لا ننسى أن (الهيبية) ذاتها على علاقة بالتصوف أو بمظهره بمعنى أصح ـ لا تخفى.. والذين يحيطون علماً بتاريخ فرق التصوف الإسلامية خاصة لا يغيب عن بالهم التطابق الذي يكاد يكون تاماً بين (الهيبية) و(الملامتية).

وقد كانت (الملامتية) أو (أهل الملامة) طائفة من متصوفة المسلمين ظهرت في بغداد في العصر العباسي. كان أفرادها يهينون أنفسهم بلباس رث الثياب والتصرف المبتذل والتسكع في الطرقات، حتى إذا ما طاردهم الأطفال بالحجارة وقذفهم الناس بأقذع الألفاظ ابتهجوا وفرحوا، فهم يرون في هذا كله مظهراً من مظاهر السيطرة على النفس وضبط الأعصاب وكبح جماح الغضب، وهي في رأيهم أهم صفات الصوفي. أن (يلومهم) الناس على أفعالهم ويتحرشوا بهم وهم صامتون أمر مبهج جداً، ومن هنا سموا (الملامتية).

وذكرني بهذا كله تلك الظاهرة الجديدة في العالم العربي، ظاهرة العودة ـ أو لنقل الفرار ـ إلى ميدان التصوف التي برزت في الآونة الأخيرة في إنتاج بعض الأدباء والشعراء وهم كانوا عن التصوف أبعد ما يكونون.

كتب صلاح عبد الصبور مسرحية (مأساة الحلاج) وأخرجت على خشبة المسرح في القاهرة، رغم ما فيها من قلب للحقائق التاريخية ومحاولة مفضوحة لتمجيد الحلاج وتوجيه أفكاره وجهة خاصة. ونشرت دار المصراتي (معزوفة لدرويش متجول) لمحمد الفيتوري وفيها ملامح صوفية واضحة. وقرأت أن عبد الله القويري سينشر في (الشعب) لمحات أو شطحات صوفية، أو شيئاً شبيهاً بهذا ولم أطلع على ما كتب بعد. . ثم كان من قبل ما كتب مصطفى محمود عن القرآن ومحاولة تفسيره تفسيراً عصرياً. . أو كما قال!

* * *

لماذا هذا الاتجاه الجديد نحو التصوف وآفاقه؟ لماذا ينحو أدباء عرفوا ـ أمداً ـ بتحرريتهم وعقلانيتهم نحو هذا العالم الروحي الخالص وما يحتويه من آراء ونظريات لا يتفق الكثير منها مع معتقداتهم ومواقفهم السابقة التي قد يصل بعضها إلى الإلحاد المطلق؟

لن يكون الجواب هيناً، وإن كان من المعروف أن التصوف كان في الغالب مهرباً للمصدومين وملجأ يجد فيه الضارب في بيداء

الحياة واحة ينال فيها راحة النفس وهدوء البال واطمئنان التسليم. وليس مهماً أن تكون الصدمة على المستوى الفردي الخاص أو مستوى الأمة العام.. فهما يستويان.

وأنا هنا لا أنكر على من ذكرت ـ وغيرهم كثير ـ محاولتهم تلمس اليقين واتصالهم بعالم التصوف الروحي. بل إنني لأرى فيه أمراً يدعو إلى التأمل، والغبطة أحياناً، إذ كانت العودة بعد بحث وحيرة وعلى أساس من الاقتناع الكلي بسلامة الطريق.

ومن لا يغتبط باهتداء كاتب مثل مصطفى محمود بعد تلك الرحلة الطويلة الشاقة الملأى بالشك والإلحاد والابتعاد عن منابع الإيمان الصافية؟.

لقد كانت كتابات مصطفى محمود في مجلتي (روز اليوسف) و(صباح الخير) القاهريتين مشحونة بروح الإلحاد والدعوة إلى التفسخ الخلقي بين الشباب وبث الريبة، بل والاحتقار، في كل مقدساتنا الدينية. وكانت فكرة الجنس تسيطر سيطرة كاملة على حروفه وكلماته.. وهل ننسى بابه الشهير (اعترفوا لي) أو قصصه الفاضحة مثل (العنبر نمرة 7) وغيرها؟

تلك أمور عفى عليها الزمن. و(المؤمن يلتمس المعاذير والمنافق يتلمس المعاثير) كما قال أحمد زروق رحمه الله. وإذا كان مصطفى محمود قد (اهتدى) كما يقول في مقدمة (تفسيره) فأهلاً به وسهلاً ومرحباً بالعائد الكريم.. فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له!!

من هنا كانت سعادتي وأنا التقط نسخة من كتابه الجديد: (القرآن.. محاولة لفهم عصري). فإن لقلم كاتبنا سحراً خاصاً به وأسلوباً ينفذ مباشرة إلى القلب.. وهو إذا كان أخذ عليه نشره في مجلة (صباح الخير) الهابطة المستوى فإن ما يبرر عمله ذاك هو ارتباطه الشخصي بها وتعود الناس أن يقرأوا له فيها، إلى جانب فائدة تأثيره الخاص في طبقة الشباب قارئة المجلة وانتشارها الكبير. فمن كان يحس بما كتب لو نشر في مجلة (الأزهر) مثلاً أو (لواء الإسلام) أو حتى في (دائرة المعارف البريطانية)؟

ثم حسناً فعل بنشره الفصول المبعثرة كتاباً متداولاً يسهل الاطلاع عليه ويتيسر الاقتناء.

* * *

ينقسم الكتاب إلى أربعة عشر فصلاً تناقش على التوالي مسائل: المعمار القرآني، الجبر والاختيار، الخلق، الجنة والجحيم، الحلال والحرام، أسماء الله، رب واحد ودين واحد، الغيب، الساعة، البعث، لا كهنوت، الشهادة، إعجاز القرآن، ومناقشات بين المؤلف وقرائه.

والمرء لا يملك هنا إلا الإعجاب بروح الكاتب المؤمنة المنبثة في كل صفحات الكتاب والإشادة بمحاولته إقناع القارىء بأسلوب مبسط لا تعقيد فيه ولا حذلقة. ثم ذلك الاعتراف، المهذب الجميل منه في صفحاته الأولى بأنه لم يكن على صلة بالقرآن الكريم تمكنه

من استيعاب معانيه وفهم أسراره سوى صلة فقيه المدرسة القرآنية التي حفظ فيها بعض آيات منه دونما فهم أو إدراك. . وذلك الحديث عن بيته وما فيه من الحرية الفكرية وانطلاق كل فرد فيه على هواه، رغم حرص أهله على وضعه في (الكتاب) لحفظ الكتاب العزيز. ثم انصرافه عنه انصرافاً كلياً في شبابه واتصاله بعالم آخر مختلف كل الاختلاف.

قد يفهم البعض أن كاتبنا عمد إلى (تفسير) القرآن تفسيراً تقليدياً ينافس به الزمخشري والبيضاوي وإضرابهما، أو أنه اتبع نظاماً يوحي بالتسلسل في آيات ليبين معانيها. أبداً فتلك مسألة لم تخطر على بال الكاتب فيما يبدو. وإنما هو عمد إلى اختيار (موضوعات) أو مسائل محددة حاول أن يدلي برأيه فيها مستعيناً بالنص القرآني لإثبات ما يذهب إليه.

وهذه في الواقع هي طريقة (التأويل) وليست (التفسير) بأي حال. التفسير هو توضيح آية لغوياً ومعنوياً بحيث لا يجور أحدهما على الآخر. ولا تخرج الآيات عن السياق المتطابق مع المفهوم اللغوي البين. والتأويل هو تقليب الآية على وجوه لاستخراج معنى باطن ـ قد يحتمل وقد لا يحتمل ـ لتأكيد رأي مسبق في الذهن. وكان الأخير هو أسلوب مصطفى محمود، وهو أسلوب له مشكلاته وفخاخه.

* * *

(محاولة لفهم صوفي). .

هي في رأيي العنوان المناسب وليس (محاولة لفهم عصري). فإن في كل سطر من سطور الكتاب تبدو صوفية المؤلف واضحة، بل هو لا يتردد في الاستشهاد بابن عطاء الله السكندري ـ الصوفي الشاذلي الكبير ـ والاقتباس من مؤلفاته (ص130) فيبدو لنا كأنه سالك في طريق الشاذلية ومريد من مريدي أبي الحسن العصريين.

ولعله من المفيد حقاً الإشارة إلى التأثير الكبير الذي تحظى به الطريقة الشاذلية هذه الأيام في أوساط المثقفين في مصر، على أساس أنها طريقة تعتمد على أمرين رئيسيين:

العلم والتأمل. ولهذين جاذبيتهما الخاصة في هذا العصر. وليس غريباً أن يكون كاتبنا اتصل بأعمدة هذه الطريقة ـ ومن أشهرهم الدكتور عبد الحليم محمود والوزير حسن عباس زكي ـ فإني لأكاد ألمح شيئاً من هذا في كتابه. . .

فإذا سلمنا بهذا الأمر وأضفنا إليه (تساهل) الشاذلية مع محيى الدين ابن عربي ونظرياته في (وحدة الأديان) وزدنا عليه تأثر الكاتب بقراءاته ودراساته في مجال علم النفس التحليلي (الفرويدي) ونظرية التطور (الداروينية) والفلسفة اليونانية والهندية سهل علينا بعد ذلك معرفة منهجه ونقد آرائه وتمحيصها.

* * *

من الأفكار الصوفية المتأثرة بالغنوصية المتداخلة مع الفكرة

المسيحية، نظرية (سبق الوجود المحمدي) وهي مسألة من التعقيد بحيث نشير إلى تفسير الكاتب آية: ﴿**وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**﴾ بأنها كلمات تعني سبق الوجود المحمدي على جميع الأنبياء، إذ يعتبر القرآن جميع الأنبياء مسلمين، ومحمد أولهم (ص79). ثم نشير إلى ما كتبه المستشرق (نيكولسون) حول هذا الموضوع في كتابه (التصوف الإسلامي) لمن يروم مناقشة القضية دون الدخول في تفاصيل الأمر.

ثم فكرة (الوجود السابق) لا بالنسبة للنبي ﷺ فحسب، بل بالنسبة لجميع المخلوقات (ص78) في شرحه لآية الميثاق. ونظرية الحب الإلٰهي (ص198): «عبثاً نحب، فإننا نحب لنفارق من أحببنا، فهو حب إلى حسرة وخيبة، إلا إذا اخترنا أن نحب الحي الباقي الذي لا يموت» والسماع الصوفي أو الذكر (ص268).

وتبلغ النغمة الصوفية مداها عند مصطفى محمود حين يناقش فكرة (وحدة الأديان) المنبثقة عن فلسفة (وحدة الوجود) عند ابن عربي الحاتمي في فصل (رب واحد ودين واحد) وفي الصفحات 127، 152، 153 إلخ.. وتأتي (قصة الخلق) ومحاولته التوفيق بين ما يقول القرآن الكريم وما يقوله شارلز داروين مستعيناً بحسه الصوفي الباطني لتفسير مسائل الجنة والاغواء والهبوط إلى الأرض. وهي محاولة جميلة مخلصة وإن لم تخل من ثغرات سنتعرض لها بالتفصيل.

وأنا لا أبغي أبداً الانتقاص من الجهد المشكور الذي بذله

الكاتب في محاولة الفهم، ولكل مجتهد نصيب. لكن هذا لا يمنع من الإشارة إلى بعض المسائل الجوهرية التي لا أتفق معه فيها، أو التي هي في حاجة إلى مزيد من التبيان. وقد قلت منذ قليل: إن للتأويل مزالقه وفخاخه. وأود الآن أن أناقش بعض هذه المزالق التي وقع فيها مصطفى محمود.

* * *

فعندما يقول مثلاً إن متصوفة المسلمين عبروا عن هذه الوحدة بين الأديان بقولهم (إن لفلان قدماً موسوية أو عيسوية أو محمدية) (ص 152) فإن عليه أن يدرك إيمان المسلمين جميعاً بنبوة ورسالة موسى وعيسى عليهما السلام بشرط الإيمان بأن محمداً (ص) هو خاتم النبيين والمرسلين. فلا معنى إذن لقول الكاتب: (وبهذا الأفق المتسع يجب أن نفهم تعدد الأديان. لنتخط التعصب ونشعر بالأديان كلها ديناً واحداً).. وهذه دعوة طيبة لو وجدت من ينصت إليها من أصحاب الديانات الأخرى.. غير الإسلام. هؤلاء الذين ينفقون في أفريقيا وحدها مبلغ 200,000,000 دولار سنوياً لتنصير أهلها ومحاربة الإسلام وما خبر (بيافرا) وجنوب السودان والحبشة وجزيرة زنجبار عنا ببعيد.

إن الوحدة بين الأديان مطلب عزيز ورائع فهل يستجيب الذين يسمون الإسلام (المحمدية) ويفترون الكذب عليه وعلى الكتاب العزيز؟ وإذا كان من قراء (صباح الخير) ومديري تحريرها من لا يؤمن بالإسلام الذي جاء به محمد (ص) فلا ضرورة لأن يتملقهم

بقوله: (إن المسيحي الصالح مسلم) (ص152). إن (جنة اللّه مفتوحة الأبواب لكل من سعى إليها) (ص154). فإن آيات مثل (إن الدين عند الله الإسلام) و(من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) آيات لا تقبل السفسطة والجدل في أن الإسلام المقصود هو الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله وكتابه القرآن. أما ما عداه مما يوجد من الديانات الآن فهي إما وضعية بشرية أو سماوية محرفة جاء الإسلام فصححها، وعلى المسلمين نشر رسالته (ليظهره على الدين كله). ولا معنى أيضاً لرفض الكاتب تفضيل رسول على رسول (ص152) فإن آية (لا نفرق بين أحد من رسله) يقولها المؤمنون الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله في مجال الإيمان بما جاءوا به. أما التفضيل فواضح كل الوضوح: **﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾** [البقرة: 253].

يبدو لي أحياناً أن مفهوم (الإسلام) غائم تماماً في ذهن الكاتب. فإنه إذا كان حقاً أن من مدلولاته اللغوية (الخضوع والتسليم لله خالق كل شيء وذلك بالنسبة للإنسان والحيوان والجماد أيضاً) فإن معناه بالنسبة للإنسان أخص فهو يعني اتباع ما جاء به محمد (ص) وهو ما جاء به الرسل السابقون، وإن كان على مستوى أعمق وأشمل.

من الصواب إذن أن يقال عن إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى والحواريين وغيرهم أنهم (مسلمون). لكن هذا لا يجوز بالنسبة لفرعون الذي يعتبر مصطفى محمود أنه (أسلم وهو يتوب لحظة

الموت) (ص151). ويستشهد بالآية التي يقول فيها فرعون: (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) (ص150). وكان الواجب أن يأتي ببقية الآيات: ﴿**الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين**﴾ ﴿**فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية**﴾ [يونس: 90 و91]. ومنها يتضح عدم قبول توبة فرعون ورده على أعقابه وأنه سينال عقابه الذي يستحق.

ولقد ناقش المفكر الباكستاني الممتاز ج. ع بارويز في كتابه (الإسلام تحد للدين) فكرة أن الإسلام هو (الدين) الحقيقي وأن ما عداه مجرد (ديانات). فالفرق اليسير بين (الدين) و(الديانة) هو الذي يجعل الإسلام الدين القيم ويجعل ما خلاه مذاهب منحرفة، أو ديانات معوجة. وقد أصبحت قضية التحريف الذي طرأ على التوراة والإنجيل ـ مثلاً ـ مسلماً بها تحت مهجر البحث الثيولوجي والتاريخي والنفسي. ولعل نظرة واحدة في كتاب سيغموند فرويد (موسى والتوحيد) تبرز هذا الأمر وتوضحه توضيحاً لا لبس فيه.

* * *

من المسائل التي ناقشها مصطفى محمود وحاول أن يتلمس لها حلاً مستعيناً بالنصوص القرآنية، مسألة الخلق، لا على إطلاق وإنما خلق آدم وذريته من بعده.. ومن العجيب حقاً أن يلتقي الضدان عند كاتبنا: النظرية الداروينية وفكرة الميثاق الصوفية..

وخلاصة العرض عنده أن آدم خُلِق في (كوكب) الجنة ـ كذا ـ

(في أحسن تقويم). عصى آدم ربه فآلت به معصيته إلى هاوية التيه المادي (أسفل سافلين) فبدأ أميبًا ذات خلية واحدة ـ أو هما خليتان ما دامت معه حواء ـ ثم تكاثرا وتطورا عبر مراحل التطور حتى صار الآدميون ما هم عليه الآن يكدون في سبيل العودة إلى عالم الروح فراراً من عالم المادة. (ص69 ـ 75). ويضيف:

(هنالك إذن مرحلتان من خلق آدم. . آدم المثال الذي خلقه الله في أحسن تقويم ليكون إلى جواره في الملكوت، وآدم الأرض الذي انبثق من ظلام المادة ومن رحم الأرض ومن أسفل سافلين حيث ألقى به بعيداً مطروداً) (ص76).

وهذا رأي توفيقي لطيف لو وجدنا للأسئلة التالية جواباً:

* إذا كان أصل الحيوانات، والبشر منها، واحداً (ص53) فكيف تميز آدم عن بقية الحيوانات، وهل نعتبرها هي الأخرى كانت في الجنة ولها نفس مصير آدم؟.

* إذا كان آدم قد خلق أولاً من تراب كما هو معروف، وذلك قبل معصيته، فكيف يلقى في التيه المادي، وهو جبل أساساً من المادة؟

* يرى الكاتب أن الشجرة التي أكل منها آدم رمز للجنس (80) حين حدث التلاقح الجنسي بين آدم وحواء (أميبتان ذاتي خلية واحدة) وكان التكاثر ـ كذا ـ قبلها بين الكائنات بالانقسام الذاتي. . فهل كان هذا التكاثر في الجنة، أم بعد الهبوط؟

* يقرر في (ص 81) أن شريعة الطهارة (الختان) كانت الكفارة التي قضى بها آدم على نفسه كمحاولة للخصاء تقززاً مما فعل، ثم أصبحت تقليداً ـ كذا دينياً ـ من يومها. وهذا يتطلب جسداً كاملاً لا مجرد (أميبّا) تتكاثر بالانقسام.

* يستدل على أن التكاثر كان قبل الهبوط بأن القرآن يخاطب آدم وحواء على أنهما جمع ﴿**اهبطوا بعضكم لبعض عدو**﴾ بينما كان الخطاب قبل الخطيئة إلى مثنى.. ﴿**فكلاً من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة**﴾. وهو ينسى أن صيغة الجمع كانت موجهة لآدم وحواء وإبليس بدليل قوله (بعضكم لبعض عدو) والعداوة بين أبناء آدم وإبليس. وفي آية أخرى: ﴿**قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو**﴾ [طه: 123] فالله يخاطب مثنى (آدم وحواء) ثم يجمع بإضافة إبليس إليهما هنا.

وعلى كل حال فإن ما ينقذ الموقف اعتراف الكاتب الشجاع بغموض القضية وأنه لا يمكننا القطع في مثل هذه المسائل (وأن قصة الخلق ما زالت من أمور الغيب لا نستطيع أن نقول فيها أكثر من الاجتهاد والله أعلم بكتابه، وهو الذي يعلم تأويله) (ص 82).

* * *

من الأمور المتعلقة بقضية الخلق مسألة الميثاق التي يعتمد الصوفية على آيتها اعتماداً كبيراً في البرهنة على مرحلة وجود سابقة لوجودنا هذا (الأعراف: 172، 173، 174) ويكاد المؤلف أن يتخذها

منهجاً لتفكيره طوال رحلته تلك. ثم يتدرج إلى الربط بينها وبين نظرية المثل للتعلم والتذكر.

يقول في (ص99) مثلاً: «إن أحدث النظريات النفسية تقول لنا.. إن المعارف كلها تكون مخبوءة مكنوزة داخل نفس الإنسان ولكن تحجبها عنه غرائزه وشهواته.. ولهذا فالتعلم هو في الحقيقة تذكر بارتفاع حجب النفس وشفوفها ولا يكون تعلماً من عدم. فالطفل لا يتعلم أن 2 + 2 = 4 وإنما هو فقط يتذكر حقيقة باطنه في روحه ولد بها».

والواقع أن هذه ليست على الإطلاق (أحدث النظريات النفسية) فلقد ظهرت منذ خمسة وعشرين قرناً في (محاورات أفلاطون) على لسان أستاذه سقراط، وعلى الأخص في (محاورة فيدون) وهي تتصل بعالم المثل ـ أو الصور أو النماذج ـ الذي يمثل عالمنا هذا ـ حسب النظرية ـ صوراً وأشباحاً باهتة منه.

ولو توقف الكاتب عند هذا الحد لكان في المسألة نظر. لكنه يشير ـ بشيء من الحذر ـ في (ص 286) إلى تردده في رفض فكرة التناسخ الهندية حين يسأله قارىء: هل تؤمن بإننا عشنا حيوات سابقة على الأرض فيما يسميه الهنود بالتناسخ؟ فيجيب: الله أعلم..

وهو جواب متهرب كان أولى بمن درس القرآن وقرأه قراءة المتفهم الواعي أن يجيب عنه بـ: كلا.. عريضة واضحة.

ذلك لأن نظرية التناسخ هذه لا تتفق مع الإسلام ولا العقل،

ولا مع مبدأ الحرية الإنسانية، والثواب والعقاب والمسؤولية الفردية. وهي تلغي قوانين الحياة والوجود بتلك الحلقة المفرغة من عمليات الدنس والموت، فالعودة إلى الحياة للتطهُّر، ثم الموت من جديد إلى ما لا نهاية..

* * *

وإذا كانت الصوفية الأفلاطونية تجد سبيلها في فهم مصطفى محمود للقرآن الكريم، فإن الصوفية الفيثاغورية تأثيراً هي الأخرى. أعني بذلك رموز الأرقام ومدلولاتها. فهو لا يدرك لماذا خصص الرقم (سبعة) بالذكر بالنسبة لخلق السموات (ص82) ويوشك أن يقول بأن لهذا الرقم خاصة معينة، إذ يظهر في عدد ألوان الطيف وفي السلم الموسيقي، ويتساءل: هل معنى ذلك أن نكتشف يوماً ما أن الوجود مرتب في سبع درجات في جميع حالاته؟

وهذا سؤال مغر حقاً. غير أننا نعرف من قديم سحر لعبة الأرقام وفتنتها منذ أن كان فيثاغورس اليوناني ينادي بأن الوجود قائم على أساس التوافق (الهارموني) بين الأرقام، إلى أن كان بعض متصوفة الإسلام يرون فيها فعالية مميزة. وليس الرقم 7 وحده هو الرقم (المقدس) بل إنّ الرقم 3، 5، 10 وحتى الرقم 40 أيضاً. وعلى هذا فلا أساس لتبجيل الرقم 7 وتكريمه كل هذا التكريم.

ليست الأرقام وحدها هي التي يهتم بها كاتبنا كل هذا الاهتمام، بل إن الحروف أيضاً تنال من عنايته نصيباً كبيراً. وهذه لعبة أخرى لا تقل خطورة عن سابقتها.

يقول في (ص354): (إن لكل حرف من حروف اللغة خواصه التعبيرية وأسراره).

ويقول في الصفحة السابقة (إنا لنجد كلمة واحدة مثل (أم) تتشابه في جميع اللغات، بين عربية وإنجليزية وفرنسية حتى في لغة النيام نيام نجد لها نفس التركيب، فهي أم وماما، ومامي، ومومما.. وبالمثل الأب: أب، بابا، بابي بوبا).

ويضيف: (وهذا التشابه بالرغم من تباين الأماكن والأقطار يدل على وحدة المصدر وعلى أننا تلقينا الحروف الأولى إلهاماً، وأننا أدركنا بعض مدلولات تلك الحروف وأسرارها واستخدامها من نفس المصدر. واشتراك حرف الباء في جميع ألفاظ الأب يكشف عن خاصية وسر ومدلول في لفظ الباء).

ولا أملك هنا سوى الدهشة من أن يصدر مثل هذا القول من مثقف معاصر. ولا أدري ما الذي يقصده بلغة (النيام نيام) فإن هذا شيء لا وجود له على الإطلاق، اللهم إلا أن يعني الكذبة الاستعمارية الشهيرة عن أكلة لحوم البشر الذين نعرفهم هنا في ليبيا باسم (عرب ـ يم يم) وهي قبائل الأزاندي في جنوب السودان.

ثم إن نظرة واحدة إلى سبب اشتراك معظم اللغات في مخارج هذين الحرفين يعود ـ ببساطة متناهية ـ إلى سهولة نطقهما بالنسبة للطفل، إذ لا يتطلبان أكثر من تحريك الشفتين مع إخراج صوت من الفم.. ليس غير. (أحب أن أضيف إلى أن الأب في لغة الأطفال

الإنجليز يسمى: دادي. وهي كلمة سهلة النطق هي الأخرى. ولكم كنت أود لو راجع الكاتب مؤلف الدكتور علي عبد الواحد وافي عن (اللغة عند الإنسان والطفل) لكان وجد فيه شيئاً مفيداً في هذا الموضوع).

أما أن نكون (تلقينا الحروف الأولى إلهاماً) فهذه مسألة طالما ناقشها القدماء من مفكري الإسلام. هل اللغة توفيقية أم اصطلاحية؟ بمعنى: هل هي (ملهمة) أم مجرد مصطلحات متعارف عليها بين مجموعة من الناس، تنمو وتتعدد كلماتها وتتغير معانيها وتتبدل مفهوماتها؟

ولقد حل المعتزلة ـ وخاصة أبو علي الجبائي ـ هذه المشكلة بالتدليل على أنها مسألة (اصطلاحية) تتطور بمضي الزمن. وهذا لا يمنع من القول بوجود (أمهات) للغات تفرعت عنها اللغات الحديثة، مثلما حدث مع اللغات السامية والهندية ـ الآرية، في العصور القديمة، وجرى للاتينية وفروعها: الإيطالية والفرنسية والإسبانية.. مثلاً في العصر الحديث.

وتأتي من بعد مسألة (الخواص التعبيرية للحروف وأسرارها). وربما يتفق الذين يقرأون «الزمياطي» مع مصطفى محمود في هذا الرأي لكن مما لا جدال فيه أنه لا يتفق مع أي منطق وعقل. فأي الحروف يا ترى تحمل أسراراً؟ أهي الحروف العربية، أم اللاتينية، أم الصينية، أم الهيروغليفية؟

نشأت الحروف صوراً ـ كما نعلم جميعاً ـ ورسوماً على الجدران والألواح. . ثم تدرجت في التجريد حتى صارت رموزاً قد يصور بعضها كلمة تدل عليها مجموعة الحروف. وهي تطورت من بعد في أيامنا هذه حتى تحولت إلى مجرد ثقوب في ورقة صقلية توضع في جوف (الكمبيوتر) فيقرأها ويفهمها ويرد الجواب.

وتبقى الخاصة (العظمى) لحرف (الباء) المبارك. . تلك التي يعتقدها الكاتب. وهنا يظهر التأثير الصوفي مرة أخرى بجلاء، فالصوفية ـ المتأثرون بالغنوص ـ هم الذين يعتنقون هذا الرأي. بل يقولون: إن خلاصة علم الوجود (الأنثولوجيا) تتركز في النقطة التي تحت الباء. . ويقول الشيعة: إن عليا (كرم الله وجهه) هو هذه النقطة المقدسة. ولهم في هذا تفصيل لا تحتمل هذه العجالة بيانه.

ولعمري كيف غاب عن ذهن هؤلاء ـ ولعل المؤلف يميل إلى قولهم في مسألة النقطة بعد أن قرر أهمية الحرف نفسه ـ أن (تنقيط) الحروف قضية لم تبرز في الكتابة العربية إلا مؤخراً، بل إن المصاحف الأولى التي كتبت في صدر الإسلام كانت تخلو من هذا التنقيط.

ثم ما العمل في حرف الباء اللاتيني، ولا نقطة له، مثله في ذلك مثل كثير من (الباءات) في اللغات غير العربية؟ أم ترى أن الباء العربية هي التي حظيت بهذا التكريم وحدها؟

مسألة محيرة. . أليس كذلك؟!

* * *

من الأهمية بمكان أن أقرر وأنا بصدد تبيان مزالق تأويل مصطفى محمود ـ أنه كان في كثير من أحكامه وفهمه موفقاً غاية التوفيق. غير أن هذا لا يمنع من الإشارة إلى بعض ما جانبه التوفيق فيه، وإن له لعذره، بحكم حساسية الموضوعات التي عالجها ودقتها.

ولعل من أعوص المسائل قضية: الجبر والاختيار. هل الإنسان مخير أم مسير؟ هل هو حر الإرادة والفعل أم هو مقدر له مقضى عليه بما يكون منذ الأزل؟

في (ص 280) مثلاً يقول: (إن الله يعلم تاريخك وقدرك وقصة حياتك كلها).

وهذه جبرية لا تقبل الجدل. ثم يعود بعد أسطر قليلة من نفس الصفحة ليفرق بين الفعل الجبري ـ أو الإجباري ـ كرعشة اليد من أثر الحمى، وفعل الإرادة الحرة كالكتابة مثلاً. وهذه قدرية، أو هي نصف ـ قدرية على الأقل. ثم هو يناقش القضية برمتها في فصل (مخير أم مسير؟).

والذي لاحظته هو (تذبذب) الكاتب بين الرأيين تذبذباً يفسره اتجاهه الصوفي الحديث ووجهته العقلية ذات الجذور في ثقافته السابقة. فلا هو بمستطيع أن يصرح بحرية الإنسان تبعاً لتصوفه الذي يرفض هذا الموقف ويدعو إلى التسليم المطلق والاستسلام، ولا هو بقادر على نفي هذه الحرية بحسب ما يعيه عقله ويدل على مبدأ المسؤولية والجزاء، حتى ليقول في (ص45): إن حرية الفعل حقيقة

والقدر أيضاً حقيقة. وهو حين يعرض للملائكة ويقرر أنهم يعيشون في طاعة مطلقة (ص168) يستشهد بآية: ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾. ويحدث التناقض حين يقرر أن إبليس (اختار) لنفسه الغرور بغير علم ولا حق (ص46) وإبليس كان من الملائكة ﴿**وإذ قال ربك للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر**﴾ [البقرة: 34]. ولو فطن الكاتب إلى أن الآية التي استشهد بها تتحدث عن (الزبانية الغلاظ الشداد) لتلافي هذا التناقض.

تذكرني قضية إبليس برأيه في الجن والشياطين. وإذا كان بعض ما ذكره عنهم مقبولاً بحكم صريح الآيات، فإن تقريره أن (منهم من يمس الإنسان فيصيبه بالضر) (ص168) قد لا يجد مثل هذا القبول، وهو لعله يشير إلى الآية الكريمة: ﴿**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**﴾ [البقرة 275] ـ وهي آية لا تقرر المس بل هي في مقام التمثيل والتشبيه.. مثلها في ذلك مثل آية: ﴿**طلعها كأنه رؤوس الشياطين**﴾ [الصافات: 65]. لتصوير بشاعتها. وإلا فمتى رأى البشر الشياطين حتى يعرفوا شكل رؤوسها؟.

وبعد..

فلا مجال لإنكار قيمة هذا العمل الطيب والجهد المبذول في سبيل فهم القرآن الكريم، وتقريبه لذهن القارىء الحديث الذي لا يصبر على عناء البحث ومشقة التنقيب.. ولا يبقى مأخذ سوى بعض زلات القلم من مثل قوله إن (الخوارج) فسروا القرآن تفسيراً

باطنياً (ص159) وهو إن كان صحيحاً بالنسبة لبعض فرق الشيعة والمتصوفة، فهو غير صحيح بالنسبة للخوارج. وقوله إن الخلق في (كف) الله مثل الذر (ص100) ولا يجوز استعمال مثل هذا التعبير الموحى بالتجسيد بالنسبة للذات الإلٰهية. وقوله إن آدم قد يكون أكل من (شجرة الحنطة) وليست الحنطة شجرة، بل هي نبات القمح أو ما يسمى أحياناً بالبر.

وأحسب أن روح الإخلاص والحب لآيات القرآن الكريم التي شملت معالجة الكاتب لموضوعاته تغفر له كل شيء، وتجعل عمله ذا قيمة كبيرة في هذه الأيام العصيبة التي يصطرع فيها الحق والباطل وأصبح فيها المتمسك بدينه (كالقابض على الجمر)، كما قال رسول الله ﷺ.

وحين يعود الإسلام غريباً، كما بدأ غريباً.. وتأتي كلمات طيبات من عقل مفكر متحرر عرف الحق فاتبعه بالقول جهراً، فإن المرء لا يملك إلا التقدير له والإكبار.. وطوبى للغرباء!!

مؤلفات
الدكتور علي فهمي خشيم

*** النزعة العقلية في تفكير المعتزلة:**

دراسة في قضايا العقل والحرية عند أهل العدل والتوحيد. (دار مكتبة الفكر - الطبعة الأولى 1966. المنشأة العامة للنشر - الطبعة الثانية 1975).

*** الجبائيان. . أبو علي وأبو هاشم:**

بحث في مواطن القوة والضعف عند المعتزلة في قمة ازدهارهم وبداية انهيارهم. (دار مكتبة الفكر 1968).

*** أحمد زروق والزروقية:**

دراسة عن أحد أعلام التصوف الإسلامي في شمال أفريقيا. حياته وعصره ومذهبه وطريقته. (دار مكتبة الفكر 1975 - الطبعة الثانية: المنشأة العامة للنشر 1980).

*** الكناش:**

صور من ذكريات الحياة الأولى لأحمد زروق. . . بقلمه. مع

مقدمة وتحقيق. (المنشأة العامة للنشر 1980).

*** كتاب الإعانة:**

لأحمد زروق: تحقيق وتعليق. (الدار العربية للكتاب 1979).

*** نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى:**

ترجمة كتاب (وليام سذرن): (W. southern; western views of islam in the middle ages). مع التعليق عليه، ومقدمة، بالاشتراك مع د. صلاح الدين حسن. (دار مكتبة الفكر 1976).

*** حديث الأحاديث:**

مناقشة صريحة لآراء وأفكار الشيخ محمد متولي الشعراوي. (دار مكتبة الفكر 1978).

*** نصوص ليبية:**

ترجمة لكتابات مشاهير المؤرخين والجغرافيين اليونان واللاتين عن ليبيا القديمة مع مقدمات وتعليقات وشروح. (دار مكتبة الفكر الطبعة الأولى 1968. الطبعة الثانية 1975).

*** قراءات ليبية:**

مقالات مركزة عن الحياة والناس والأرض والتاريخ والأسطورة في ليبيا حتى الفتح الإسلامي. (دار مكتبة الفكر 1969).

*** الحاجية:**

من ثلاث رحلات في البلاد الليبية. رحلات الناصري والمنالي

والفاسي في ليبيا محققة ومشروحة. (دار مكتبة الفكر 1974).

*** دفاع صبراتة Apologia:**

النص الكامل لدفاع (أبوليوس المداوري) في محاكمته بمدينة صبراتة مع مقدمة تحليلية وتعليقات. (المنشأة العامة للنشر 1975).

*** الأزاهير Florides:**

نماذج من كتابات وخطب (أبوليوس المداوري). (المنشأة العامة للنشر 1979).

*** تحولات الجحش الذهبي:**

رواية أبوليوس المداوري الشهيرة (Metamorphoses) مترجمة إلى العربية مع مقدمة تحليلية. (المنشأة العامة للنشر. الطبعة الأولى 1980. الطبعة الثانية 1984).

*** حسناء قورينا:**

مسرحية (بلاوتوس) Plautus المعروفة باسم Rudens. (دار مكتبة الفكر 1967).

*** حسان:**

مسرحية (جيمس فلكر) (J. flecker; hassan). (المنشأة العامة للنشر 1977).

*** الحركة والسكون:**

مجموعة مقالات وبحوث نقدية في مختلف الموضوعات التي

اهتم بها الكاتب. (دار مكتبة الفكر 1973).

*** أيام الشوق للكلمة:**

مقالات وبحوث ودراسات. (المنشأة العامة للنشر 1977).

*** مر السحاب:**

مقالات قصيرة في السياسة والأدب والاجتماع. (المنشأة العامة للنشر 1984).

*** بحثا عن فرعون العربي:**

دراسات وبحوث في اللغة والتاريخ العربي والليبي ـ بنظرة جديدة للتراث الحضاري. (الدار العربية للكتاب 1985).

*** آلهة مصر العربية (في مجلدين):**

دراسة موسعة للدين واللغة في مصر القديمة لإثبات عروبتهما، ثلاثة أجزاء في مجلدين. نشر الدار الجماهيري (ليبيا) ودار الآفاق الجديدة (المغرب) 1990م.

*** سفر العرب الأمازيغ:**

بحث مفصل في عروبة اللغة الأمازيغية (البربرية). ملحق به:

*** لسان العرب الأمازيغ:**

معجم عربي ـ بربري مقارن. (دار نون 1996).

*** هل في القرآن أعجمي؟**

نظرة جديدة إلى موضوع قديم. بحث يصحح ما شاع من وجود

مفردات أعجمية في القرآن الكريم، يؤصل هذه المفردات ويبين عروبيتها مع مقارنات باللغات العربية الأخرى. (دار الشرق الأوسط، بيروت 1997).

*** في المسألة الأمازيغية:**

سلسلة «الدفاتر القومية». (المجلس القومي للثقافة العربية ـ الرباط 1996).

*** ايناور:**

رواية تاريخية مستوحاة من وحدة عرب مصر وعرب ليبيا في مقاومة الاحتلال الفارسي لوادي النيل في القرن الخامس ق.م.

*** التواصل.. دون انقطاع:**

دراسات في تاريخ وتراث الوطن العربي القديم. (الدار الجماهيرية. 1998).

*** الكلام على مائدة الطعام:**

مقالات في ما يتعلق بأسماء الأطعمة وما يتصل بها أو يدخل في تركيبها من مواد وأدوات. (الدار الجماهيرية. 1998).

*** رحلة الكلمات:**

مقارنات بين العربية واللغات الأوروبية ليبان الصلة الوثيقة بين العربية وهذه اللغات في أسلوب عرض مبسط. (دار أقرأ ـ مالطا/ روما 1986).

* **رحلة الكلمات الثانية:**

(الدار الجماهيرية. 1998).

* **بالإنكليزية: Zarruq the sufi (زروق الصوفي):**

(مؤسسة (موريس الدولية) «Morris international» ـ لندن.

(المنشأة العامة ـ طرابلس 1974).

الفهرس

الفهرس

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الغلاف: علي شمس الدين

الحركة و السكون

يقول «برناردشو» إن فكر الكاتب يتغير، بل يجب أن يتغير كل يوم، دليل حياة وتجدد. وقد يكون في هذا القول بعض الصحة، إلا أنني لا أزال أؤمن بأن التغير شيء والتجدد شيء آخر مختلف. إذ لا بد للكاتب من اتجاه معين، من فكر محدد واضح، من منهج فكري يتبعه ويأخذ به، ثم هو يتجدد داخل دائرة هذا الفكر ويجدده، أو يحاول على الأقل تجديده. وهذا يعني الثبات ـ ولو في الأصول ـ خاصة بعد مرحلة النضج، وبهذا يتميز كاتب عن كاتب.



مصراتة ـ ص.ب. 17459 ـ مبرق 30098 مطبوعات ـ هاتف: 614418 ـ بريد مصور 614816 ـ 051
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى